الطبعة الثانية

غسان حمدان

أبو عبدو البغل

ريمورا

رواية

الربيع العربي
للنشر والتوزيع

Scanned by Jamal Hatmal

ريمورا

ريمورا

رواية

غسان حمدان

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

التصميم الداخلي: آب إمام - آب ستوديوز

الطبعة الثانية فبراير 2015

الطبعة الأولى يناير 2015

حمدان، غسان

ريمورا، رواية،

ط2 دار الربيع العربي، القاهرة، مصر.

ردمك: 978-977-5221-28-5

رقم الإيداع(مصر): 2014/27172

الربيع العربي

للطباعة والنشر والدعاية والإعلان

المدير العام: أحمد سعيد عبد المنعم

002-01141411118

002-01140848568

www.rabe3arabe.com

rabe3arabe@gmail.com

rabe3arabe

كافة الحقوق محفوظة للناشر ©

لا يسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقةٍ، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابيّ مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببضع فقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

الربيع العربي
للنشر والتوزيع

غسان حمدان

ريمورا

1

عندما انتهى الأستاذ طاهر من قراءة الملف، ابتسم ابتسامة خفيفة، ولكنه أحس بحركة عضلات وجهه، فاتسعت ابتسامته. هكذا هو. يدرس ملف كل قضية تحوَّل إليه دراسةً وافيةً مستفيضةً، ويبقى كاتب المحكمة، ومسئول الوارد في شعبة أوراق الإدارة، ينتظران -كاتمين تذمرهما- انتظارًا لتعيينه تاريخ المحاكمة.

تذكَّر أول قضية جنائية تولَّاها، وكان قد تعلَّم ما يجب عليه أن يفعل، لا بالنسبة لدراسة ملف القضية أو كيفية إدارة جلسات المحكمة فقط، بل وما قبل ذلك، عندما اشتغل كاتب محكمة أولًا، ثم حاكم بداءة بعد ذلك.

انتبه إلى أنه مبتسم، كما انتبه إلى أن ابتسامته اتسعت، فاتسعت أيضًا. رفع سماعة الهاتف وطلب رقمًا:

- مرحبًا محمود! الأحوال. أحوالي ماشية، اسمع، سوف يأتيك الكتاب الرسمي، لكن لأهمية الموضوع أريد تقريرًا سريعًا عن حامد حسين بسطام. سوف يتصل بك الكاتب

ويعطيك التفاصيل. لن أوصيك ثانيةً، الدقة والتفصيل. شكرًا، شكرًا، طيب، شكرًا مع السلامة.

وضع سماعة التلفون ودق جرس مكتبه دقتين. جاءه كاتبه وبيده دفتر مذكرات صغير وقلم. جاهز. ويبدو أنه تعلم درسه منذ زمن:

- أؤمر أستاذ.

- العفو. هذه الإضبارة خلصت بالنسبة لي، ابعث تلكس إلى مكتب استعلامات «خدمة الحقيقة»، تأكيدًا على مكالمتي التلفونية مع مديره، محمود، اليوم، لتقديم المعلومات الكاملة.

ارتخى على مقعده، نظر إلى منضدته، لم يكن عليها شيء. تلهَّى بالتقويم المنضدي ثم أخذ يراجع التواريخ ويحسب. إننا الآن في شباط، وما زال الوقت طويلًا حتى عطلة المحاكم الصيفية. إذا كانت هناك ملفات أخرى ستُحال عليه فإنه يتمنى أن تأتي سريعًا ليستطيع حسمها جميعًا قبل العطلة، تلك عادته، هو لا يحب أن يذهب لقضاء عطلته وثمة شيء يحك دماغه. «لا يجوز تعطيل أعمال الناس! ما ذنب المتهم الذي يعيش في قلق مدة طويلة؟ وماذا جنى أهله كي يعيشوا بين اليأس والرجاء؟»، وابتسم عند هذه الخاطرة.

لقد ارتسمت حياته، وأسلوب عمله منذ وقت طويل، كم مضى عليه؟ منذ أن... منذ بدأ العمل حاكمًا في

المحكمة الكبرى. قبلها لم يكن يبالي بشيء، ومع أنه كان آنذاك يتحين فرصة لممارسة عمل جاد، إلا أن الفرصة لم تُتَح له حقًّا. وفجأةً انفتح عليه باب السماء.

عندما صار زميله على مقعد الدراسة، تلميذه الذي بعُمر أبيه، رئيسًا للجمهورية فجأة. ولكن، قبل ذلك... لا، ما شأننا بما قبل ذلك؟ قبل ذلك كان حاكم بداءة يعالج دعاوى طلاق مرة، ودعاوى ديون أو إخلاء منازل مرة أخرى. كم كان عاقلًا حين لم يتورط في رشاواها التافهة.

ولكن، بعد أن اتصل به زميله، تلميذه، رئيسه، تلفونيًّا، تبدَّل كل شيء.

كان قد رأى رحمن. رحمن؟ عبد الرحمن. السيد الرئيس. لا، لا... ليبق على أبو قيس كما تعود طيلة سنوات صداقتهما.

كان قد رآه بضع مرات في الكلية فأثار فضوله. سأل عنه، قيل له إنه ضابط في الجيش أحبَّ أن يدرس الحقوق. أهو هوس أم طموح؟ لِمَ لَمْ يدرس الحقوق على نفقة وزارة الدفاع ابتداء؟ وسيكون ذلك أيسر عليه، أما الآن، وهو يتجاوز الأربعين، فكيف سيستطيع أن يستوعب دروسه وكيف سيتمكَّن من مصارعة «الالتزام»؟ وقد دوّخ هذا الدرس فتية نابهين وأتعبهم. إلا أن طاهر هزَّ رأسه، نفضه وجعل كل تلك الأفكار تتساقط منه. ما شأني بهذا الرجل!

في بداية السنة الثانية في الكلية أقامت عمادتها حفل تعارف للطلاب الجدد. ورتَّبت الموائد بحيث تضم تشكيلة

منوَّعة. طلاب من مختلف الصفوف، وأستاذ. ولأن عدد الطالبات كان قليلًا جدًّا، لجأت العمادة إلى إجراء طريف. خصصت فتاة واحدة لكل منضدة، مهما كان صفها، بينما كان ذكران يمثلان كل صف. وهكذا، كانت كل فتاة تجالس تسعة رجال حول منضدة واحدة: ثمانية زملاء، ومدرِّس، عدا الطاولة الخاصة التي جلس عندها العميد إلى جانب الضيوف الخصوصيين من رئاسة الجامعة، وضمت فتاتين أو ثلاثًا فضن عن ذلك التقسيم المدروس.

جلس رحمن مع طاهر إلى الطاولة نفسها، وكان ثمة آخرون تقدَّم بهم العمر أيضًا، من طلاب القسم المسائي، كرحمن. وتذكر طاهر تساؤلاته القديمة. ولكنه وجد رحمن متحفظًا في الحديث جدًّا، كما لاحظ أن عددًا من مُجالسيهم بدأوا الدراسة متأخرين، فخشي أن يقضي الوقت في الاستماع لسير ذاتية رثَّة. وكان قد خشي أيضًا أن تتسبب أسئلته، إن هو سأل، في إحراجات لا مبرر لها، فآثر صرف النظر عن الأمر كله، واكتفى بعد المجاملات الأولية بثرثرة غير هادفة.

كان الجلساء يتوقعون أن يستأثر بالفتاة دونهم، فهما من عُمر واحد، وقد فرض عليهما ترقيم المقاعد أن يجلسا متجاورين. وربما كانت الفتاة تنتظر ذلك أيضًا. ولكن طاهر وجَّه أقل ما يمكن من كلام إليها، ثم تركها. نسيها تمامًا.

«فقد كانت الأنثى الوحيدة التي تشغل بالي آنذاك «لمى». كنت مستعدًّا للتضحية بحياتي من أجلها. ولكنها

أحبطتني، رشَّت على كل حماستي واندفاعي ماء باردًا. القحبة بنت القحبة! وربما كانت تسخر أيضًا».

ظنت الفتاة أن تلك خطة منه ليجعلها تزداد اهتمامًا به، تبادئه. إلا أنها عندما رأته يتمسك بموقفه ذاك، تركته هي الأخرى وانصرفت تُحادث الآخرين.

وعندما انقضت حفلة التعارف تفرقوا، وعاد بعدها كلٌّ إلى شأنه. الطلاب إلى دروسهم، والطلاب الموظفون إلى دروسهم وأعمالهم. وكان يلتقي رحمن في الكلية أحيانًا، عندما يذهب إليها هو مساءً للقاء بعض من انعقدت بينه وبينهم صداقات من موظفين كبار، أو في طريقهم إلى أن يصيروا كبارًا. أو عندما يأتي رحمن في بعض النهارات ليستفيد من مكتبة الكلية أو لمراجعة عمادتها في شأن من شئونه. وكانا يكتفيان بتحية مُجاملة أو مجرد هزة رأس وابتسامة خفيفة كلما التقيا.

وفي حفل التخرج حرص طاهر أن يرى إن كان رحمن قد حقق امتيازًا ما، مثله، حيث كان الثالث على دفعته، ولكنه وجد أنه لم يحقق شيئًا يُذكر، لكنه نجح مع ذلك من الدور الأول. والتقيا، وتبادلا التهاني. وعاد رحمن إلى دائرته.

«ربما حصل على أقدمية سنة أو ستة أشهر على الأقل، بينما ذهبت أنا إلى كلية الاحتياط، وبين درس وتدريب تخرجت ملازمًا ورحت أعدّ أيام انتهاء هذه البلوى الجديدة كي أنصرف إلى ممارسة عمل حقيقي كنت أتلهف عليه، وقد نجح تخطيطي في الوصول إلى أبوابه. ولحقت مدة الخدمة

الإلزامية أيضًا بفترة الدرس والتدريب. وعندما قدمت أوراق تعييني إلى وزارة العدل، فوجئت باسمي يظهر على لوحة إعلانات الوزارة بعد أيام، مقبولًا كاتبًا أول في محكمة بداءة ديالى. عجبت، مع فرحي، فالمكان قريب، والمركز جيد. هو حقي طبعًا لأنني الثالث بين أقراني وأنا أعرف أن الأول والثاني لم يتقدما لطلب التوظيف. ولكن هذا لا يعني شيئًا. فيمكن لمن ترتيبه المائة أن يتفوق على الأول نفسه إن كانت له الواسطة المناسبة. ولكنني سأعرف بعد شهور بأن الوساطات تحركت لملء شواغر بغداد، وبعضها، ويا للسخرية، لملء شواغر مدن أخرى، وقد تسبب ذلك في إحالة عدد من كتّاب المحاكم إلى التقاعد! ونقل آخرين إلى محافظات أخرى.

عندما أعلنت شواغر في المناصب القضائية، وفتح باب لامتحان كفاءة للتنافس على إشغالها، أعطي امتياز، كالعادة، للعاملين في السلك القضائي، يضاف إلى مستوى نجاحهم في الامتحان. ولكن بقي الامتياز الأكبر، طبعًا، هو الواسطة، وكنت قد تدبرت واحدة -لم أمتحن قيمتها بعد- في شخص رئيسي، حاكم بداءة ديالى. وكان الرجل من اللطف بحيث أنه تدخل لصالحي، دون علمي، وعندما اطمأن إلى نتيجة تدخله، استدعاني إلى مكتبه».

- شوف ابني طاهر. أنت شاب مجتهد ودءوب تستحق كل خير. أنا متأكد من أنك ستنجح في الامتحان. وأنا مقتنع أنك قضيت ما يكفي بعيدًا عن أهلك وأصدقائك. أنت

بغدادي قحّ، رغم لقبك، «هنا تعجَّبت: من أين عرف!». وليس لك ما يربطك هنا. لا أهل ولا خطيبة. لا رفيقة ولا صديقة «وهنا ابتسم هو» ولا حتى عشيقة. ثم أنت ما ارتبطت بالأهالي فتكسب منهم امتيازًا ثابتًا، ولا حتى عطايا مألوفة «ازداد عجبي». لا تستغرب. كنت أراقبك طيلة خدمتك معي. أليس هذا واجبي؟ لا يهم. لهذا أرجو أن يُقبل تعيينك حاكمًا في إحدى محاكم بغداد. وإذا وجدتها بعيدة عن المحل الذي تريد، أو وجدت مشكلة أو صعوبة في عملك القادم، اتصل بي. يمكن أن أنفعك.

«شكرته وأنا أسخر منه في سري: «لو كنت تقدر أن تفعل شيئًا لكنت فعلت لنفسك. ما قعدتك هنا في منصب لا يقدم خبزًا في محكمة جائعة في مدينة تعبانة؟»، وعندما جاءني أمر التعيين حاكم بداءة في مدينة الثورة أحسست أن يد الرجل تصل. وأكبرت فيه تواضعه. شكرته كثيرًا عندما ودعته.

وكان أمامي أن أدخل دورة تأهيل خاصة. كنت أجدها فترة استراحة. إجازة تدوم ستة أشهر تنتهي قبل عطلة المحاكم، يلحقها نحو شهرين في إجازة حقيقية سيكون لي أن أتمتع بها كاملة لو أردت هذه السنة.

عدا شغلي الزائد على أضابير الدعاوى في ديالى، كنت أقضي وقتًا طويلًا في دراسة كتب القانون، مركزًا على الكتب التي تتناول أصول المحاكمات والأمور الإجرائية، كما راجعت نحو ألف إضبارة قديمة من أضابير ديالى،

حتى صار بمقدوري أن أصف نفسي بالمتخصص في شئون محاكم البداءة وإجراءاتها. خاصة في مدينة ترتفع فيها نسبة الأمية وتقل المستمسكات الثبوتية، إن لم تكن معدومة أصلًا، حيث يضطر الحاكم إلى الاعتماد على الشهادات، المريبة عمومًا لتأثرها بالمصالح المتضاربة».

في قاعة الدورة الجديدة التقى رحمن مرة أخرى، وعلى مقاعدها توثقت علاقتهما. عرف هو أن رحمن صار عقيدًا في هذه الأثناء، وعرف رحمن أنه حاكم بداءة، وفي بغداد. لاحظ طاهر أن كثيرًا من تحفُّظ رحمن قد زال. «أذلك لأنني صرت حاكمًا؟ لأنني حاكم في بغداد؟ أم للسببين معًا؟ لا تستعجل وتظلم الرجل، ربما كان متحفظًا خجولًا بطبيعته، وينتظر دائمًا أن يقترب الآخرون منه، أو ربما أن ترقيه الوظيفي أخذ يفعل فعله فيه شيئًا فشيئًا، ليصير أكثر مرونة، وأكثر احترامًا للآخرين!»، ماذا قال لهم آمر كلية الاحتياط؟ ذات مرة شكى الطلاب أحد الضباط إلى الآمر. وبعد حديث طويل عن الضبط والنظام، قال لهم الآمر: أقول لكم شيئًا يجب أن تتذكروه جيدًا. عندما يتخرج الضابط ويحمل النجمة على كتفيه يتصور نفسه سيصير «مونتغمري» أو «رومل» بعد يومين. بل ربما هو أرفع منهما منذ الآن. يأخذ سيارة الجيب لعمل أو لغير عمل. ويتعمد أن يجعل وقت خروجه مع وقت انصراف المدارس، ويجبر السائق على أن يجعل مسيره على مدرسة بنات، أو أكثر من مدرسة، جلسته غير طبيعية، يُميل كتفيه بشكل يجعل من هو بمستواه أو تحت مستواه

يراهـا. كي يـرى النجمـة وكأنهـا أعـلى رتبـة عسـكرية في الدنيـا. يجلـس بنصـف مؤخـرة.

«وعندمـا ضحكنـا، قـال: ألـم تـروا أحـدًا منهـم؟ نصـف مؤخرتـه مُعلَّـق في الهـواء وربمـا أكـثر مـن النصـف. بالـكاد يمـس النصـف الآخـر مقعـد السـيارة. ويضفـي عـلى وجهـه نظـرة ملؤهـا الجـد بينمـا تلتهـم عينـاه البنـات مـن تحـت لتحـت ليرى مـن منهـن تتطلَّـع إليـه! لكنـه بمـرور الأيـام، كلمـا ازدادت نجماتـه ورتبـه «يثقـل»، وكأنمـا تزيـد هـذه العلامـات وزنـه. يجلـس جلسـة طبيعيـة، يحـدث النـاس بشـكل طبيعي، يشـاغل مـن معـه في السـيارة بالحديـث وإن لـم يكـن معـه أحد ينشـغل بقـراءة شيء مـا. هـذا أيضًـا ربمـا يكـون تظاهـرًا، ولكنـه تظاهـر مـن نـوع آخـر. إنـه عـلى أيّ حـال لا ينظـر إلى خـارج السـيارة، وإن نظـر فـإلى بعيـد، وإلى شـخص غـير محـدد».

فهـل زادت السـتارتان وزن رحمـن في هـذه الأثنـاء؟ ربمـا. المهـم أن رحمـن كان طبيعيًّـا في سـلوكه وربمـا منفتحًـا، متقربًـا. ومـع مـرور الأيـام صـارا يلتقيـان خـارج قاعـة الدراسـة. دعـاه رحمـن إلى نـادي الضبـاط، وردّ طاهـر الدعـوة بـأن دعـاه إلى نقابـة المحامـين. وهنـاك سـأله لأول مـرة، وكان قـد عـرف اسـمه بالكامـل: «أبـو قيـس؟ هـل تربطـك نسـبة بالسـيد الرئيـس؟»، فأجـاب ببسـاطة جعلـت طاهـر يرتـاب: «إنـه أخـي الأكـبر. أمـر؟ خدمـة؟»، غطـى طاهـر عـلى ارتباكـه بضحكـة مصطنعـة: «لا، سـلامتك، مجـرد سـؤال».

- ما كانت مجاملة مني. إذا عندك طلب لا تتردد!

- لا، ألف شكر.

لكن رحمن نفسه كان عنده طلب. طرحه ملفوفًا بمقدمات عن تقدمه في السن بحيث يضعف استيعابه للدروس، وكثرة مشغولياته الوظيفية بحيث لا تتيح له وقتًا للدراسة، وأن هذه الدورة لا تنفعه كثيرًا في عمله، إذ إنه لا يريد التخصص في قسم الحقوق بوزارة الدفاع، ولكنها تنفعه مسلكيًّا: «أنا لست ضابط ركن، وترفيعنا نحن الضباط العاديين ليس سلسًا، وأي دورة تنفعنا».

ضحك طاهر وهو يسأله:

- ترفيعك أنت أيضًا ليس سلسًا؟

- نعم، أنا لست سياسيًّا، ولا أريد أن أربط حياتي ومستقبلي بأخي. إنه سياسي كما تعرف، كما تعرف أيام سعده ونحسه. وأنا لست معتادًا على مثل تلك الهزات، ولا أحبها. لذلك لا أقبل بمساعدته إلا وأقرنها بأساس من عندي. أراد أن يضعني في مناصب عالية جدًّا لكنني رفضت. فضَّلت أن يكون وصولي إليها بالتدريج. وطبيعي أنني لا أرفض ألا يستغرق التدريج زمنًا.

وضحكا...

«حياك الله، يا ابن الحلال، منهجك منهجي، تعمل مثلي، تتفوق عليّ بما عندك من سند، ولا سند لي. فلتكن سندًا لي».

ودعاه طاهر بعدها بأيام إلى جمعية الحقوقيين. وعندما التقيا قال رحمن شاكيًا: «فوّت عليّ لعبة نرد، إنني أحبها أكثر من جلسات الشرب هذه، ومع أنني لاحظت أنك مثلي لا تشرب إلا القليل وتحب الاختلاط بالآخرين أقل».

- لو أنك قلت، فأنا أيضًا أفضّل ذلك، على كل حال إذا كان عندك الوقت، لتكن لقاءاتنا حول منضدة النرد مستقبلًا.

واتفقا على ذلك...

واتفقا أيضًا على أن يساعده طاهر في الدورة. دون أن يدخلا في التفاصيل.

«وكنت مستعدًا أن أفعل من أجله كل شيء كي ينجح في الدورة، وينجح متفوقًا أيضًا».

وعزز النرد علاقتهما. هل صارت صداقة؟ ممكن!

على كل حال، كنا نلتقي مرتين أو ثلاثًا أسبوعيًّا، في خانٍ من خانات «علاوي الحلة» نحن الاثنان والحاج سعيد الراوي صاحب الخان ومحمد سعيد الجنابي، المحامي، الذي لا يعرف من المحاماة غير متابعة أعمال موكّليه المقيمين في الخارج مع مستغلّي أملاكهم ومستأجريها ودوائر الدولة ذات العلاقة. والذي يكاد يكون أضحوكة الأصدقاء أثناء اللعب لعصبيته وسرعة ثورته.

وصارت رابطتي الجديدة برحمن أوثق من رابطته

بالاثنين. حتى صار يأخذني معه كلما أراد شراء شيء لنفسه، بدلة، رابطة عنق، وحتى قميص. تصورت أنه يفعل ذلك لأنه يريد من يرافقه، مجرد رفقة طريق، لكن اتضح لي أنه يفعل ذلك لأنه لا يعرف ما يشتري، فهو لا يعرف كيف يلبس.

في امتحانات نهاية الدورة، كنت أجيب على ورقتي الامتحانية بأسرع وقت، وأستغل الفرصة لأدفعها إليه وأتناول ورقته. وليس على أي من الورقتين اسم. بينما كان ينشغل بقراءة ورقته لـ«تدقيق إجاباته»، كنت أشرع بالإجابة على الأسئلة في «ورقتي». والحق أنني كنت أبذل جهدًا كبيرًا في الإجابة، وجهدًا أكبر في تحسين الخط. وعندما أنتهي من الإجابة أشير له. فنشرع كلانا في وضع اسمينا على الورقتين، ونخرج بفارق بضع دقائق من قاعة الامتحان.

ثلاثة أيام... وانتهى الامتحان.

ثلاثة أيام أخرى... النتائج.

كنت الثاني على الدورة. وجاء ثالثًا. خرجنا معًا، بعد أن أخذنا النتائج لنحتفل. أخذني أولًا إلى شارع الرشيد.

«أريد أن أشتري بعض أربطة العنق، أقدمها هدية»، قال هذا. أردت أن أنتقي له مما كان معروضًا في الواجهة، لكنه طلب من صاحب المحل أنواعًا أرق. قال باسمًا: «هدايا خاصة». جاءنا الرجل بأربطة حرير فرنسية، ورباط غريب الملمس، كأنه مُحاك باليد، أما الزهور عليه فهي

مشغولة باليد حتمًا. أردت أن أشتريه لنفسي، لكنني عندما سمعت بسعره ذُعرت وتركته. ضحك رحمن، وعزله مع ما انتقيت. اجتمعت خمسة. دفع سعرها وطلب من صاحب المحل أن يلفها بورق هدايا. أفرغ الرجل لها علبة أربطة. وضعها معًا، ولما أراد أن يلفها قلت له: «يقصد كل واحد بمفرده». أدار الرجل أنظاره بيننا، ابتسم رحمن وقال له: «لا بأس. غلّفها معًا». خمَّنت المسألة، تظاهرت بعدم الفهم.

عندما خرجنا من المحل، أعطاني العلبة:

- «مع شكري العاجز عن الوصف».

عندما أردت أن أتكلم، قال:

- هذه هديتي عرفانًا بالجميل. ولك هدية أكبر من أخي أيضًا. اطلب.

أي أحمق هذا يا ربي؟

- «أقلت لأخيك ما كنا نفعل؟ ماذا سيقول عني؟ أي قاضٍ أنا الذي...».

فقال جادًّا:

- لا، لا. ماذا تتصورني؟ (أتصورك أحمق كثيرًا يا صاحبي!) لقد تحدثت له كثيرًا عن مساعدتك في إفهامي غوامض الدروس، وإعادة شرح بعضها عليّ.

تنهدت في ارتياح. وقلت متصنعًا (ولا أظنه انتبه):

- إنني لم أفعل ذلك طمعًا في حاجة، ولا حتى انتظارًا لهذه الهدية الرمزية منك، تعرف؟ فعلته من باب الصداقة والمحبة.

- أعرف، أعرف. أتظنني لا أعرف؟ ولكن أخي تعهد بأنني لو كنت بين الثلاثة الأوائل فلي ولك جائزتان كبيرتان. لم يقل عن جائزتي شيئًا، ولكنه عنك قال: يمكنك أن تطلب ما تتمنى!

- أنت تحرجني يا أبا قيس.

- بدأت تتكلم بشكل رسمي. أولًا: رحمن، وثانيًا اطلب.

بعد منمنة وعنعنة قلت:

- أريد أن أُنقل إلى حاكم جزاء.

طويلةً كانت قهقهته.

- أحمق، أقول لك على لسان رئيس الجمهورية اطلب ما تتمنى، وتطلب النقل من محكمة إلى محكمة! اطلب.

فقلت له بجدٍّ بالغ، وأنا أحدق إلى عينيه أغرسُ بنظرتي كلامي كي أدفع ما أريد إلى ثنايا دماغه البعيدة، حتى تترسب في أعماقه.

- أنا حاكم، أحبّ القضاء، أعشقه، وقد أفنيت ست سنوات من عمري في محاكم البداءة كانت في نظري مجرد تدريب، فعشقي هو القضايا الجنائية. ثم لا تتصور أن هذا الانتقال أمر بسيط، فلجهاز القضاء تقاليده. إن نقلة

كهذه تشبه ترفيع رائد عندكم إلى عميد أو لواء مثلًا.

كم حاول المسكين معي! ولكن إصراري كان أقوى.

والحقيقة أنني كنت ما أزال أعتقد أن كلامه كله مجاملة، وأن لا شيء مما ذكر سيجري.

في صباح اليوم التالي، وأنا أسمع أخبار الصباح قبل انطلاقي إلى العمل، سمعت المرسوم الجمهوري بتعيينه رئيسًا لأركان الجيش.

نصف وعد أخيه الذي حدثني عنه تحقق. فهل سيتحقق نصفه الثاني؟

عند الظهر، رنّ تلفون مكتبي، وكان المتحدث مدير المكتب الخاص للسيد وزير العدل!

- أستاذ طاهر الحديثي؟ تحياتي. يرجو السيد الوزير أن تكون حضرتك هنا في الساعة العاشرة من صباح، الغد.

لست أعرف الرجل، فلا مجال للتبسط في الحديث معه لمعرفة ما يريد الوزير. أردت أن أضع ربطة العنق الخاصة صباحًا، ولكنني أعدت النظر في الأمر. اكتفيت بربطة حرير «اعتيادية» جميلة أنيقة وغالية. هل تلفت النظر؟ ربما. وليكن. فملفي الوظيفي نظيف لا غبار عليه. لا غبار؟ لا توجد ذرة غبار على بعد مئات الأمتار منه. ومصروفي قليل. صفحتي بيضاء، لا أحد يستطيع الشك بي حتى، فكيف باتهامي؟

قبل العاشرة بدقائق كنت في غرفة مدير المكتب الخاص. عندما قدمت نفسي وجدت الرجل أكثر دفئًا مما كان على التلفون بالأمس. أهي دبلوماسية منصبه؟ أهي إيحاء بما سيواجهني؟

دخل يعلم السيد الوزير بقدومي، فتح باب الغرفة من الداخل ووقف ينتظرني، تفضل أستاذ وانحنى مبتسمًا وخرج.

نهض الوزير لاستقبالي باسمًا، مرحِّبًا، ودعاني للجلوس.

ذهب إلى مكتبه، وجاء إلى حيث كنت أجلس وبيده مظروف، وضعه على الطاولة بيننا، وجلس. جاءت القهوة.

هنأني على نجاحي المتميز في الدورة - هل هنأتَ الناجح الأول يا ترى؟ وهو موظف في وزارتك أيضًا؟ وهنأني تهنئة أخرى وألقى نظرة على المظروف أمامه وعندما رفع وجهه إلي كان يبتسم.

- جاءني أمر لا يرد بنقلك حاكم جزاء. هو - كما فهمت - طلبك الشخصي، مع أن البعض قد يجده عقوبة! ولكن مع ذلك. أنت تعرف. للوزارة تقاليدها، وسلك القضاء متحفظ (ما هذا، أرفضَ الرجل أمر سيده؟). لذلك لم أكتف بالأمر بل درست إضبارتك. إنك واحد من أنزه القضاة الذين عرفتهم في حياتي، إن لم تكن أنزههم على الإطلاق (دعني أعرف النتيجة يا بن الكلب، اختصر المقدمات!) ولك تجربة نحو ست سنوات في المحاكم، ومع أن تجربتك قاضيًا تقل

عن ثلاث سنوات إلا أن دأبك ومثابرتك، ونجاحك المتميز في هذه الدورة، يساعدني على تنفيذ الأمر. مبروك!

لست أدري إن كان سمع صوت تنهدي. شعرت به يدوي في الغرفة الهادئة. شكرته. وعدته أن أكون عند حسن ظنه. تمنى أن أتابع سيرتي. وفي ما بين الجد والمزح أضاف:

- توصَّ بنا.

حييت تواضعه. اعتذرت عن تفكيره (أحقًا إن ترحيبك الحار واحتفاءك الزائد لطمع منك في وساطتي؟ ماذا تريد بعد؟ لك الحق. فربما كنت مرشحًا للطيران في التعديل الوزاري الذي يروج الحديث عنه! الأحمق، يتصورني ألعب الدومينو في المقاهي مع الرئيس وأقضي الليالي سهرانَ معه! لا يتصور أنني لم أر الرجل وجهًا لوجه في حياتي!).

شكرته مرة أخرى عندما سلمني المظروف، حييته وانصرفت. قام مدير المكتب احترامًا لتوديعي.

في مكتبي فتحت المظروف. لا جديد فيه مما أعرف.

رفعت سماعة التلفون وطلبت الرقم الخاص لرئيس أركان الجيش. كان أعطانيه أمس عندما اتصلت به أهنؤه.

شكرته، وطلبت أن ينقل شكري واحتراماتي. ضحك مرة أخرى وهو يقول إن أخاه يلسعني بتعليقات مرة عن «فُقريَّتي».

2

مكتب خدمة الحقيقة **الرقم: 1 ج/17**

«استعلامات خاصة» **التاريخ: /6/1965**

سري للغاية وشخصي

إلى محكمة جزاء الأعظمية - بغداد

م/ استعلام

بالإشارة إلى استعلامكم المرقم أ/647 في 29/5/1965، يسرنا أن نحيطكم علمًا بأن استعلاماتنا عن المدعو حامد محمود بسطام قد أدت إلى ما يأتي:

1 - الاسم الثلاثي: حامد عبد القادر نجم.

2 - مواليد: 1940، بغداد.

3 - عنوان السكن: رقم الدار 24/9/17، العيواضية، الأعظمية. رقم الهاتف: 222945

4 - عنوان محل العمل:

أ - المكتب: عمارة الدولعي، ساحة النهضة، الرصافة، بغداد، هاتف:848322

ب - المخـازن: شـارع الفـداء- حـي جميلـة- بغـداد. هاتـف: 5751817

ت - المعمـل- شـارع الفـداء- حـي جميلـة- بغـداد. هاتـف: 5751436

5 - الحالـة الاجتماعيـة: أعزب (خطب حديثًا. اسـم الخطيبة: سـلوى الدولعـي، قريبـة بعيـدة له، مـن عائلـة ذات وضع مـالي ممتاز).

6 - الحسـابات: حسـاباته الرئيسـية مـع: مـصرف الرافديـن، الفـرع الرئيـسي، شـارع السـموأل.

التسهيلات 25000 دينار- لقاء رهن بستان في الدورة.

له حسابات أخرى في: مصرف الرافدين، فرع شارع الكفاح.

التسـهيلات:25000 دينـار- لقـاء رهـن حصتـه في العمـارة الـتي يقـع فيهـا مكتبـه.

المصرف التجاري- فرع شارع النهضة.

التسهيلات: 50000 دينار- لقاء رهن بستان في الدورة.

50000 دينار بلا ضمان، نظرًا لوضعه المالي الجيد.

المكتـب مجـاز بكتـاب رئاسـة الجمهوريـة الرقـم آ2/316 في 3/5/1964، وكتـاب وزارة الداخليـة 3ج/4418/22/19 في 20/4/1964 وكتـاب وزارة الماليـة المرقـم 7 متفرقـة/2418

7 - معلومـات عامـة: تـوفي أبـوه وهـو في العـاشرة مـن عمـره تقريبًـا. تولـت والدتـه تربيتـه، مـع شـقيقته (عاطفـة)، بـإشراف

من عمه، الذي كان يساعد في أعمال العائلة التجارية التي أدارتها الأم أيضًا.

- أنهى دراسته الجامعية سنة 1962 في كلية التجارة والاقتصاد بدرجة ممتاز، وكان الثاني على دورته.

- التحق بكلية الضباط الاحتياط في شباط 1963، وتخرج ثالثًا على دورته في تموز من العام نفسه. عمل في مديرية العقود والمبايعات في الكرنتينة، بغداد.

- يقضي فصل الصيف سنويًا مع عائلته خارج العراق.

- المفروض أن يتزوج في حزيران القادم، ويقضي شهر العسل في الخارج.

- لم يسبق أن عرف عنه نزاع أو شجار، لا في الأسواق التجارية، ولا في محل سكناه.

- لا يصدق أحد من جيرانه ومعارفه (وقد التقينا بأكثر من عشرة منهم) أن يكون هو القاتل في القضية المتهم بها الآن. وينفي الجميع وجود مسدس لديه أصلًا. أعلمناهم بأن المسدس يخصه، وهو هدية كلية الاحتياط له عند تخرجه منها، فأكدوا جميعًا أنهم لم يروه عنده يومًا.

المدير

التوقيع

محمود محمد حسن

ملاحظة: قائمة الحساب على الصفحة الثانية.

ممتاز. وضعه يسهّل أمره، ويسهّل أمري.

سحب طاهر الصفحة الثانية من الكتاب الرسمي، ودق جرس مكتبه مرتين. جاءه الكاتب. أعطاه الصفحة وطلب منه تصويرها (كالعادة).

بعد أن عاد الكاتب بالصفحة الثانية، أعطاه الأصلية مع الصفحة الأولى، دون أن يقول شيئًا، وكتب شيئًا على صورة الصفحة الثانية، ثم أعطاها له أيضًا.

أخذ يفكر. أيهما تشبه لمى، سلوى أم عاطفة. عاطفة يجب أن تكون واحدة ممن يدفعن الجزية، أما سلوى فلا يدري.

عندما طردته لمى، باستهانة، كانت قد أحكمت إغلاق قلبه تجاه النساء، لم يعد يرى فيهن غير موضوع انتقام.

- ماذا تنتظر مني؟ أنا أقدر مشاعرك وأشكر عاطفتك نحوي، ولكنني لا يمكنني أن أعيش بالعاطفة وحدها. تعودت على مستوى حياة لا أتصورك. بل أعرف أنك غير قادر على تأمينه.

- لا نزال شابين، نشق طريقنا في الحياة.

- لست مستعدة للشق، ثم إن طريقي مشقوق أصلًا. أنت لا تزال طالبًا في الصف الأول، وكما قلت تعيش على راتب أبيك التقاعدي مع أمك. والبيت الثاني الذي تؤجرونه الآن لا يصلح مسكنًا لي. إذا أردنا الزواج الآن فعلى أي شيء نعيش؟ وإن كنت تنوي الزواج بعد التخرج، وهو المعقول

والمنطقي في رأيي، فماذا سأفعل في هذه الأثناء إن تقدم لي أحد.

- ولكنك قلت إنك تحبينني أيضًا.

- نعم، نلتقي، نتحدث، ندرس معًا. اعذرني على صراحتي، إن تفكيرينا يختلفان. أنا أحبك كزميل، ولكن أن نعيش معًا، أن نتزوج، فهو أمر بعيد، ألا توافقني.

وتريد موافقتي، ابنة الكلب! لعل الطالب الذي دبر مع زملائه اغتصاب زميلتهم في كلية الآداب كان مدفوعًا بإحباط كهذا. إنها تتحدث ببرود، بعملية، وتسمي ذلك منطقًا، وتفكيرًا سليمًا، آه، لو أتيحت لي فرصة الانتقام، ستجدين انتقامي رهيبًا.

ولكن تجربة أبيه علمته شيئين، عدا الانتقام نفسه: أن يفعل الفعلة ويبدو عليه أنه أبعد ما يكون عنها، لا علاقة له بها، وأن تحقق له مكسبًا ماديًا.

لقد خدم أبوه أكثر من عشرين سنة في الجمارك، منذ أيام اشتغاله الأولى ورطوه في فتات تافه، كانوا مع ذلك يأخذون عنه «إيجارًا»، وكانوا يمنّون عليه أنهم وضعوه في هذا المركز، أو نقلوه إلى ذاك. حتى اطمأنوا إلى أنه ثور عمل، وحمار طاعة. ورطوه في تلك العملية الكبيرة. ولم يكن هو الأحمق ليقدر مخاطرها، وما يطغى على الجو من تنافس كبير ومؤامرات، بين أنصار وزير المالية السابق، وهم يحتلون أهم المناصب في الجمارك، والوزير

الجديد، المستعجل على تكديس أكبر ثروة منذ يوم عمله الأول. نقلوه إلى نقطة جمارك برية على الحدود السعودية، مع مخصصات مغرية وظروف عمل جيدة، وفرح الأحمق بذلك. وفي أول يوم عمل له هناك ألقت الشرطة القبض على بضعة خرفان وراعٍ تغذ السير نحو الحدود السعودية بعيدًا عن المركز الجمركي. وبعد التحقيق اتضح أن ما حجز بقية من خمسة آلاف رأس غنم دخلت السعودية ناقصة بضع عشرات هي التي كشفت!

وقد أحيل على التقاعد بعد هذه الفضيحة، والتحقيق الذي ترتب عليها، وقد أحس الأب الأحمق بشعور راحة عميق لأنه نجا من المسألة بمجرد الإحالة على التقاعد: «أليس أفضل مما يتم سجني؟ لقد وقفوا بجانبي. أسندوني، وأنقذوني». ولم يفهم أن الذي خلصه حقًا كان حداثته في النقطة، وأن العملية تمت في يومه الأول، المسألة التي أكد عليها محاميه كثيرًا. أم أنه كان يدري ويتغابى؟ ثم ما المكسب في نجاته بهذا التقاعد الهزيل، الذي يقل راتبه عن نصف راتبه وهو يعمل، وتحسم منه كل المخصصات والخدمات، ليكون صافيه نحو ربع دخله وهو يعمل؟

كان يعلم. وهذا ما قتله كمدًا. فقد مات بعد سنتين من إحالته إلى التقاعد. ولا يزال طاهر يتعجب كيف أمكنه مواصلة دراسته، ونجاحه. إنها أمه بلا شك، بشجاعتها وصبرها وحثها إياه على المواصلة دون أن يبدو عليها أنها تفرض عليه رأيًا. وكم تحملت هي أيضًا، إذ ما إن مضى

على تسلمه عمله، بعد التخرج، أيام حتى لفظت أنفاسها وهو بعيد عنها.

أيقظه من تأملاته دخول كاتبه عليه:

- العفو أستاذ، أمر، خدمة؟ انتهى وقت الدوام.

- لا شكرًا، ولكن سجّل ملاحظة، ستكون المحاكمة يوم السبت الثالث من الشهر. اضبط التاريخ وقم بالإجراءات غدًا.

- أمرك أستاذ. مع السلامة.

- مع السلامة.

3

سنة كاملة. اثنا عشر شهرًا. اثنتا عشرة قضية. تأجلت واحدة منها إلى هذه السنة. ثلاثة أخرى هذه السنة. من كل هذا السيل الفائض من الدعاوى كانت سبع فقط فيها «خبزة». ثلاثة آلاف دولار وبعض الفكة. كنت أتمنى أن أحقق عشرة آلاف دينار في السنة الأولى: ثلاثون ألف دولار وتزيد! تخلفت عن الخطة. هاها. كان برنامجي أن يكون هذا العام عام العقارات. إن بيتًا معقولًا في لندن، وتأثيثه، يكلف «خبزة» دعوى. قضية حامد محمود هذا تستحق أكثر. فلأجعل الأساس إكمال العشرة آلاف الثالثة. وربما أمكننا أن نفعل شيئًا في قضية البيت.

إن تسهيلاته لدى مصرف الرافدين تدل على أن ملكية المتهم أكثر من مئة ألف دينار بلا شك، فمصرف الرافدين دقيق وحريص في حساباته، ليس كبقية المصارف. ألا يستطيع التصرف بأمواله المرهونة؟ ليكن. كم عنده من الأموال الجارية؟. أليست أمه أو أخته أو كلتاهما مستعدتين لإقراضه؟ أو حتى لإهدائه؟ الأم تحبه بلا شك، وهو يدير أعمالها، لمن تأمن غيره؟ إنها تستعجل حريته حتمًا. والأخت؟ حتى إن لم تكن الأخت مستعدة فالأم وحدها تكفي. وهناك أهل خطيبته أيضًا؟ إن لم يتخلوا عنه منذ البدء فهم مستعدون للدعم. ننتظر. ولتنتظر أيضًا المطالبات التكميلية. القشطة. هه هه.

انتهى تفكير طاهر وتوقفت حساباته قبل أن يرن التلفون:

- أهلًا محمود. إي نعم. وصل البارحة ودرسته. كنت أنتظرك.

- ما زلت أنتظر. تفضل اشرب قهوتك عندي. أنتظرك. مع السلامة.

بعد أقل من نصف ساعة استأذنه كاتبه لإدخال السيد محمود الدوري، صاحب مكتب «خدمة الحقيقة». طلب أن يدخله، وأن يأمر لهما بالقهوة.

عندما دخل محمود نهض الأستاذ طاهر لاستقباله. هو كما هو. منذ رآه أول مرة قبل ثلاث سنوات، وعشرات المرات بعدها طيلة تعامله معه، ولقاءاتهما العرضية في الجمعية أو النقابة. عادي اللباس، عادي المظهر، نظيف مهندم، ولكنه لا يلفت نظرًا. حتى عمره لم يكن يمكن تخمينه بدقة. هو لم يسأله عنه. لا خجلًا، وإنما لأنه يفضل عدم الغوص في خصوصيات من يتعامل معهم، كي لا يغوصوا في خصوصياته. مع أنه لم يكن عنده ما يخفيه حقًا. أو في العراق على الأقل.

ولكن شيئًا في محمود هذا يدهشني. إن منظره البسيط

العادي المألوف لا يدل على ولع خاص بالتجسس على خصوصيات أحد، فما الذي جعله يتوفر على هذه المهنة؟ لقد قال لي مرة إنه لا يحب الوظيفة الرسمية فلم يشتغل في وزارة العدل أو المحاكم، مع أنه كان بمقدوره أن يفعل. والمحاماة لا تطعم خبزًا إلا لمن يكون واسع الارتباطات. وهو عنده ارتباطات. ولكنك تصرف جهدًا ووقتًا على إنماء ارتباطاتك و.هوب. يأتيك بيان رقم واحد جديد من الإذاعة فينهار كل شيء وعليك أن تعمل من جديد. ولذلك فضّل هذه المهنة. فيها شيء من القانون وشيء من التحقيق. فيها سرية ومطاردة. وإذا كانت ارتباطاته، من جهة طالبي المعلومات، محدودة: مصارف، محاكم، ملحقيات تجارية أجنبية، فقط ولا غير، فإن تحرياته تنفتح على عالم واسع يمور بأنواع الناس. تجار محدثين، تجار حقيقيين عريقين، أناس ليس عندهم ما يخفونه يكلمونك عن كل شيء يخصهم حتى لتشك في صحة ما يقولون. آخرون ينطوون على أنفسهم لا تنفرج شفاههم عن أمر حتى لتتصورهم يخفون أكبر الأسرار وإذا بهم بلا سرّ أصلًا. وتذكر طاهر أنه ذكر له مرة أنه مدين لفكرة مكتبه لمعاون الملحق التجاري الأمريكي. فقد تحدث إليه في حفل مرة وطرح أثناء الحديث - عرضا - فكرة مكاتب التحريات الخاصة والفوائد والخدمات التي تقدمها في الولايات المتحدة. ولكنني كنت أتصورها تعمل في التحريات الجنائية وفي مطاردة الأزواج المشكوك في إخلاصهم فقط. لا، إنهم يعتمدون في أعمالهم على المشاريع التجارية، فطلباتها هي الأكثر، ودفوعاتها

هي الأدسم. وطبيعي أن طاهرًا تظاهر بأنه ابتلع الزعم بأن حديث معاون الملحق كان عرضيًا، وابتلع معه احتمال أن تكون علاقات محمود به محصورة في الأعمال التجارية، كما سبق أن ابتلع زعم محمود من عدم وجود أية علاقة له بمديرية الأمن العامة.

عندما انتهت التحيات والمجاملات، كان محمود يرشف ما تبقى من قهوته. وضع الفنجان على الطاولة:

- لا يوجد، تقريبًا، ما يضاف.

ولكن طاهرًا شعر أن الأنف المستقيم أمامه يرتعش فوق منخره الأيمن. وكان منذ زمن سجل تلك الملاحظة. تلك الرجفة علامة كذب محمود، حتى كذبه البسيط، مبالغته، محاولته التقليل من شأن ما. صوب نظرة إلى عيني محمود. وعندما رأى رماديهما استحالا إلى قريب من لون العسل تأكد فهمه.

ابتسم، وقال وهو ينظر بدقة في عيني محمود الواسعتين:

- كأنك تظنني لا زلت أعمل في المحاكم المدنية، فحشوت تقريرك عن أوضاعه المالية، ما لي ولها. إنها تهمني بقدر ما أستوعب منها منشأه وتركيبته ووضعه الاجتماعي. الذي يهمني - كما تعرف - وضع اليد على كل الدوافع المحتملة للجريمة، إن كان هو القائم بها، أو العوامل التي تجعل الآخرين يتهمونه بها. إلا إذا كان الدافع صراحة هو السرقة مثلًا.

نظر محمود إليه، وكأنه يدرسه من جديد، وقال عاقدًا حاجبيه في تقطيبة غابت حدتها وراء شعر حاجبيه المعقود:

- أعرف، أعرف. ولكنني ملتزم، مع نفسي في الأقل، بتقديم كل المعلومات التي تتوفر. أما المعلومات الأخرى، التي اتفقنا أن تكون شفاهية وحضورية، فأنا في الخدمة، مع أنها قليلة.

كان ذلك عهدًا أخذه عليه طاهر منذ أن بدأ يعمل في محكمة الجزاء. لتحقيق هدفه في الابتزاز. موفرًا لنفسه غطاءً جيدًا من البحث النفسي والتفهم المسبق للضغوط المحتملة لحرف العدالة! سأل:

- لم تشر إلى علاقته بعمه الآن، بعد أن استقل بعمله.

- عمه أعطاك عمره. وأولاده معنيون بشئونهم، وأكثرها خارج بغداد.

- وماذا عن ارتباطات العائلة أو أحد أفرادها بشكل خاص.

- لم أجد أي شيء يشير إلى ارتباطات خاصة يمكن أن تؤثر في عملكم.

- إه. ممتاز. أفضل. يمكن للمرء حقًا أن يدرس بهدوء وأن يحكم أهدأ.

ولمح ابتسامة شدت بشرة حنك محمود البيضاء، فسأله:

- وأيضًا؟

- تقول الإشاعات إن أمه «سهلة» الأخلاق. أنا نفسي لا أصدقها. يمكن أن تكون ثرثرات نسائية، يمكن أن تكون إشاعات أطلقها «دون جوان» غاضب لينتقم منها لأنها صدته. لقد رأيت المرأة أكثر من مرة في أكثر من مكان. إنها محترمة بحق وذات شخصية.

- لتكن، المهم عندي ألا توصلها «سهولتها» إلى مكان يريد فرض آرائه عليّ.

- لا أظن ذلك، لم أجد ما يشير إلى احتمال ذلك.

- وماذا عندك أيضًا؟

- لا شيء. هذا فقط.

وفي الدقائق التالية التي قضاها محمود عنده، كان يتمنى أن يصح تصوره، وألا يكون للعائلة من وسيط ذي نفوذ. هذا واضح لي. فالإضبارة عندي منذ شهر تقريبًا وليس هناك من اتصل بشأنها. ولكن الاطمئنان خير. أرجو أن تبقى الحال كذلك.

وقوّت الأيام التالية أيضًا ذلك التصور، إذ لم يسأل أحد، أي كان، ولو مجرد سؤال عن القضية.

ثم تأكد من الأمر تمامًا في الأسبوع التالي، عندما أخبره كاتبه بأن سيدة وفتاتين جئن يطلبن مقابلته حول القضية، وأنه صرفهما، لأن «سيادة الحاكم» لا يستقبل أحدًا بخصوص الدعاوى التي يبحثها.

4

نقر الكاتب على بابه مستأذنًا في الدخول. قال، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

- أستاذ. هذا نجم يقول إنه أعد شاي زعفران ويريد أن يقدمه لك.

- دعه يدخل.

صارت تلك علامته مع نجم.

كان نجم في الخمسين من عمره عندما اتهم بقضية قتل، وقد صوره المدعي العام غولًا مخيفًا في مطالعته، وطالب بإعدامه، ولكن لم يكن ثمة أي دليل يقرن القتل بالرجل، سوى اعترافه، وكان واضحًا كيف أدلى باعترافه، فإن الشرطة لم تقصر مع الرجل، والشعبة الجنائية في مديرية الأمن العامة لم تتورع عن إرسال المسكين إلى المحكمة مجبّر اليدين، وعلى وجهه جروح وكدمات بيّنة. ولم يكن عند الرجل ما يستطيع به أن يوكل محاميًا، فأذعن طاهر، الذي كان يحاكمه، بتكليف محام للدفاع عنه. ومع أن المحامي خاف أن يتحدث عن إدلاء نجم باعترافه نتيجة التعذيب، إلا أن طاهرًا استجوبه حول الآثار التي يحملها جسده. وحاول الرجل أن يتهرب من الأسئلة، خوفًا من رجال الأمن الذين لابد أنهم هددوه كي لا يتحدث عن تعذيبه، أو ربما استجابة لنصيحة المحامي. ولكن الحاكم ألح عليه، وأكد

لـه أنـه قـد وصـل المحكمـة، وصـار تحـت حمايتهـا، فلـم يعـد لديـه مـا يخشـاه مـن أحـد، غـير اللـه والمحكمـة. واعـترف الرجـل بتعرضـه للتعذيـب.

وبعـد أن فنّـد المحامـي في جملتـين أسـاس الاتهـام، بقـي يتحـدث حديثًـا إنشـائيًا مطـولًا أوجـع بـه دمـاغ طاهـر وكاتـب المحكمـة وممثـل المدعـي العـام والمتفرجـين عـن مخافـة اللـه والعدالـة وتجنـب إلقـاء بـريء في تهلكـة الإعـدام، أو حـتى السـجن.

ربمـا كان المحامـي يتحـدث للفـت نظـر الصحافـة إلى براعتـه، أو بلاغتـه، فقـد كان هنـاك بعـض المراسـلين والمصوريـن. أو ربمـا كان يريـد التأثـير عـلى نجـم نفسـه ليريـه أنـه ولـو لـم يقبـض منـه شـيئًا إلا أنـه يسـتميت في الدفـاع عنـه، ولكـن نجمًـا عندمـا بـرئ وجـد نفسـه مدينًـا للحاكـم، ولا أحـد لغـير الحاكـم ببراءتـه. زاره بعـد إطـلاق سراحـه، وأراد أن يقبّـل يديـه وعندمـا سـحبهما طاهـر منـه خـرَّ عـلى قدميـه وراح يقبلهمـا باكيًـا. سـأله مـاذا يفعـل، ومـم يعيـش. فقـال بأنـه كانـت عنـده عربـة يبيـع عليهـا أغذيـة جاهـزة لطـلاب المـدارس، والمرطبـات صيفًـا، ولابـد أن صاحـب داره قـد باعهـا الآن بعـد اعتقالـه طـوال هـذه المـرة واسـتوفى ثمنهـا عـن إيجـاره المتأخـر.

وسـاعده طاهـر منـذ ذلـك الحـين حقًـا. إنـه لـم يعتـبر تبرئتـه مسـاعدة، فهـي لـم تكـن كذلـك، كانـت تمحيصًـا عاديًـا للقضيـة قطـع الطريـق عـلى اسـتسـهال المدعـي العـام للمسـائل ومجرد رغبتـه في تقديـم متهـم لتكملـة إضبـارة وإحالتها.

طلب منه أن يعود إليه بعد يومين. في هذه الأثناء تكلم مع بائع الشاي في المحكمة، الذي يبيع أيضًا أطعمة جاهزة، وأقنعه بأن يسمح لنجم بأن ينصب «دكة» في زاوية من الباحة يبيع فيها أشياء مما لا يتعاطاها هو، وقبل الرجل على مضض، فقد كان يخشى أن يطمع نجم ويتعدى على حدوده ذات يوم، إلا أن طاهرًا أكد له أن ذلك غير وارد، خاصة وأن دكته لن تكون رسمية، لأن المحكمة لن تؤجر له حانوتًا، فلن يكون لديه عقد أو مستمسك رسمي، ويمكنهم أن يطردوه متى يشاؤون.

وساعد نجم بأن أقرضه مالًا ينشئ به «تجارته». وقد سدد الرجل قرضه، على بساطته. وعندما اطمأن طاهر إلى ولاء الرجل وإخلاصه التام. استفاد من فرصة حديث فتحها نجم ذات يوم، وكان قد جاءه، مثل اليوم، بشاي زعفران.

كان يسأل نجم عن وضعه وأموره. فحمد الآخر ربه، وشكر رعايته هو. ووجده طاهر يتنحنح ويصفي حنجرته كمن تخنقه كلمة محشورة فيها، فسأله ماذا يريد أن يقول:

- أستاذ. كثير من الناس الذين يأتون يريدون مقابلتك، ولكن الكاتب لا يسمح لهم. وهادي أبو الشاي يتشاجر معهم. يقول لهم «أتريدون توريطي. إذا الكاتب لا يسمح لكم أن تدخلوا عليه، ماذا أفعل أنا؟»، لو تتساهل معهم قليلًا.

- فيم أتساهل نجم. ماذا أفعل يعني. ألا تعرف ما

يريـدون؟

- أعـرف أسـتاذ. والشـهادة للـه أنـت مـا تريـد غـير الحـق والإنصـاف، ولكنهـم مسـاكين. مجـرد كلمـة، كلمـة طيبـة، تطيب خاطرهـم. يريـدون التعلـق بقشّـة. أعطهـم هـذه القشـة. وليـس ضروريًـا أن تعطيهـم أي وعـد. اسـتقبلهم فحسـب، واسـمع مـا عندهـم. وقـل لهـم «العـدل يأخـذ مجـراه»، مثـل مـا قلـت أول يـوم محاكمـتي.

ضحك طاهر يومها. وأراد أن يماحكه:

- أنـت صحيـح تحـزن عـلى أهـالي المتهمـين، أم تريـد تمـلأ جيوبـك منهـم؟

- لا! أسـتاذ. لا، واللـه. أريـد تخفـف عنهـم قليـلًا. لكـن لـو تريـد الحقيقـة، إذا قـدرت أسـاعدهم وأعطـوني شـيئًا مـا، لـن أحـزن!

فطيـب طاهـر خاطـره، وطلـب منـه أن ينتظـره بعـد انتهـاء الـدوام الرسـمي ذلـك اليـوم، ليأخـذه معـه في سـيارته إلى مـكان مـا.

وأخـذه فعـلًا. قـال لـه في الطريـق «إنـني آخـذك إلى بيـت خالـة أمـي، وهـي امـرأة عجـوز ضعـف سـمعها. أروح عندهـا أحيانًـا. سـأعرفك عليهـا وأعرفهـا عليـك. إنـني أعزهـا مثـل أمـي. وإذا جـاءك يومًـا مـن تجـده محتاجًـا حقًـا لتطييـب الخاطـر يمكنـك أن تدلـه عـلى بيتهـا، دون أن تذهـب معـه. ولكـن يجـب أن تخـبرني أولًا لـكي أقـول لـك مـتى أكـون موجـودًا».

طرق باب غرفته ودخل نجم باسمًا محييًا: «أستاذ جهزت شاي الزعفران، قلت أقدم لك منه بالأول».

«ما السر وراء شاي الزعفران؟». كانت أول مرة يجلب له فيها شاي الزعفران هي عندما جاءه بخبر أول زبون، دون أن يدري أنه زبون، وأنه هو نفسه صار دلالًا. وفي اتفاق غير معلن، صار هذا الشاي ذريعته كلما أراد مراجعته.

- والله أستاذ، تعرف أن شاي الزعفران يضحّك، ويبرّد الأعصاب. وأنت تعبان هذه الأيام. ينفعك. ويساعدك لتحمل إلحاح هذا وذاك.

وكان كل ما يتذكر هذا التبرير ترتسم بسمة عريضة على شفتيه..

- خير.؟

- أستاذ. ثلاث نسوان، جئن قبل يومين ورجعن منزعجات. جئن اليوم أيضًا. الظاهر ليس لديهن «والي». بكاؤهن يقطّع القلب. قلت إذا تأمر أرشدهن ليأتين.

- ألهن علاقة بالقضية المالية؟

- والله ما أدري أستاذ. لا بد.

- إذا كان لديهن علاقة بقضية حامد محمود اجعلهن يأتين إليك بعد الجلسة الأولى بيوم أو يومين.

كان يدري أن نجمًا لن يتركهن حتى يأتين عرضًا. سيذهب إليهن. فقد صار يأخذ مبالغ دسمة من أهل المتهمين.

لمجرد الدلالة على البيت في الموعد المناسب.

كان يرشف من شايه ويتذكر.

قام بتعريفه على الخالة أمينة. ارتاح لها وارتاحت له. خلال أيام صار يساعدها في التبضع، وبعد أقل من شهر صار هو من يتبضع لها. وهو الذي يسدد لها فاتورتي الماء والكهرباء. وقد دلّ كثيرين، بل كثيرات على بيتها.

كان طاهر قد نبهه إلى أنه لا يريد أن يأتي رجال إلى المنزل. فربما وصلوا قبل ذهابه هو إلى هناك، أو بعد انصرافه عنه. فيسبب وجودهم إزعاجًا لخالته. وبالفعل. فخلال أكثر من سنتين لم يجئه رجال غير مرتين. وقد بقوا يراقبون المنزل عن بعد، وما أن رأوه يدخل حتى رنوا الجرس. لا بد أن نجمًا حذرهم من إزعاج العجوز.

5

17 حزيران.

بسم الله وباسم الشعب فتحت الجلسة.

ثم طلب من الكاتب الثاني أن يسجل المعلومات الأولية عن المتهم.

- الكاتب الأول. تفضل اقرأ

بدأ الكاتب بالقراءة. كانت خلاصة للقضية أعدها هو إعدادًا جيدًا، وقد اطلع عليها طاهر. انصرف عنها لمراقبة المتهم. كان شابًا وسيمًا تدل نظراته، وفكاه المطبقان بإحكام، على تصميم ظاهر، أم أنه كان يريد توليد الانطباع بأنه مطمئن من براءته ويريد بمظهره ذاك أن يجعل الآخرين يطمئنون أيضًا؟

وانتقل طاهر ببصره إلى ثلاث نساء يجلسن خلف المتهم، على المقاعد التالية لمقاعد الشرطة الذين أتوا به إلى المحكمة. امرأة لا يمكن أن تتجاوز الأربعين. وإذا حكم على الظواهر فهو لن يخمن عمرها بأكثر من الثلاثين إلا بسنة أو سنتين. ولكن لا يمكن. هذه أمه حتمًا. وهو في حدود الخامسة والعشرين. كان الشبه بينها وبين ابنها غريبًا. الوجه البيضوي الأميل إلى الاستدارة نفسه. الحاجبان قليلا التقويس ذاتهما. ما لون عينيها؟ لم يستطع اصطيادهما

فقد كانت تحدق إليه طوال الوقت ولم يكن يريد أن تلتقي نظراتهما. بشرتها بيضاء كالحليب، وإن كان قد أصابها شحوب. تحت عينيها لون غريب كاد طاهر أن يضحك مع نفسه لأنه تصوره صباغًا. لم يكن أزرق أو بنفسجيًا بل كان شيئًا بينهما. والأنف، أجمل شيء في وجهها - أم كانت الشفتان بامتلائهما وتدويرتهما هما الأجمل- مستقيم دقيق ينتهي بارتفاع لا يكاد يبين. انتقل إلى مرافقتيها فوجدهما تحدقان في مؤخر رأس المتهم. لا تريمان. لم يستطع أن يفهم أيهما أخته وأيهما خطيبته. تبدوان في ما بين العشرين والثانية والعشرين.

انتبه إلى صمت حلّ في القاعة. نظر نحو الكاتب، فرآه يجمع أوراقه ويسويها ثم يعيد ضمها إلى المحفظة.

- فليتفضل ممثل الادعاء العام بإلقاء مطالعته.

وتفضل هو بإعادة مسح الوجوه أمامه. انتبه، لأول مرة إلى رجل وامرأة يجلسان إلى الجهة اليمنى من الأمر. ربما كانا أبا الخطيبة وأمها. العجيب أن الفتاتين لا تشبهان، أحدًا ممن في الجلسة. عاد بنظره إلى الأمر، فوجدها تمسح عينيها. انتبه إلى صوت ممثل الادعاء يعرض التكييف القانوني لدعواه، ذاكرًا شهادة الشهود الذين رأوا المسدس في يد المتهم، وهو مسدسه، بعد أن ركضوا إلى مكتبه على أثر سماع صوت الرصاصة. والجثة أمامه مطروحة أرضًا تسيل من رأسها الدماء.

كان ممثل الادعاء قد قدم خلاصة بمطالعته ضمت إلى أوراق الدعوى، وقد قرأها طاهر أيضًا، فلم يبالِ كثيرًا بما يقول، ولكنه اهتم كثيرًا بأن يتابع رد الفعل على مطالبته بالإعدام. لذلك ظل يراقب الفتاتين أولًا. وما أن سمع ممثل الادعاء يطالب «حفاظًا على سلامة المجتمع، وسيادة القانون، ووضع حد للتصرفات الإجرامية لدى البعض بأقصى عقوبة» حتى سمع شهقة غطت على صوت ممثل الادعاء. لم تصدر عن أي من الفتاتين، اللتين كانت عيناهما تجريان دمعًا كالشلال. انتقلت عيناه إلى الأم، فوجدها تغطي فمها بمنديلها، تاركة لدموعها أن تهطل دون مبالاة.

وكانت المرأة الأخرى، إلى جانبها، تدق على صدرها بجمع يدها. والرجل إلى جانبها يربت على كتفها يهمس في أذنها شيئًا.

دارت عيناه في القاعة. رأى كهلين وثلاث نساء، إحداهن شابة، يرتدون السواد، وقد ارتسم ما يشبه الابتسامات على وجهي الكهلين، وواحدة من النساء. أما الاثنتان الأخريان فقد كانتا تمسحان دموعهما التي لا بد جددها سرد واقعة القتل التي فجعتهما بالضحية.

ورفع طاهر الجلسة إلى السبت التالي لسماع الشهود.

في حوالي العاشرة من صباح الاثنين كان نجم يخدمه بشاي الزعفران مرة أخرى.

- أستاذ طاهر الله يخليك. البارحة واليوم جئن أيضًا.

أبقيتهـن عنـد «الدكـة» حـتى آخـذ منّـك كلمـة.

- واللـه يـا نجـم، لا أدري مـا الفائـدة. لكـن لخاطـرك سـوف أذهـب اليـوم إلى بيـت خالـتي. حوالي السـاعة الخامسـة سـأكون هنـاك.

- اللـه يحفظـك. اللـه يجـبر بخاطـرك. كـم كلمـة حلـوة منّـك قـد يريـح بالهـن قليـلًا.

وانصرف.

سـيأخذهن فيدلّهـن عـلى البيـت. كيـف سـيتحدث إليهـن، مـاذا سـيقول. كـم سـيأخذ منهـن؟ ومـا شـأني أنـا بـكل ذلـك. المهـم أنـه يعـرف أنـه لـن يكـون معهـن رجـل في بيـت خالتـه.

6

عندما عاد نجم إلى دكته كانت المرأة وحدها هناك. دامعة العينين. تذرف وتمسح. من أين جاءتها كل هذه الدموع؟ في الأسبوع السابق عندما جاءت لم تكن تبكي، ولا كانت الفتاتان تبكيان. ولكن أمس واليوم. يا الله كم سحّتا من دمع.

كان يقف رجل أيضًا، اشترى حاجته وانصرف. قال نجم:

- خاتون[1]. ربما يمكنني مساعدتكن قليلًا، لكن بشرط. ألا يفهم أحد أنني فعلت. بالأخص أستاذ طاهر. عدا أنه يمكن أن يطردني من هنا. فأنه سيزعل مني. وهو صاحب فضل عليّ ولا يمكنني أن أتحمل زعله.

- أعطيك كلام شرف أنه لن يفهم، لا هو ولا غيره. وحلاوتك مضمونة. ماذا ستفعل لنا؟

- اليوم سوف يذهب لبيت خالته. سآخذكن حالًا وأرشدكن إلى البيت. اذهبن هناك حوالي الساعة الخامسة وحدكن. اسمحي لي دقيقة أقفل الدكة وأضمّها وأجيء معك حتى نستقل تكسي ونذهب.

- لا نحتاج تكسي. سيارتنا معنا. البنات بالسيارة. سأنتظرك تغلق الدكة.

---

1) كلمة احترام توجه للمرأة، وتعادل الهانم.

لملم نجم بضاعته المعروضة، أدخلها في صندوقه المسطح ذي الواجهة الزجاجية، في أقل من دقيقة تصورتها المرأة دهرًا، إذ بدأت تقرع الأرض برجلها. ثم ذهب بصندوقه إلى حانوت المحكمة. وبعد دقيقتين عاد. طلب من المرأة أن تذهب بمفردها وسيتبعها، وأن تذهب بسيارتها إلى أول فرع على اليمين فتدخله وتمضي فيه بضعة أمتار. بعد أن سألها عن نوع سيارتها ولونها.

بعد دقائق فتح باب السيارة وصعد دون كلام. أدارت السيدة المحرك، فطلب منها الانطلاق والاستدارة يسارًا بعد انتهاء الفرع.

- خاتون. مثل ما قلت لك هذا بيت خالته. بعض الأيام يذهب هناك. ولما يريد الذهاب يطلب مني أن أشتري لها بعض الحاجات. وقد أوصاني اليوم أن آخذ قهوة ومحارم وبعض المكسرات. لا ينبغي أن يعرف أنني أرشدتكن إلى البيت. خالته عجوز طيبة. سمعها ضعيف. ولا تفكري أن تعطيها شيئًا قط.

عرفت أنه يلمح إلى «حلاوته». أخرجت من حقيبة يدها حفنة أوراق مالية، لم تعدّها، أعطته إياها.

- كيف تثقين بي. قد أكون أكذب عليك. أليس من الأفضل بعد ما تتأكدين أن البيت بيت خالته. وبعد ما تلتقين به هناك؟

- لا، إني متأكدة. وجهك طيب وعيونك شريفة. لن تغشنا.

وفي الحقيقة هذي حلاوة الدلالة. لكن إذا حصّلنا شيء فلك عندي حلاوة حقيقية.

أوصلهن إلى باب البيت، كانت الساعة حوالي الثانية عشرة. سألته المرأة للتأكد:

- متى يأتي؟

- عند الساعة الخامسة.

- حسنًا. أين تريد أن تذهب الآن؟ حتى نوصلك في طريقنا إلى البيت، ونرجع العصر.

- لا، شكرًا، لن أزعجكن.

- قل، لن أسمح.

- أريد أرجع للمحكمة. قلت لصاحب الحانوت بأني سأعود بعد أقل من ساعة.

أوصلته بسيارتها إلى مكان قريب من المحكمة. وودعته، مؤكدة أنها ستفرحه إن حصلت على خبر، مجرد خبر طيب.

نزل نجم من السيارة وهو يفكر في الفتاتين اللتين لم تنبسا بكلمة طيلة رحلة الذهاب والإياب، وكانتا تبكيان بين فترة وأخرى. وحتى المرأة، التي كانت تتماسك وهي تتكلم، كانت تفقد تماسكها عندما تسكت، فتجهش في البكاء.

عدَّ النقود فكانت خمسة وثمانين دينارًا. بينما كان يتصورها بين العشرين والثلاثين. كم ستكون الإكرامية في

حالـة تحقيقهـن شيء إذن.

أعاد فتح دكته، وعندما نزل طاهر ليخرج، بادره بالتحية:

- أستاذ، أرشـدتهن إلى البيـت. لخاطـر اللـه أجـبر بخاطرهـن. طيّـب خاطرهـن بكلمـة.

- لا بد كن كريمات معك.

- كريمات كريمات. ولكن والله مسكينات.

- مـا بيـدي شيء، وأنـت تعـرف. ولكـن مـا مـن ضريبـة عـلى الـكلام.

- الله يخليك أستاذ. الله يسلمك.

ذهـب طاهـر إلى نـادي الجمعيـة حيـث تنـاول غـداءه، ثـم ذهـب إلى بيتـه وأخـذ قيلولتـه الحتميـة.

نهـض فاسـتحم وحلـق وجهـه. هـذا أحـد الأيـام الـتي يحلق فيهـا مرتـين! ارتـدى ملابسـه وتعطـر. وأخـذ سـيارته الثانيـة، الصغـيرة مـن مـرآب العمـارة. وانطلـق إلى بيـت خالتـه.

مـع أن مفتـاح البيـت كان معـه إلا أنـه ضغـط زر الجـرس. أضـاءت مـع القـرع مصابيـح في صالـة البيـت، في المطبـخ، في الحمـام، وفي غرفـة نـوم خالتـه. كان قـد أعـد ذلـك الترتيـب، كي لا تفاجـأ بدخولـه. وكي تنتبـه إلى أن أحـدًا قـادم عندمـا تكـون بعيـدة عـن صـوت الجـرس، فهـي تشـكو مـن ضعـف سـمعها منـذ مـدة.

تلقته محتضنة إياه، أجلسها مقابله. صارت تقرأ الشفاه كي يساعدها ذلك على فهم ما يقول. قال لها إن جماعة سيأتون اليوم، حوالي الخامسة كالمعتاد. نساء، وعليها أن تجري التفتيش حسب العادة للتأكد.

كان قد أفهمها منذ زمن أنها ينبغي أن تأخذ من يردن مواجهته إلى الحمام فتجردهن من ملابسهن في حجرة الملابس كي يفحص هو ملابسهن وحقائب أيديهن، دون علمهن، وعليها أن تدخلهن الحمام وتفحص هي شعورهن وخفايا أجسادهن بحثًا عن أسلحة. فقد يردن الانتقام منه لحكم أصدره على أحد أقربائهم. وقد أفهمها أيضًا أن أسلحة اليوم صارت صغيرة جدًا، ولذلك يمكن إخفاءها في أصغر مكان، في أصغر فتحة في الجسم.

كان يريد التأكد من عدم وجود مسجل صوت أو كاميرا مخبأة في مكان ما. ثم أنها فرصة يتفرج فيها على البضاعة قبل المساومة عليها!

لم تعد خالته شيئًا يشربه. فقد تعلمت أنه لن يشرب إلا عصير بعد الفحص. كالعادة. وتركها ليذهب إلى غرفة مكتبه. التي يستريح فيها أكثر مما يعمل.

رن جرس الباب وأضاء مصباح أحمر في الصالة. قامت ففتحت الباب. رأت أمامها سيدة حمراء الشفتين وما حول العينين. دقيقة الأنف، واسعة العينين، وجهها أميل إلى الاستدارة يتوسطه أنف مستقيم دقيق، ووراءها فتاتان

جميلتـان رقيقتـان.

- أهلًا وسهلًا. نعم.

تحدثـت المـرأة كثـيرًا، بلهوجـة وتلعثـم. نصـف سـمعت ونصـف رأت الخالـة أمينـة شـفتيها ترسـمان اسـم طاهـر. فقالـت:

- اسـمعي يـا أختـي، وأنـتن يـا بنـاتي. إذا تـردن تشـوفن طاهـر لازم أفحـص ملابسـكن وأجسـادكن أولًا، حـتى أتأكـد أنكـن لا تحملـن سـلاحًا. هـذه تعليماتـه، وإذا أراد هـو يتسـاهل فيهـا بعـض الأوقـات، فأنـا لـن أتسـاهل. هـذا ابـني ومسـئوليتي. لا تتكلمـن كثـيرًا لأنـني لا أسـمع، عليـك أن تصرخـي حـتى أسـمعك. وإذا لا يعجبكـن فأهـلًا وسـهلًا، هـذا البـاب الـلي دخلـتن منـه مـع السـلامة، وإذا تـردن فهـذا بـاب الحمـام والمـنزع.

نظـرت المـرأة إلى الفتاتـين واتجهـت إلى بـاب الحمـام، فتبعتاهـا. خلعـن ملابسـهن وعلقنهـا حيـث علقـن حقائـب اليـد عـلى المشـاجب قبـلًا. بقـين في ملابسـهن الداخليـة. فنظـرت الخالـة أمينـة إليهـن نظـرة دلـت عـلى عـدم رضاهـا، ثـم أشـارت بيدهـا، فخلعـن حمـالات الصـدر والسراويـل. وغطـت الفتاتـان أسـفل بطنيهمـا بيديهمـا فكـشرت أمينـة وهزت رأسـها، وتقدمتهـن إلى الحمـام.

جـاء طاهـر إلى حجـرة الملابـس، ففحـص الملابـس وحقائـب اليـد وتأكـد منهـا. أزاح السـتارة عـن المـرآة الـتي تغطـي الجـدار الفاصـل بـين الحجـرة والحمـام. وألقـى منهـا نظـرة عـلى داخـل

الحمام وتفحص الأجساد أمامه. كان جسدا الفتاتين جميلين متناسقين، أقرب إلى النحافة. ولكن الذي أدهشه جمال تكوين جسد المرأة. إنها فوق الأربعين دون شك، وهي ممتلئة، ولكنها حافظت على رشاقة رائعة، وليس هناك ثمة ترهل في أي مكان من جسدها. ولا خطوط في البطن تدل على أنها وضعت مرتين (كم مرة حملت يا ترى؟). والذي أدهشه بشكل خاص كان امتلاء ثدييها، ونهوضهما. لا بد أنها لم ترضع. أم أنها أجرت عملية شد؟ سيعجبه أن يكشف ذلك.

وترك خالته تفتح الثقوب وتبحث عن «الأسلحة»، وعاد إلى الصالة حيث جلس، وأخذ يتصفح مجلة.

عندما خرجن من الحمام نهض واقفًا لاستقبالهن، رافعًا حاجبيه في دهشة مفتعلة.

قالت خالته:

- ضيفاتك.

فتمتم:

- أهلًا وسهلًا.

التفتت العجوز نحو المرأة:

- بيبسي، لو قهوة؟

- العفو، لا نريد ثقل عليك. تفضلي استريحي.

فقال لها طاهر:

- لـن تسـمعك. ليـس لأنهـا لا تسـمع فحسـب، بـل لأنهـا لا تريـد أن تسـمع مثـل هـذا الـكلام.

- إذن، قهوة، مُرة الآن عسى أن تحلّيها لنا مستقبلًا.

وجريئـة أيضًـا، طرحـت مطلبهـا دون تمهيـد. نظـر طاهـر في عيـني أمينـة وقـال لهـا:

- أربعة قهوة. بلا سكّر.

عندمـا انصرفـت أمينـة لتعـد القهـوة تكلمـت المـرأة مـرة أخـرى:

- أنـا. أم حامـد محمـود. وهـذه خطيبتـه. (وأشـارت إلى الفتـاة الأنحـل والأدق والأبيـض منهمـا). وهـذه. أخته.

- تشرفنا. أهلًا وسهلًا. كيف عرفتن بهذا البيت؟

- الـلي يسـأل مـا يضيـع. صـار لنـا حـوالي عـشرة أيـام نلاحقك إلى أن وصلنـا. سـألنا في الحـارة فقالـوا إنـك تـأتي إلى هنـا أحيانًـا. بيـت خالتك.

متكتمات أيضًا. استمعت الأم إلى نجم وأطاعت.

فتحت فمها لتتكلم ولكنه قال لها:

- لنشرب قهوتنا أولًا.

وبعـد أن شربـوا القهـوة سـأل الخطيبـة عمـا تفعـل فأجابتـه أنهـا أكملـت كليـة البنـات، وتخرجـت قبـل أيـام. وإن لـم

تشارك في حفل التخرج نظرًا لـ«المصيبة» التي وقعت على رأسها «ولا تدري من أين». فطيب خاطرها بكلمة أو كلمتين، فقالت الأم:

- كان المفروض أن يستعدا هذه الأيام لحفل الزواج فالسفر قريبًا إلى لندن لقضاء شهر العسل في بيتنا هناك. (أتريد أن تشير إلى شيء معين بـ«بيتنا هناك»؟) ثم يذهبان لزيارة إنجلترا كلها ثم يقضيان جولة طويلة في أوروبا.

- من يدري؟ عسى الله يفرج هذه الغمة.

- الله يسمع منك، أستاذ. أملنا فيك من بعد الله.

تجاهل كلامها والتفت إلى الأخت. رأى في عينيها توثبًا رغم الحزن الظاهر فيهما.

- وأنت، ماذا تفعلين.

- لا أفعل شيئًا. أساعد أمي في البيت.

يا لعوب يا بنت الملاعين. وما عمل أمك في البيت حتى تساعديها؟ تنامين حتى الظهر ثم تستعدين لسهرة المساء. دعوة هنا ورقص هناك وربما جلسة ورق.

نقل بصره إلى الخطيبة، وسمع صوت الأم:

- أستاذ. ما عندنا غير الله وغيرك. كما ترى نحن نساء فقط وليس لدينا ولا رجل. حامد رجلنا الوحيد. ونريده منّك.

- أنا لست معتادًا أن أتحدث بالقضايا التي أشتغل عليها مع أحد. ولكن لما حصرتني فأنا مضطر للحديث. وربما يكون حديثي موجعًا للبنتين، فأرجوك أن تصرفيهما لتذهبا. أو أن تفضلي معي في مكتبي حتى نتكلم بهدوء.

فقالت وهي تنهض:

- يجب أن أوصل هذه إلى بيت أهلها. وابنتي لا مكان عندها تذهب إليه وحدها. تفضل إلى غرفتك.

قادها إلى غرفة مكتبه وهو ينظر إلى خالته نظرة فهمتها.

أقعدها على أريكة، وجلس إلى جانبها.

- قبل أن تقولي شيئًا. سيدة بهذه الثروة، وهذا الجمال. لا بد أن علاقاتك الاجتماعية واسعة وممتازة. لماذا لم تحاولي أن تفعلي لابنك شيئًا قبل أن تصل القضية إلى المحكمة. لا بد أنك تعرفين أنها عندما تصل المحكمة يصبح حلها صعبًا جدًا.

- أستاذ إذا تسمح أكلمك بكل بصراحة.

ولما رأته ساكتًا ينتظر، أضافت:

- صحيح أنني ثرية. وكنت مستعدة لصرف أي مبلغ ولكن لم يكن عندي ضمان. خاصة وأن الطالب كان شرطيًا. لقد تعلمت من أبي ومن زوجي بعده ألا أطمئن إلى الشرطة. طلب مني معاون المركز خمسة وعشرين ألف دينار. كنت مستعدة لدفع المبلغ، وأضعافه، ولكن من أين أضمن

أنه ما «يلفطه»[2] ولا يفعل شيئًا. وإذا كانت البداية بمائة، فأنت تعلم كم ستكون النهاية، وأبقى غير مطمئنة. وربما ينتهي الوقت وتوصل القضية للمحكمة، وإذا كان المعاون المحترم صاحب ذوق يقول لي: مع الأسف، حاولت وصرفت، ولم أنجح. وإن كان بلا ذوق - وهو كذلك حتمًا - فسينكر كل شيء أساسًا وحتى يهددني إذا ذكرت شيئًا عما أعطيته. أنا لا أقوم بأعمالي بنفسي. بعد وفاة المرحوم زوجي تولى المرحوم أخوه رعايتنا، بدون تدخل، ودرّب حامدًا على العمل، وكوّن له بعض العلاقات إلى أن توفي هو أيضًا، رحمه الله. وحامد الآن هو صاحب المشكلة. وأولاد عمه أولًا خارج بغداد، ثم هم ليسوا «هب ريح». إنهم مستعدون لكل شيء يفعله لهم غيرهم. مستعدون للدفع. لا، لا تبتسم، ليس من مال حامد أو مالي فقط، بل لا مانع عندهم أن يدفعوا من مالهم أيضًا. ولكن يجب أن يقوم غيرهم بالعمل نيابة عنهم.

وتوقفت تلتقط أنفاسها. أعجب طاهر بذكائها حين فهمت ابتسامته، ولكن أعجبه أيضًا، ما ذكرته من استعدادها لدفع الخمسة وعشرين ألف «كبداية» بشرط الضمان. أي نوع من الضمان تريد هذه الحمقاء؟ من يعطيها ضمانًا في أمور كهذه؟ إن ذكاءها لا ينسجم مع ما يبدو عليها من غباء. أو قل عدم خبرة، في هذه النقطة. وواصلت:

- ثانيًا أشكرك على إطراء جمالي، فاتت علينا بعد. وحتى

---

2) يلتهم سريعًا.

جمالي المزعوم أفديه لسلامة ابني. وأقول لك بصراحة، إن كثيرين ممن أعرف رفضوا الاتصال بك لأنهم أكدوا جميعًا صلابتك وعدم محبتك لتدخل أحد في القضايا التي تنظرها.

حسنًا. جمالها مبذول، وهذا يسهل مطلبي الثاني أيضًا. ولكن الأهم أنها كشفت لي عدم وجود ارتباط لها بالناس اللي فوق فوق.

- إذن لماذا أتعبت نفسك وقمت بهذه الزيارة؟

- أستاذ، أنا جئتك ملتجئة إلى ضميرك ونزاهتك فإني واثقة من براءة ولدي. لقد أقسم لي عليها قسمًا لا أكذّبه. جئتك حتى أقول لك إنني أريد بلا ضغط ولا فرض. أتوسل إليك. أستجدي منك. وأنا حاضرة لتقديم كل شيء، كل شيء. من أجل إنقاذ ولدي. ربما تريد إعطاء البعض مالًا، ربما تريد أن تقدم للبعض خدمات. لا تهتم بالمال أصلًا.

- أولًا. نصيحة لوجه الله: لا تقولي لأحد، عن أي شيء، إنك مستعدة لتقديم كل شيء.

فنظرت في عينيه مباشرة وهي تقول:

- إني لا أقولها كثيرًا. ولكنني عندما أقولها أعنيها تمامًا.

ممتاز إذن.

- وثانيًا. ربما أعطيك وعدًا. وأطلب منك مبالغ طائلة. في الضمان عندك في أني سأفعل شيئًا خا.

أراد أن يقول «خارقًا» إلا أنه أبدلها.

- شيئًا خاصًا؟ أنا أيضًا سآخذ مالك ولا أفعل شيئًا وأنكر ما أخذت!

- أنت لست شرطيًا. أنت قاض، قاض محترم بشهادة الجميع. إذا كانت المسألة ستكلف مالًا ستطلب مني التكلفة وتنفذ ما تعد به. وإن لم تكن تكلفك شيئًا فلن تأخذ مني. وإذا لم تكن قادرًا أن تفعل شيئًا سوف تعلمني. أنا مطمئنة. قلبي مطمئن إليك.

- أشكرك، هذا من حسن ظنك. ولكني لست كما تتصورين، فالمسألة بالنسبة لي أكل خبز أيضًا. يمكنني أن أفعل شيئًا، هذا لا شك فيه. ولكن له شروطه.

- أؤمر.

- يجب أن أتأكد أنه لم يقتل. وهذا لا يتحقق من كلامه هو أو من تأكيداتك أنت.. هذه المسألة تتوقف على دراستي لكل جوانب القضية.

- أنا مستعدة لكل شيء. من أجل دراستك.

- حسنًا. في كل الأحوال. أستطيع منذ الآن أن أخبرك أنه يمكنني أن أخلصه من حبل المشنقة لقاء شروطي الأخرى.

- أأمر فقط.

لم تتح له فرصة تفكير قط، وهذا ما جعله يطرح أول مبلغ تراءى له.

- أولًا خمسين ألف دينار.

- حاضر!

لم تفهم شيئًا؟ أم أنها مستعدة حقًا بهذه البساطة؟

- عندما يكون المبلغ جاهزًا عندك تخبريني لأقول لك ما تفعلين.

- إنه حاضر الآن.

أي أحمق أنا. لو كنت طلبت ضعف المبلغ لوافقت بالسهولة نفسها! حيف! خسارة.

- طيب، عندنا وقت، اليوم هو الاثنين، تحولين هذا المبلغ إلى إنجلترا بالدولار الأمريكي. سأكتب لك اسم البنك ورقم الحساب، وتطلبين منهم إخبار صاحب الحساب بالتلكس فورًا بمجرد ما يصلهم المبلغ.

- الأمر في غاية البساطة. بالمناسبة هذا سهل عليّ مثل ما لو كنت سأدفع المبلغ هنا. سأهاتف وكلاءنا في لندن لتدبير الأمر من هناك اليوم أو غدا بحيث، يأتيك التأييد غدًا مباشرة.

- وأريد فتاتين لقضاء وقت مريح معهما. لا تتصوري أنني أريد فتاتين لأني رأيت معك الفتاتين. أنا لا أقصدهما بالذات. هذا شرطي في كل معاملاتي. دبّري لي فتاتين من أي مكان بشرط أن تكونا محترمتين. نظيفتين. إحداهما بكر حتمًا، ويستحسن أن تكون الأخرى ذات تجربة.

- هذا صعب قليلًا. لكنني سوف أدبّره. كن مطمئنًا منذ

الآن أن ابنتي ستكون إحداهما. وسوف أدبّر الثانية. أعطني مهلة حتى الجمعة.

- سجّلي رقم تلفوني. وأخبريني عندما تكونان جاهزتين.

وأعطاها الرقم.

- وبصراحة. هذا المطلب الأخير لا أطلبه في كل الحالات. لكنني هذه المرّة أصر عليه. هو مطلب إضافي خاص.

كأنها فهمت ما يريد. قالت وهي تبتسم:

- أؤمر.

- أريد أن تكوني صديقتي. إن لم أعجبك، فلمدة محدودة. بيدك أنت أن تقرري أمدها. واطمئني أنك تستطيعين قطعها حتى أثناء النظر في الدعوى. سواء في الوعد الذي قطعته لك أو الذي يمكن أن أقطعه.

اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

- أنا حاضرة منذ اللحظة، في أي وقت تريد وأينما تريد سنلتقي. الآن إذا شئت. سأذهب أوصل البنات وأرجع.

- لا. لا. لا تفهميني غلط. أريد صداقة حقيقية، علاقة إنسانية حقيقية. ليست أمرًا مستعجلًا. وأنت الآن وضعك النفسي لا يساعدك. لا يزال عندك شك.

- أبدًا، ليس لدي أي شك. وعدتني وأنا واثقة به. لو لم تكن أنت طلبت ذلك لكنت أنا تقربت إليك حتى نتصادق.

فأنـت شـاب وسـيم وأنيـق. مثقـف وصاحـب فضـل.

- لا تحسـبيني صاحـب فضـل. لا أريـدك أن تشـعري بأنـك مدينـة لي بـشيء. انـسي مـا اتفقنـا عليـه؛ وهـذا موضـوع آخـر. مسـتقل.

- على عيني، ولكن عندي رجاء.

- نعم.

- لا تطلـب مـني أن أكـون واحـدة مـن الفتاتـين اللتـين تريدهمـا. لأن واحـدة منهمـا سـتكون ابنـتي كمـا قلـت لـك. وأتمـنى ألا تخـبر ابنـتي بمـا سـيكون بيننـا أيضًـا.

- طبعًا، طبعًا. صحيح أنا وحش. لكنني لست لئيمًا.

- العفـو. العفـو. ولكنـك ذكـرت الوعـد الـذي يمكـن أن تقطعـه.

- إي. بالنسبة لقضيـة حامـد. وعدتـك بعـدم الإعـدام فقـط. يعـني حـتى الآن هـو في السـجن المؤبـد. إذا كنـت تريديـن أكـثر فذلـك أيضًـا يتدبـر. ولكـن في الحقيقـة يكلـف ثـروة.

- قلت لك إنني لا أفكر بالمال. وعندي منه ما تتصور.

- أول شيء. حـتى نضمـن لـين نائـب الادعـاء العـام، ونكـسر تشـدده في هـذه المرحلـة، ونتجنـب اعتراضـه عـلى الحكـم ومـا يتبـع ذلـك مـن استئناف وتمييز. يجـب أن ترضيـه بمبلـغ مغـر. أسـتطيع أنـا أن أوصلـه. ولذلـك أسـعاره حسـب بسـاطة الحكـم الـذي سـيصدر. وأنـا أيضًـا لي أسـعاري الثابتـة. العفـو، لكـن

كما قلت ما سيجري بيننا لا علاقة له بالقضية. القضية لها قواعدها.

- أفهم. أفهم. كم؟

- ماذا تريدين؟

- البراءة طبعًا!

- أولًا ليس هناك براءة مطلقة. يجب أن أوضح لك ذلك منذ الآن. فالمسدس مسدس حامد. وليس عنده إجازة حمل.

- ولكنه هدية رسمية.

- ولو. كان عليه أن يأخذ إجازة عندما تسلمه.

- لكنه لا يستعمله.

- ولكنه استعمله. أو استعمله شخص آخر. حتى لو لم يستعمله كان موجودًا في البيت. وحتى في البيت إذا استعمله في حالة طارئة كان سيعاقب عليه. أنا أتكلم عن شيء قريب من البراءة، مثل البراءة كحد أقصى. خمسين ألف لنائب الادعاء في كل الأحوال للتخفيف الكبير من هذا النوع. أما أنا فكما قلت عندي أسعار محددة.

- أنا حاضرة، غدًا سأدفع لك الخمسين ألف حتى توصلها له. وحسابك أنت مثل ما تريد وبالطريقة التي تريدها.

أخرج دفتر ملاحظات صغيرًا من جيبه، وقلمًا. وبدأ

يخربش متظاهرًا بالحساب ليستجمع تفكيره ويرى ما يمكنه أن يأخذ. صحيح أن الخمسين ألف حصة نائب الادعاء المزعومة ستنام على قلبه وسيتعين عليه أن يقوم هو بتحويلها، وهو لا يدري طريقة لذلك بعد. ولكنه سيجد لها حلًا. ولكن الآن كم يريد هو لنفسه لتحوله هي. المئة ألف يسير المنال، ولكن كم يطلب فوقه. آه، لو لم تكن أرملة. لكم كان يشتهي أن يكون زوجها موجودًا لكي يمر عليه وينظر في عينيه بعد كل مرة يركبها. إيه. خفف عليك، مشكلتك كانت مع النساء، من النساء، لا من الرجال. فماذا تريد منه؟ اتركه في قبره. فكر الآن بالمبلغ. لم يكن يريد، بعد أن وجد منها هذا الاستعداد، أن يسمع منها كلمة مساومة. ولكنها تبدو وكأنها لا تعرف غير «أؤمر» فيما يتعلق بالمال. وقد أكدت له أن ما يريده منه موجود. أيطلب مئتي ألف. هذا كثير. ولكن إذا كان عندها. وهي تؤكد أن «ما يريد» عندها فلماذا أتعفف أنا. لأطلب المئتي ألف، وإن قدمت حججًا معقولة للتخفيف. ننزل إلى مئة وخمسين ألف. ولكن لا فلس دونه.

- مائتي ألف، وبنفس الطريقة.

- حاضر. لكن هذي المائتي ألف تتأخر قليلًا. أتريدني أحولها في وقت واحد أم أحول النصف أولًا وأحول الاثنين عندما أكمل الإجراءات؟

- لتكن على مرحلتين. حوّلي الخمسين ألف أو الأكثر إذا كان جاهزًا الآن. والباقي خلال.؟

- أسبوع إلى عشرة أيام.

- معقولة. اتفقنا؟

- اتفقنا.

مدّ لها يده وهو ينهض. تصافحا وخرجا من الغرفة. وعلى وجهها ابتسامة رضا خفيفة. لم تجلس. أشارت إلى الفتاتين أن تنهضا لينصرفن جميعًا.

سلمن على الخالة، وشكرن الأستاذ، وانصرفن.

7

في السيارة أبلغت الأم الفتاتين بانتصارها. «اتفقنا على الأمور الأصلية. هناك أشياء جزئية سنتفق عليها إن شاء الله. عيني سلوى. مثل ما اتفقنا من أول يوم لا تخبري أحدًا بأي شيء عن الاتفاق. فقط قولي لماما وبابا إنه تعهد بالنظر في القضية بكل دقة حسب القانون والعدالة وأنه سيراعي ظروف حامد وظروفنا. لا تذكري شيئًا عن الاتفاق والأمور الأساسية والجزئية. فربما سيتكلمون لشدة فرحهم وينتشر الخبر ويخرب التدبير، وغدا صباحًا تعالي عندنا حتى نبحث في هذه التفاصيل. لأنها يمكن أن تخصك».

- تأمرين خاله. طيب.

- إذا كان فرحك ظاهرًا دعينا نتأخر ولا تعودي إلى لبيت الآن حتى لا ينتبهوا لفرحك.

- لا، يا خاله. لست فرحة بعد. ولكن، ما هذه التفاصيل؟ لقد جعلتني أفكر فيها الآن ولست مرتاحة تمامًا.

- أفضل، حتى لا يظهر عليك فرح زائد ينبه أهلك.

عند باب الدار دعتهما سلوى للدخول. اعتذرت الأم. نزلت الفتاة بعد أن قبلت عاطفة. وجاءت إلى قرب باب السائق فقبلت أم خطيبها. وعندئذ انهمرت دموعها لما شاهدت عيني السيدة محمرتين. أرادت الأم أن تخفف عنها،

ولكنها تذكرت، فقالت:

- هذا أفضل. امسحيها عندما تدخلين حتى لا يشوفها بابا وماما.

فضحكت الفتاة بينما كانت دموعها لا تزال تسحّ.

وبقيت الأم عند الباب حتى رأتها تفتح باب الحديقة وتدخل، ثم تغلقه وراءها وتتجه نحو باب المنزل.

وفي طريق منزلهما قالت لابنتها:

- من الجيد أن مكتب لندن يعمل لفترتين، الوقت مناسب جدًا. يجب أن تتصلي بهم مبكرًا. لدينا وقت الآن، ولما نصل البيت سوف أخبرك بالتفاصيل. لأنه لا يمكنني أن أتكلم لشدة فرحي.

- شاركينا بالفرحة. من جهة تقولين هناك بعض التفاصيل. ومن جهة أخرى لا تتحملين الفرحة.

- التفاصيل يسيرة. يمكننا تسويتها. لا تهتمي. لا تفكري بها.

ولزمتا الصمت بقية الطريق.

في البيت أخذتا حمامًا باردًا، معًا. وطلبت الأم من ابنتها أن تعد لهما شرابًا مرطبًا. وجلستا في الصالة تحتسيانه:

- اتفقنا على حكم البراءة من القتل. ولا تبقى إلا قضية إجازة المسدس؛ مسألة بسيطة. لا تجعلي حتى المحامي

يشك. دعي المحامي يشتغل كما كان يفعل. وكأنه ليس بيننا أي اتفاق. هذه مسألة ضرورية. المبلغ الذي يريده كبير، ولكن يستحق. ويريده كله بالخارج. ولهذا السبب يجب أن نتصل بمكتب لندن. والنقود التي جهزتها نعطيها له حتى يعطيها هنا لشخص ثان.

- من الشخص الثاني؟

- لا داعي لتعلمي بالتفاصيل الآن. دعيها لما بعد البراءة.

- أخشى أنه يخدعنا.

- وماذا تفعلين إذا خدعنا. وماذا سيفعل أي شخص غيري؟ أنا متأكدة أنه يريد أن يفي بوعده، ويمكنه أن يفعل، وأنا فتحت له شهيته. ويمكن تساهلت معه كثيرًا. ألم تري كم أخافوننا من استقامته وكرهه للتدخل. لا تقلقي. إذا خدعنا فهنيئًا له. وإذا غدر بنا فما باليد حيلة. لكنني متأكدة. لا أعرف لماذا، ولكن قلبي مطمئن جدًا.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة بقليل عندما أفهمت ابنتها بما تحدث به مكتب لندن.

رفعت عاطفة السماعة وأدارت الرقم. ردت عليها السكرتيرة فطلبت منها المستر روجرز. وبعد السلام والمجاملات سألته:

- كم لدينا من النقد الذي يمكن أن نتصرف به فورًا.

تلكأ روجرز، فتذكرت، وقالت له:

- العفو، العفو. تذكرت، أمي معك على الخط.

وناولت السماعة لأمها:

- مساء الخير سيد روجرز. نحن كلانا نطلب ذلك. رمزنا الخاص OSD-637. اعذرني فأنت تعرف أن إنجليزيتي لا تساعد. عاطفة تكلمك.

وناولت السماعة لابنتها مرة أخرى.

- كم يصير بالدينار بسعر اليوم. ولكن هل تستطيع أن توعز الآن بتحويل مبلغ.

-.

- حسنا، كم يكون؟

-.

- آه. سجّل عندك رقم الحساب هذا.

وأملت عليه الرقم عددًا عددًا. وطلبت منه الإعادة للسيطرة.

- اطلب تحويل ما يعادل مئة وخمسين ألف دينار إلى هذا الرقم. سنحول إليكم قريبًا للتغطية وربما لحوالة أخرى. رجاء اطلب من البنك أن يبعث تلكس لصاحب الحساب ويخبره بأنه تسلم المبلغ وأودعه في حسابه. سأنتظر اتصالك لتخبرني أن كل شيء تم. نحن ننتظر في البيت. مع السلامة مؤقتًا.

وأخذت الأم سماعة التلفون، واتصلت بمدير حسابات ابنها في المخزن. كان ترتيبًا جيدًا أنهم اتفقوا على إدارة الشئون المالية مشتركًا. يكفي أمر اثنين منهم لتقرير أي شيء.

- مرحبا، سيد طارق. كيف الصحة؟ شكرًا. الله يسلمك. ما أخبار الشغل.؟ كم لدينا أموال نقدية بحساب الصندوق نقدر نتصرف به؟ ها. إذن غدًا صباحًا مر عندي للبيت قبل أن تذهب للمكتب. أهلًا وسهلًا. مع السلامة.

ثم استدارت إلى عاطفة. التي كانت متلهفة لسماع الباقي.

- ابن الكلب شهيته مفتوحة. ولكن مع ذلك إذا فعلها يستاهل. المجموع ثلاث ملايين دينار نقد. و.

وسكتت، فيما بقيت عاطفة تنتظر.

- ويريد فتاتين يعاشرهما. واحدة بكر وساذجة. وأخرى مجرّبة. بكر أو غير بكر، لا يهمه. المهم يريد عندها تجربة. ومع أنه لم يقل لي ولكنني أظن أنه يريدهما معًا. بالنسبة للمجربة أعتمد عليك. تجربتك ممتازة. لكنني لا أعلم هل بقيت عذراء أم لا؟

- ما زلت.

- حسنًا، الأخرى. أنا أفكر بسلوى. ربما فعل حامد شيئًا معها. لكنني لا أظن سنحت لها فرصة لتتعلم بعض الأمور. إذا وافقتْ، وهي ما زالت بكر. فلن تكون لنا أي

مشكلة. إذا وافقت وهي بلا بكارة، يجب أن نبدل الأدوار. تصبحين ساذجة لا تعرفين أي شي. ونعلّم سلوى بعض الحيل والفنون. غدًا بعد تصفية المسائل المالية مع طارق سأرى سلوى وأتكلم معها. من الأفضل ألا تكوني في البيت. غادري قبل العاشرة. وإذا وصلت هي قبل العاشرة، اخرجي بعد تبادل التحيات معها، وإذا صادفتك عند الباب سلمي وانصرفي. قولي لها عندك شغل مهم. لتدبير المبلغ مثلًا. واضح؟ والآن، إذا كان عندك سؤال اسأليني.

- لا، كل شيء واضح. إن شاء الله سلوى توافق أيضًا حتى تسهّل الأمر. وإلا فمن أين ندبر فتاة أخرى. لمن نوصي حتى تدبّر لنا واحدة لا تفضحنا.

- إي، طبعًا. إذا وافقت سلوى أسهل وأكثر أمانًا. دعينا لا نوجع دماغنا بالتفكير من الآن. سوف أراها وإذا لم أنجح في إقناعها، سنفكر بحل آخر. دعينا ننام لأن طارق سيأتي غدًا قبل الثامنة.

تبادلتا تحية المساء والقبلات وراحت كل منهما إلى غرفة نومها.

* * *

بقيت الأم مفتوحة العينين في فراشها. أعجبتك يا طاهر يا بن أم طاهر إذن. أتريد أن تبرهن لي أم لنفسك على شيء وأنت تعاشر ثلاث نساء في فترة لا أدري كم ستجعلها تدوم؟ شهرًا، أو شهرين. فحتى لو كنت في القائمة الثانية ممن

يتمتعون بعطلة المحاكم، ستبدأ عطلتك في أول أيلول. أم سيبلغ بك اللؤم حد إطالة القضية إلى ما بعد العطلة؟ لا يجب أن تجد في الفتاتين ما يغريك، وسأبقى وحدي رهينة عندك. أستطيع أن أجعلك تصدق أنني سأبقى معك بعد انتهاء نظر القضية. فأنا أيضًا أريدك لو تعلم. مضى علي وقت طويل لم يمسني رجل. كم؟ نسيت. ثلاث سنوات أم. لا، لا. أربع. كانت آخر مرة أذوق طعم الرجل في الصيف أيضًا. تموز؟ نعم. تموز.

وأنت حتى إذا كنت تكتفي بصيد دعاواك. فذاك يكفي كي يعلمك الكثير. وهو أفضل لأنه سيبقي لك حيويتك. ترى أتكتفي بكل واحدة منهن بليلة أو ليلتين؟ أم أنك تديم العلاقة أكثر؟ كلما كان أقل كان أفضل. ولكنني لن أكتفي منك بالقليل. هل مرت في حياتك، يا ترى، من علمتك شيئًا خاصًا؟ هل تعرف أشياء لا أعرفها؟

* * *

بقيت عاطفة ساهرة أيضًا، رغم أن عليها أن تستيقظ مبكرة غدًا. كانت تفكر في هذا الحاكم الوسيم. أنه صغير السن جدًا. لا تتصور أنه يزيد عن الثلاثين. لو أنك تقدمت للزواج مني لقبلتك على الفور. لقد شبعتُ من الأفندية الذين يكرر أحدهم ما يفعل الآخر. ترى هل أنت متزوج؟ الظاهر لا. فلا حلقة في أصابعك. أم أنك تخفيها كي تشعر ضحاياك باستقلالك لهن ومعهن؟

هل ستأخذنا واحدة واحدة، أم معًا كما تظن أمي؟ إذا كانت تأخذنا معًا هل عندك سيناريوهات تصلح للأفلام الجنسية؟ ماذا يسمونها؟ بورنو. إي، بورنو. لست أدري من قال إنهم يسمونها «بلو»، وعندما قلنا له إنك تتفلسف ولا تقول زرقاء. قال لا. فبلو هنا مصطلح. يحمل معنى خاصًا.

أتذكر الحفلات التي كنا نحضرها أو نديرها، وإذا كان عند أحدهم فيلم جديد كنا نراه فيها. كانت أكثر البنات يفضلن أن يبقين جالسات مع الجمع، تاركات أصدقاءهن يقومون ببعض المداعبات في حضور الجميع، كي يشهد الجميع بأنهن لم يذهبن إلى مدى بعيد. وأنا أدري أنهن كن يتحرقن للذهاب إلى أبعد مدى. وقد حذرتني أمي أنا أيضًا. أن أبقى في الصالون في أمثال هذه الحفلات وأوضحت لي الموضوع:

- ستكونين ساخنة وجاهزة فتستسلمين لرفيقك بسهولة إن انفردتما معًا. ونحن لا نسعى لهذا، إن لم يكن زواجًا مضمونًا. هل نسعى؟ ثم ستكونين شاذة عن الجماعة وتعرفين بالفسق وكأنهن جميعًا من أعف العفيفات. لا يهم ما يفعلن في الخفاء، فلا أحد يدري. كذلك كوني.

وكذلك كنت. أما الآن. فعلى فرض سلوى قبلت، وكانت بكرًا هي الأخرى. سأكون أنا المدربة العارفة. ولكن هل تريد أنت أن تفتض واحدة فقط، حتى إذا حملت لك الصدفة بكرين؟ ماذا سأفعل أنا إذن. هل أجرك إلى النهاية معي أيضًا؟ أم أكتفي بما تريد؟ وما تريد من المدربة

العارفة بالتحديد؟ مساعدتك، أم مساعدة البكر الساذجة؟ أيام. هي أيام ونرى.

* * *

عند الصباح كانتا قد فرغتا لتوهما من تناول الإفطار، وعندما شرعتا بشرب القهوة دق جرس الباب. ذهبت عاطفة ففتحته. حيا طارق ودخل. ذهبت عاطفة فجاءت بكوب آخر. صبت أمها القهوة وقدمتها لطارق:

- ها خاتون. ما هي الأخبار؟ إن شاء الله تبشر ما دام سألتني عن النقود.

- لا بأس. يجب الآن أن نبيع بستان السيدية. أتتذكر ذاك الرجل الذي يتصل بين فترة وفترة ويسأل عنه؟ أريدك أن تتصل به، وتقنعه بشطارتك إنك أقنعتني تقريبًا بالبيع. ولكنني أريد أكثر من مليون كحد أدنى، واطلب لنفسك «كوميسيون» عاليًا. وستحكي أيضًا حتى أقتنع بمليون. طبعًا تظاهر بأن اتصالك به سرّي. واجعل لقاءك به خارج المكتب وإلى آخر ذلك. دبر الأمر كله وكأنه فكرتك.

- دعي الأمر لي يا خاتون.

- وإذا كان المبلغ ليس في متناوله الآن، يستطيع أن يحوّل لنا إلى الخارج من حساباته هناك. ولن نحتسب المبلغ بعقد البيت حتى تقلّ الضرائب علينا وعليه. على كل حال، أترك التفاصيل لك. عاطفة متفقة معي. وحامد أيضًا، مع

أن موافقته ليست ضرورية، ولكنني لا أظن أنه سيمانع، على كل حال، في أول مقابلة سوف أعلمه بالمستجدات أيضًا.

- اعتبري الأمر منجزًا. سوف أبدأ من اليوم، وأرى.

- أريد أن ينتهي الموضوع بسرعة. لكنك تعلم أنه لا يجوز أن تبيّن له لهفة زائدة. أوه، لن أوصيك فأنت تعرف كيف تتصرف. ونحن معتمدون عليك.

- تأمرين خالة. تأكدي. إن شاء الله سندبر الأمر خلال أيام.

إنها تعتمد على طارق حقًّا، فهو ذكي. فهم إشارتها سريعًا عندما قالت «نحن» علم أنها إشارة إلى عاطفة معها. فهو يختلس النظرات منذ زمن إلى عاطفة، ويحاول التقرب إليها والحديث معها. علم أن ذلك تطمين له من ناحيتها. ولذلك تشجع هذه المرة وناداها «خالة». وعاطفة أيضًا ذكية. فهي ترمقه اليوم بنظرات كان تضن بها عليه قبلًا. كأنها تشجعه. على كل حال. فهو سيكون مفيدًا بعد أن تتم تجربتها مع الحاكم. إذا لم تجد الزوج المناسب.

ودعهما وانصرف.

وأبدلت عاطفة ملابسها واعتنت بزينتها، استعدادًا للخروج في أي لحظة. لكنها جلست قليلًا مع أمها. حتى قامت في حوالي العاشرة إلا ربعًا.

وبعد خروجها بقليل جاءت سلوى.

حيتها الأم وقبلتها. أرادت أن تأتيها بشيء تشربه فاعتذرت لأنها شربت قهوتها لتوها. أجلستها الأم قربها وأخذت كفيها الناعمين بين كفيها الدافئين طويلي الأصابع.

- سلوى حبيبتي. أنا مثل أمك طبعًا، ولكن علاقاتنا دائمًا كانت منفتحة أكثر. ربما عندك أمور تخجلين أن تصارحي بها أمك فصارحيني بها لأنك تعرفين أنه لا أسرار بيني وبين عاطفة. وقد حدثتِ عاطفة عن أمور كثيرة ووجدتِ لاحقًا أنني أعرفها فصرت تحدثينها بحضوري. صحيح؟

- صحيح. رجاء خالة كلميني عن الموضوع. لم أنم إلا قليلًا ليلة أمس وأنتظر كلام اليوم.

- سأخبرك. ولكن أريد أن أعرف أولًا هل أنت تحبين حامد حقيقة؟ أم تشعرين نحوه بالواجب مثلًا باعتباره خطيبك؟

- خالة. تعرفين أننا تعارفنا وبقينا حوالي سنة أصدقاء قبل أن يخطبني. ونحن منسجمان لأننا نحب بعضنا.

- حسنًا. إنني أعرف أن حامد مستعد للتضحية بكل شيء من أجلك. حتى بروحه ربما. لكن لا أدري كم أنت مستعدة للتضحية، وبأي مقدار.

- والله خالة. أنا مستعدة أن أضحي بكل شي.

فضحكت الأم، إذ تذكرت تنبيه طاهر:

- لا تقولي كل شي. هكذا بدون حدود وقيود.

- صدقيني يا خالة. بكل شيء. ولكن نعم، صحيح، العفو.

إلا في المال فقط، لأنه لا مال عندي. أي أنني لا يمكنني أن أقدم شيئًا إلا بمعرفة أهلي. وقد اتفقنا على أنه لا ينبغي أن نسمح بأن يعرفوا تفاصيل محاولاتنا.

- أحسنت، برافو عليك. لكن، لا تفكري بالمال. فأنت تعرفين أنني أملك الكثير، وعندما تنتهي أموالي. فأموال عاطفة وحتى حامد موجودة أقدر أسحب منها.

ظلت سلوى باهتة تتساءل:

- إذن، أعتقد أنه لا توجد مشكلة.

- لا، توجد. هناك مشكلة صغيرة.

- ما هي؟

- هل أنت مستعدة أن تنامي مع رجل لإنقاذ حامد؟ ليس لإنقاذ حياته فقط، وإنما حتى يرجع لنا خلال أشهر. لا تجيبني فورًا. فكري جيدًا. فأولًا يجب أن تكتمي هذا السر عن حامد. لا أقصد. ولكن قولي لي أولًا هل أنت باكر أم فعلها معك حامد؟

قالتها وابتسمت فاحمرت سلوى وهي تقول:

- لا، باكر. فنحن لم ننفرد وحدنا قط. وحامد شاب مؤدب وصبور.

- هذا أفضل. لا أقصد بالكتمان حول فقدان بكارتك فقط. لأنك تعلمين أنه يمكن معالجتها بعملية وتختفي آثارها بأسهل وأسرع وأسلم طريقة وتنتهي. لكنني أقصد

مراعاة حالك بحيث لا يظهر عليك بالقول أو بالعمل ما يثير شكوك حامد. لاحقًا. ونحن لا نعلم كم مرة يريد هذا الرجل أن يعاشرك. وفي أي وقت يطلب ذلك، وأين سيريده؟ فأولا عليك، في حال موافقتك، أن تتركي أهلك وتأتي عندنا. قولي لهم مثلًا إنك تريدين أن تبقي معي. تساعديني في هذه المحنة. حتى لا تضطرين أن تبحثي عن مبررات لغيابك في أوقات مختلفة والتي يحتمل أن تكون طويلة. فكري جيد قبل أن تجيبيني.

- ألم توافق عاطفة؟ أم أنك لا تريدينها أن تقوم بهذا الأمر.

فقالت الأم باسمة:

- لا هذا ولا ذاك!

مرة أخرى احتارت سلوى:

- إذن ماذا؟

- الرجل يريد فتاتين. وعاطفة ستكون الأولى.

- يا.. اللئيم ابن الكلب! من هذا، كيف شكله؟

فأجابتها الأم وقد اتسعت ابتسامتها:

- تأكدي. أنه يعجبك من حيث الشكل. الحاكم نفسه! أتذكرينه؟

- لا، والله. لا أتذكر شكله. لما ذهبنا إليه كنت حاقدة

عليه بحيث لم أر وجهه جيدًا. وبعد ما خرجت أنت من غرفته لم أفهم النتيجة، فبقيت حاقدة عليه ولم أنظر إليه. حتى قلت لنا في السيارة إن المسألة هانت. تصورت أنه يريد نقودًا فقط، فقلت لنفسي بسيطة. مهما تكن فيمكن تدبر.

- لا، يريد هذه الخدمة إضافة إلى النقود! على كل حال، اطمئني، فهو شاب وسيم، ومحترم. وبالتأكيد كتوم أيضًا، لأن الكتمان في مصلحته. تبقى المسألة الخاصة بك، هل أنت مستعدة للتضحية؟ لا تستعجلي، فكري جيدًا. إذا لا تريدين فسوف أبحث، ومهما كلفني الأمر سأدبره.

- لما سألت عن شكله لم يكن قصدي أن يكون وسيمًا. عسى أن يكون قبيحًا ومشوهًا حتى لا يدخل قلبي أي شيء منّه. ولا أعتقد أنه يمكن تدبير فتاة أخرى بسرعة. وإذا تأخرنا فإنه حتمًا سيستغل ذلك لتعطيل القضية أكثر. إذن، فلا يوجد حل آخر. موافقة.

فاكتسبت نظرات الأم الجدية، وقالت لها:

- الموضوع ليس بهذه السهولة. يجب أن تكوني متأكدة. عليك ألا تظهري أنك تكرهينه. ويجب أن يكون تصرفك طبيعيًا. أصبح لديك مهمتان إذن. الأولى أن تنتقلي بأسرع وقت عندنا، والثانية أن تتعودي على الفكرة.

- بسيطة.

ورن التلفون، كان اتصالًا دوليًا، حياها روجر وأبلغها بأنه

تسلم التأييد بتحويل المبلغ، فشكرته وأكدت أنها ستتصل به قريبًا بشأن مبلغ آخر.. ثم عادت إلى سلوى:

- في الحقيقة هناك مسألة أخرى أو اثنتان: أولًا يريدك أن تكوني ساذجة بقضايا الجنس.. وأريد أن أعرف كم تعرفين.. أصلًا ماذا فعلت في حياتك قبل حامد، وما فعلت مع حامد.. اتركي الخجل واحكي لي.

- والله خالة ما عندي أي تجربة.. قبل حامد ما تعرفت إلى أحد إلا بالجلسات العائلية.. ومع حامد لا بد فإنك تعلمين.. ذهبنا مرة أو مرتين للسينما معًا، وعدة مرات لتناول الغداء في المطاعم.. وليلة عيد الميلاد سهرناها مع عاطفة ومجموعة من الأصدقاء والصديقات.

- شاهدتم أفلامًا؟

- لا، لم نذهب للسينما جميعًا!

فضحكت الأم، وقالت:

- ليس هذا قصدي.. هل شاهدتم في الحفلة أفلامًا خاصة بعارضة منزلية؟

- لا، والله. جلسنا نتحدث ونسمع أغاني ونرقص.. ونأكل المكسرات.

- حسنًا، ألم تدعوك إحدى رفيقاتك لمشاهدة الأفلام الخاصة؟

- أي أفلام؟ في السينما؟ بالمناسبة أنا أحب الأفلام كثيرًا،

وخاصة العاطفية.

لم ترد الأم أن «تفتح عينها» أكثر، اكتفت بذلك وقد تأكدت من براءة الفتاة.

ثم فاجأتها بالنقطة الثانية:

- الحاكم هذا أراد فتاتين معًا.. لا أدري.. يريد أن يجمعهما بغرفة النوم معًا.. وعلى السرير أيضًا.. أظن هذا.. أو قد أكون مخطئة.. ولكن من الأفضل أن تكونا مستعدتين لكل الاحتمالات.

- حسنًا.

ولما لم تجد عند الأم شيئًا آخر تحدثها فيه، استأذنت بالانصراف، وأكدت أنها ربما ستتمكن من إقناع أهلها بأن تأتي منذ الليلة وتبيت في بيتها فرحبت بها الأم.

وخرجت.

عندما عادت عاطفة ووجدت الأم هادئة مطمئنة عرفت بنجاحها مع سلوى، فابتسمت وهي تنظر إليها متسائلة، فقالت أمها:

- وافقت، انتهينا من الأمور الكبرى.. طلبت منها أن تنتقل عندنا حتى لا ينتبه أهلها إلى خروجها وعودتها ولا تثر شكوكهم.. ربما ستجيء غدًا، أو ربما الليلة.

وعندما جلستا إلى الغداء اتصل طارق فأطالت معه عاطفة الحديث أكثر من المعتاد قليلًا، ثم سلمت السماعة

لأمها. أخبرها أنه اتصل بالزبون واتفق على اللقاء معه، حيث سيتناولان الغداء في أحد المطاعم، وسيعطيهما النتيجة بعد اللقاء. شكرته، وحيّت سرعة إنجازه.. فودع ووضع السماعة.

***

كانت حرارة تلفون المنزل ذلك اليوم مستمرة الارتفاع.. اتصلت سلوى لتقول إنها ستأتي مع أهلها خلال ساعة، فرحبت بهم الأم..

ثم اتصل طارق مرة أخرى.. أخبر الأم أنه «طبخ» الزبون، ولكن هذا طلب مهلة للتفكير.. وعلق أنه ربما يريد أن يجس النبض مجددًا بوساطة السمسار..

وما أن وضعت السماعة، حتى اتصل الدلّال.. ذكّرها بنفسه بعد أن تظاهرت بعدم معرفته، ثم بنسيانه ونسيان لقاءاتهما السابقة.. وطيب خاطرها وشجعها على احتمال البلوى التي حلت بها.. وأعلن عن دعائه لحل المشكلة بالخير والسلامة قريبًا. شكرته وقالت له إنها قررت البيع أخيرًا.. لأنه ليس عندها من تأتمنه على تشجير الزاوية الشمالية الغربية.. وأنها أمام ظروفها الجديدة لا تستطيع أن تستثمر مالًا في حوض الأسماك الذي كانت تفكر في تهيئته في البستان.. «إي نعم.. سأبيع، إذا وجدت السعر المناسب».

- وكم هو السعر المناسب؟

- مليونـان.. ولـن أنـزل فلسًـا واحـدًا عـن مليـون ونصـف.. إذا كان عنـدك زبـون فـوق المليـون ونصـف اجلبـه لي وإلا فـلا داعـي.. تعلـم أنـني مهمومـة ومشـغولة هـذه الأيـام.. إن شـاء اللـه، شـكرًا، مـع السـلامة.

وجـاءت سـلوى وجـاء أبوهـا وأمهـا أيضًـا. رحبـت بهـم الأم وابنتهـا.. وأعلنـت الأم فرحتهـا بقـدوم العائلـة.. واعتـذرت لمـا تسـببه لهمـا مـن إزعـاج.. طيبـا خاطرهمـا.. «إنـه واجـب، أصرت سـلوى عـلى الانتقـال إليكـم، وكانـت تخـشى أن نعـارض.. جئنـا لنريهـا لسـنا لا نعـارض فقـط، وإنمـا نحييهـا عـلى تفكيرهـا السـليم»..

قامـت الأم لتعـد كوكتيلهـا المفضـل لهـا ولأبي سـلوى.. وأرسـلت عاطفـة إلى المطبـخ لتعـد مـا تريـد أم سـلوى وسـلوى وهـي مـن شراب، فهـن لا يشربـن إلا النبيـذ الأبيـض، وفي الاحتفـالات فقـط.. وأوصـت عاطفـة أن تتصـل بعـد ذلـك لمعجنـات «ومبي»، كي يجلـب لهـم في السـاعة الثامنـة بالضبط أربعـة «بيـتزا» كبـيرة.. لأنهـا لا تسـتطيع الخـروج لـلأكل في المطاعـم في الظـروف الراهنـة.. كمـا أن ذلـك لا يصـح..

ثـم انشـغلت بإعـداد الكوكتيـل في قـدح كبـير بوسـواس أكبر.. حريصـة عـلى أن يكـون «الجـن» سـيد الـكأس، يليـه الزنزانـو في النسـبة، أمـا مـاء التونيـك فـكان أقـل مـن القليـل، ولـم تضعـه مـع المزيـج.. بـل صبتـه في الكأسـين الصغيرتـين اللتـين قدمـت إحداهمـا للسـيد عـارف ووضعـت الآخـر أمامهـا..

8

اتصلت الأم في حوالي العاشرة من الصباح التالي بالرقم الخاص الذي أعطاها إياه..

- «صباح الخير أستاذ طاهر.. كيف الأحوال.. إن شاء الله مرتاح.. وددت أن أقول لك إن المسائل المهمة دبرناها وأننا جاهزات بالخدمة.. لا، لا.. بلا مجاملات.. هذا واجب.. إي، حسنًا، تأمر وتتدلل، تفضل سجّل..»، وراحت تملي عليه رقم تلفونيْ البيت. ثم حيّته، ووضعت السماعة.

جاءت الفتاتان، فجلستا حولها.. قليلًا.. ثم نهضت عاطفة فدخلت المطبخ.. وعندما اجتمعن حول مائدة الإفطار قالت لهما:

- لم يبق لدينا غير الانتظار.. ننتظر الزبون، وننتظر الحاكم.. يجب أن يبقى أحد الهاتفين غير مشغول دائمًا..

وفعلًا، في هذه اللحظة رن التلفون، وكان طارق:

- صباح الخير، خالة.. كيف الأحوال؟ كيف صحة الآنسة عاطفة؟ أنتما بخير، إن شاء الله؟ خالة، اتصل بي السمسار.. هو والزبون يريدان رؤيتك.. وقد أفهمني أنهما لا يريداني أن.

- لا بأس.. سأكون في الساعة الثانية عشرة في المعمل، ثم أمر عندك في المكتب.. ومكتب السمسار قريب.. قل له

إنني سأمر عليهما بالمكتب بين الواحدة والواحدة والربع.

- حسنًا، أتريدين أن أكون موجودًا بالمعمل؟

- لا. إذا كان عندك عمل مهم بالمكتب فما من داع.

- إي والله، لدي الكثير من الأمور..

- حسنًا، أبق بالمكتب، ونلتقي هناك قبل الواحدة.. مع السلامة».

ووضعت السماعة..

***

في الوقت نفسه تلقى طاهر مكالمة تلفونية من صديقه حسني الرجب، صاحب شركة الرجب للأجهزة المنزلية، وكان واسطته لتلقي وإرسال الرسائل بالتلكس، دون أن يفهم رموزها بالطبع. بعد التحيات، قال له حسني:

- الليلة الماضية وصلنا هذا التلكس لك.. وقد تأخر حتى وصل بيدي.. إن شاء الله لا يكون مستعجلًا جدًا.. على كل حال، لم أرد إزعاجك الليلة الماضية، فقلت أتصل بك صباحًا.

- العفو «أغاتي»[3].. لا تهتم.. ليس لدي شيء مستعجل جدًا.. إذا وصل فلان أو أرادت فلانة أن تزوركم.. تفضل.. تفضل، اقرأه لي ثم أرسله بيد الفراش.

وقرأ عليه حسني:

3) تطلق للاحترام وتعادل سعادة البيه عند المصريين.

- إلى أنظار طاهر الحديثي.. وصلت نهى البغدادي صباح اليوم، وهي تبعث إليك بأكثر من مائتي ألف قبلة إنجليزية.. نرجو أن تطمئنوا على سلامتها. التوقيع: راضي.

ضحك طاهر:

- بماذا أكثر من مائتي ألف؟ لا يذكر كم أكثر..

وشاركه حسني الضحك:

- لا أدري، والله.. يمكن تركتها لخيالك.. تزيد وتنقص كما تريد.

حسنًا، لقد وفت أم حامد بوعدها حقًا، وكان خبرها الأول صحيحًا.. مائتي ألف « قبلة» إنجليزية يعني كم بالدينار العراقي؟ بكم أكثر من مائتي ألف؟ سنفهم عصرًا..

ورفع سماعة تلفونه الخاص، وطلب أحد رقمي منزل نهى. لم يعرف إن كانت من أجابت عاطفة أم غيرها. حيا بشكل اعتيادي، وتأكد من الرقم الذي طلبه، ثم سأل:

- بيت السيدة أم حامد رجاء؟

- نعم.

- هل من ممكن أن أكلمها؟

- مع الأسف ليست موجودة. حضرتك؟

- صديق. متى تعود؟

- لست أدري. لكن إذا عندك أمر ضروري فاتصل بها

بالمكتب في الساعة الواحدة.. مكتب حامد.. هل عندك الرقم؟

- لا. أعطني إياه لو سمحت.

وأملت عليه الرقم. شكرها وأغلق..

***

قبل الواحدة بقليل طلب من هاتفه الخاص أيضًا الرقم وسأل إن كانت السيدة أم حامد موجودة، فأوصلوه بها.. حياها، ثم:

- في الساعة الخامسة ستنتظرين عند باب «أوروزدي باك».. سوف تأتيك سيارتي.. أوستن حجم كبير رصاصية اللون. السائق يعتمر «بيريه»[4].. هو سيوصلك.

- حاضر.. هل أجلب معي شيئًا؟

- لا.. وحدك.. وسلامتك.

- أنت السالم.. شكرًا.

- مع السلامة.

- مع السلامة.

***

بعد الواحدة بقليل ذهبت سيرًا على الأقدام إلى مكتب السمسار.. استقبلها بحفاوة، ووجدت عنده الزبون بغترته

4) أحد أنواع القبعات الغربية.

البيضاء المطرزة وعقاله الرفيع.. وقد جلب معه كرشه المنتفخ الذي يكاد ينفجر لصلابته.. وبمجرد أن جلست، قالت:

- «يا سيد محمد.. البارحة أبو رافد» - والتفتت إلى السمسار.. «اتصل بي.. وقلت له إنني قررت البيع، والسعر مليون ونصف. إذا حضرتك موافق حتى أخبر محامي ليحضر المستندات، ويدبر لنا موعدًا لتسجيل».

- «خاتون.. مليون ونصف كثير جدًا». فقاطعته مسرعة:

- «سيد محمد.. أنت قلت في وقته إنك مستعد لأي ثمن.. كل الخبراء الذين سألتهم قدروا السعر بين مليون ومليونين.. وأنا اخترت السعر الوسط.. فأرجوك إذا تريد أن تشتري حقيقة «احسمها»».، وهنا تدخل السمسار:

- «خاتون.. أنا، بعد أذنك، قلت له إنني أستطيع تدبيره بأكثر من مليون بقليل، وممكن حتى بمليون.. فأرجوك.. حتى ولو لخاطري أرجوك تساهلي ولا توقعي كلامي على الأرض». وغمز لها. فنظرت إليه نظرة ملأتها عتابًا، وقالت:

- أبو رافد إذا كنت أنت أو سيد محمد تتصوران أنني أطلب أكثر من قيمة البستان فلا حاجة للكلام، وأنا عندي شغل ويجب أن أعود للبيت بسرعة.

- «لا، العفو يا خاتون.. والله يستحق، بالله يستحق.. ولكن السيد محمد يفكر بتحسينات وإضافات.. وهذه الأمور تحتاج إلى نقود أكثر.. تحتاج إلى مصاريف.. فتساهلي

معـه واحسـبيه بمليـون». وتدخـل محمـد:

- لا، المليـون مثـير أيضًـا.. ثـم، يـا خاتـون: البسـتان بسـتانك، مـتى مـا تحبـين بابـه مفتـوح لـك.. جلسـة، حفلـة، سـهرة.. بخدمتـك.

- «شـكرًا، سـيد محمـد.. عندمـا أبيـع سـوف أقـول لـك «تشـوف الخـير»، وعندمـا أقولهـا فأنـا أقولهـا مـن كل قلـبي.. وسـوف أنسى البسـتان وأنـه كان يومًـا لي.. تهنـأ به أنـت وأولادك وعيالـك إن شـاء اللـه.. مـا عنـدي مانـع.. مليـون وثلاثمائـة، مليـون وربـع، يـا اللـه». فقـال السمسـار:

- خاتـون.. قـولي مليـون واللـه يبـارك لـك أيضًـا.. ودعينـا ندعـو بالفـرج لأسـتاذ حامـد وراحـة خاطـرك.

لابـد أن الملعـون كشـف لمحمـد أنـني مسـتعدة للبيـع بمليـون.. حسـنًا، فليكـن:

- أشـكرك.. حسـنًا، مليـون؟ مليـون! سـوف أخـبر المحامـي، فاتصلـوا بـه لننهـي الأمـر.

ولكن محمد بقي غير راض.. فودعتهما وانصرفت.

***

رجعـت إلى البيـت، ومـن هنـاك اتصلـت بطـارق، ووضعتـه في صـورة حديثهـا مـع الزبـون والسمسـار، ثـم أضافـت:

- أعتقـد أنـه سـيترك السمسـار ويتصـل بـك مبـاشرة.. مثـل مـا قلـت لـك، إذا اتصـل.. فأعـصره.. ولا تـنزل عـن تسـعمائة

ألف ونصف.. والشرط المهم هو التسديد الفوري.. ولكن لا تظهر له لهفة على ذلك.. اجعله شرطًا مقابل التخفيف.. قل له إنك تقدر أن تحصل على البستان بهذا المبلغ.. تقدر تأخذ موافقتي على هذا المبلغ.. أبقه في شك.. وسيكون سهمك فوق النصف على قدر شطارتك.

- ممنون خالة.. لكن تعرفين أنني لا أريد أن تنجح المعاملة من أجل ربح مادي فقط.

أعرف أنك تطمع بعاطفة.. ولكن أتريد عاطفة لنفسها فقط حقًا، أم تريدها لثروتها؟. وتريدها لأنها ابنتي وسترث المزيد مني ذات يوم.. أم أنك تريد استعمالها للاستناد عليّ؟ لا تظنني لا أعلم:

- طبعًا.. طبعًا، وأشكرك.. لكن أقصد أن الفائدة التي ستأتيك تنفعك بتحسين وضعك.. وتزيد فرحتنا بشطارتك.

- هذا من حسن ظنك، يا خالة.. ممنون. سأنتظر اتصال السمسار أولًا فربما يعلن موافقته على المليون.. أتأمرين بشيء آخر؟

- لا، شكرًا.

- طيب.. عن أذنك.

- مع السلامة.

وانضمت إلى ابنتها وسلوى، اللتين أعدتا مائدة الغداء على أحسن وجه.. وبينما كن يأكلن أخبرتهما أن القاضي

اتصل، وهو يريدها عصرًا.. لا بد أن عنده أخبارًا طيبة لهن..

وبعد الطعام نهضت قائلة إنها ستذهب لترتاح قليلًا في غرفتها، وطلبت منهما أن تأخذا حريتهما، فلا شغل لها معهما حتى تعود.. إن أرادتا البقاء في المنزل عصرًا يمكنهما البقاء، وإن كانت تفضل أن تخرجا وتتسليا قليلًا.. فقد كانت الأيام الماضية صعبة، وقد بدأت تباشير الفرج الآن.

***

عندما استلقت على فراشها كانت تريد أن تغفو قليلًا، ولذلك ضبطت منبه الساعة على الرابعة إلا ربعًا، ولكن الأفكار ازدحمت على رأسها كالذباب وحملت على أجنحتها لا فكرة النوم فقط بل وأي أثر للتعب والنعاس أيضًا..

سيبدأ لقاؤنا الجدي إذن يا طاهر يا ابن أم طاهر.. هل أنت واثق من نفسك إلى هذا الحد حقًا؟ أم تلبس قناع الثقة؟. سنرى.. هل تحب القيادة إلى هذا الحد حقًا؟ إن مركزك ووضعك يعطيانك السلطة طبعًا، ولكن هل تعرف كيف تستخدمها؟ وعلى أجساد النساء أيضًا؟ أم ربما أنك تغطي ضعفك مع النساء أو ربما حتى عجزك بسلطتك الأخرى، وطلباتك الشرهة.. سأمتحنك اليوم.. لا بد أنك أعددت نفسك لوليمة جنسية، أتمنى أن تكون ناجحًا فيها.. فأنا أيضًا متلهفة.. لأبل جفافي الذي طال حقًا.

ثم خطر لها هاجس، فقامت مسرعة ونزعت قميص

النوم وتملت في جسدها أمام المرآة.. وجدته كما عهدته آخر مرة.. متناسقًا صلبًا متماسكًا.. مررت يدها على نهديها وبطنها ثم تلمست ردفيها وفخذيها: ملساء صافية، لا ترهل ولا تجاعيد. وابتسمت ابتسامة واسعة وهي تتذكر ما كان قاله أحد عشاقها لها مرة، فأكد بذلك ما كانت تعرفه أصلًا، وما كانت تقوله صديقاتها:

- لو اشتركت بمسابقة ملكة جمال العالم فستفوزين.. إن لم يكن باللقب فبوصفك وصيفة.. إن لم يكن لجمال الوجه فلهذا الجسد الرائع..

كانت تعرف ذلك.. كانت تقيس ارتفاعات جسدها وانخفاضاته على فترات.. فوجدت مقاساتها تساوي المقياس النموذجي للأحجام الكبيرة.. 36- 26- 36.. وقد اشتركت مرة مع صديقاتها في مسابقة، بناء على إلحاحهن، لأنها تظاهرت بالتواضع.. وأرادت التهرب.. ولكنهن ألححن.. وكانت من بين من رفضن التعري تمامًا لأخذ المقاييس.. لذلك فقد أفردن غرفة جلست فيها واحدة منهن.. ائتمنّها جميعًا.. كي يدخلن عليها فيتعرين مما بقي من لباسهن، فتقيس الصدر والبطن والورك.. وتسجله، بالبوصة والسنتيمتر.. وعندما انتهت، وخرجت إليهن.. عرّينها تمامًا.. وبين خجل تلك الصديقة المفتعل - فقد كانت من أولى صاحبات الفكرة - ومداعباتهن، أخذن مقاييسها هي أيضًا..

ولكن مع اطمئنانها إلى أن مقاييسها بقيت على ما كانت عليه، أو تكاد- كانت تعرف عيب جسدها.. إنها أقصر مما

ينبغي لهذه المقاييس..

هيا، هيا.. لا أظن طاهرًا سيمسك بالمقياس ليذرعك قبل طرحك في فراشه.. ترى كيف يبدأ.. أسيبقى على وقاره وهو يقودني إلى السرير.. ويصعدني.. أم سيتحرر من مظهره الزائف ذاك.. ولكن هل مظهره زائف؟ أم أنه يعبر عن باطنه حقًا؟ ما لي ولوقاره.. لأفهم إن كان سيعلمني شيئًا جديدًا، أم سأقدم له ما أستطيع به أن أقوده وأستولي عليه..

ورن منبه الساعة، فأسكتته فورًا..

أخرجت من صوان ملابسها مشد صدر وسروالًا داخليًا أسودين، لم تكن لبستهما سابقًا.. أرادت أن تحملهما معها إلى الحمام لكنها غيرت رأيها، فتركتهما هناك.. اغتسلت جيدًا، ونشفت نفسها بالمنشفة.. لم تكتف بذلك، وإنما أمرت السيشوار على بعض مناطق جسدها لتضمن جفافًا تامًا.. ثم عادت إلى غرفتها.. رشت قليلًا من البودرة تحت إبطيها ثم مسحتهما وعلى ردفيها ثم وزعتها في ما بين فتحتيها.. مسحتها جيدًا.. أخذت مرآة صغيرة واستلقت على الفراش ونظرت إلى نفسها بالمرآة كي تتأكد من عدم وجود آثار للبودرة.. ونهضت.. وضعت مشد الصدر الخفيف نصف الشفاف - لم تلبس يومًا مشدًا مبطنًا مدببًا كما تفعل غيرها.. فقد كان نهداها صلبين شامخين لا يحتاجان إلى مساعدة خارجية..

ثم ارتدت ثوبًا متعمد البساطة.. كانت قد اشترته العام

الماضي من إيطاليا.. ولم تلبسه إلا في حفلة عيد ميلاد عاطفة قبل أربعة أشهر.. كان بنفسجيًا غامقًا.. إنها تحب الألوان الغامقة الناصعة.. بلا دكنة.. وجلست على سريرها فارتدت سروالها الداخلي أخيرًا.. ثم أخرجت من صندوق الأحذية حذاءً بنفسجيًا أيضًا وحقيبة باللون نفسه.. كانت قد اشترتهما من تنزيلات كريستيان ديور قبل سنتين.. ثم رفعت السماعة وطلبت وكالة التاكسي التي تتعامل معها، وطلبت منها سيارة للساعة الرابعة والنصف..

حرصت في زينتها، كعادتها، أن تكون طبيعية الألوان.. كل ما تفعله أنها تزيد حاجبيها وأهدابها بنّية اللون كي تحافظ على تضادها مع بشرتها الناصعة.. التي تساعد مواد الزينة على إكسابها نعومة أكثر مما تبدل لها لونها..

عندما انتعلت حذائيها وحملت حقيبتها كانت الساعة تقارب الرابعة والنصف.. بحيث أنها عندما بلغت الصالة كانت سيارة الأجرة تقف عند الباب وسائقه يدق جرس المنزل..

صفرت عاطفة ممازحة.. وكانت سلوى أيضًا تنظر بإعجاب، ثم قالت:

- أعتقد أنه سوف يتركنا ويتمسك بك.

فقالت الأم، وهي تتظاهر بالتأنيب، إلا أن نظرتها كانت توحي بالفرح لهذا الإعجاب:

- «عيب يا فتاة». ثم أضافت، وهي تكسو وجهها بنظرة

جـادة: «أتمـنى لـو أسـتطيع أن أفديكمـا». فأكدتـا لهـا أنهمـا وافقتا بحريّـة، وأنهما كانتـا قادرتـين، لـو أرادتـا، عـلى شراء مـن تحـلان محليهمـا.. وأنهمـا سـتتحملان..

وودعتهما وانصرفت..

كانـت تتصـور أنهـا قـد اسـتدعت التاكـسي مبكـرًا خشـية ازدحـام المـرور، ولكنهـا وصلـت قبـل الموعـد بثـلاث دقائـق فقـط، رغـم خلـو الطرقـات، فسـجّلت ذلـك في قعـر مخهـا، حـتى تحسـب لـه حسـابًا أدق في الموعـد القـادم - أو ربمـا المواعيـد القادمـة؟

في الخامسـة تمامًـا توقفـت أمامهـا سـيارة أوسـتن رصاصيـة عنـد بنايـة مرجـان. نظـرت إلى السـائق فوجدتـه يعتمـر بيريـه واسـعة، ويضـع نظـارة طبيـة، ولـه لحيـة سـوداء داكنـة مرتبـة حوافّهـا بشـكل ذكرهـا بهنـدي مـن السـيخ تعرفـت عليـه ذات يـوم.

فتحـت البـاب الخلفـي وصعـدت، وعندمـا جلسـت، وجـدت أن زجاجـة داكنـة تعزلهـا عـن السـائق، وتمنـع رؤيتهـا للشـارع أمامهـا.. فاكتفـت بالنظـر مـن النوافـذ الجانبيـة.. ولكنهـا انتبهت بعـد قليـل إلى حفيـف خفيـف ثـم رأت زجاجـة داكنـة تصعـد لتغطـي النافـذة الـتي كانـت تنظـر منهـا، والتفتـت إلى النافـذة الأخـرى فرأتهـا تتغطـى هـي الأخـرى، كمـا تغطـت الزجاجـة الخلفيـة.. «مـا هـذا؟ سـجن؟ أم لعلـه يريـد أن يعملهـا في السـيارة؟ كيـف أمنـت لهـذا السـائق يـا إلهـي؟ لا.. إن عنـده

تعليماتـه ولا شـك».

لـم تعـد تـدري إن كانـت السـيارة تسـير مسـتقيمة نحـو مقصدهـا أم أنهـا تلـف بهـا الشـوارع.. ولكنهـا لاحظـت أنهـا بقيـت تسـير بهـا بسرعـة متوسـطة نحـو عشريـن دقيقـة حـتى توقفـت.. حيـث نـزل الزجـاج الأسـود مـرة أخـرى.. ووجـدت نفسـها في مدخـل حديقـة واسـعة نسـبيًا وينتصـب أمامهـا بيـت مـن طابـق واحـد أعجبهـا بابـه فقـررت أن تبـدل بـاب بيتهـا إلى مثلـه.. بعـد انفـراج الأزمـة.. ليكـن باكـورة إنتـاج المعمـل الجديـد..

نـزل السـائق قبلهـا، وفتـح لهـا البـاب.. وتقدمهـا إلى بـاب المـنزل، فضغـط زرًا فتـح بـه بـاب البيـت؛ وقـال لهـا:

- تفضـلي خاتـون.. الحمـام عـلى يمـين المدخـل.. مثـل المـرة السـابقة رجاء.

أي أحمـق هـذا.. أيخـاف حقًـا أن أغتالـه وأنـا مسـتعدة الآن لتشـغيل فرقـة حمايـة عـلى حسـابي للحفـاظ عليـه؟

عـاد السـائق إلى السـيارة فيمـا دخلـت وأغلقـت البـاب وراءهـا..

لـم يسـتقبلها في البيـت أحـد.. ودخلـت حجـرة الملابـس وحدهـا حيـث تجـردت مـن ملابسـها، ثـم دخلـت إلى الحمـام منتظـرة أن تـأتي الخالـة لفحصهـا.. ولمـا لـم يـأتِ أحـد خرجـت بعـد خمـس دقائـق أو أكـثر قليـلًا.. تصورتهـا دهـرًا مـن الانتظـار..

لـم تجـد ملابسـها.. ولكنهـا وجـدت لباسًـا أبيـض وثوبًـا زهريًا معلقـين وفوقهمـا رقعـة لـم تكـن موجـودة عندمـا دخلـت، ومكتـوب عليهـا «البـسي هـذه رجـاء». فارتدتهمـا وخرجـت إلى الصالـة، وجلسـت تنتظـر..

بعـد قليـل خـرج طاهـر مـن غرفـة يفتـح بابهـا عـلى الصالـة حامـلًا ملابسـها الـتي جـاءت فيهـا، وحياهـا وهـو يعتـذر قائـلًا:

- «العفـو.. لكـن هـذه تأكيـدات خالـتي.. فهـي لا تدعـني أذهـب لأي مقابلـة إلا بعـد مـا تحلّفـني أن أطبـق تعليماتهـا.. فأرجـوك.. كل مـرة تأتـين تعملـين نفـس الـشيء.. وحـتى عندمـا تدخلـين الحمـام افحـصي نفسـك كمـا لـو كانـت هـي تفحصـك عـشر دقائـق عـلى الأقـل.. اليـوم خرجـت بسرعـة.. حـتى لا يصـير إحـراج وأضطـر إلى.»، وقطـع كلامـه، مسـتعيضًا عنـه بنظـرة فهمـت معناهـا.

ثم قال:

- عنـدي بـيرة بـاردة جـدًا، وأسـتطيع أن أجهـز لـك قهـوة.. يقولـون إن قهـوتي جيـدة.

فاختارت القهوة معتذرة عن التكليف.

عندمـا سـمعت الـدوي الخفيـف في المطبـخ عرفـت أنـه يملـك جهـازًا كهربائيًـا لإعـداد القهـوة، ونسـيت نفسـها فراحـت تفكـر: تـرى مـا ماركتـه، أهـو مثـل جهازنـا، فيليبـس أيضًـا؟»..

ثم انتبهت لنفسها فابتسمت..

عاد إليها حاملًا صينية صغيرة.. تحمل كوب قهوة كبيرًا يستقر في صحنه، وإلى جانبه ظرف مشغول بالمينا للسكر.. وإلى جانبه علبة بيرة «بيلزن».. «لابد أنه يشتري من أسواق المطار عندما يعود من أسفاره.. أم أنه يكلف أصدقاءه المسافرين بجلبها له، فهي لا تباع في السوق».. وانتبهت لنفسها مرة أخرى عازمة ألا تترك لذهنها أن يستغرق في تأملاته هكذا.. ورأت بين ظرف السكر وعلبة البيرة وردة روز حمراء.. صغيرة كأنها برعمًا ما تزال..

وضع الصينية على الطاولة الوسطية، وقبل أن يجلس رفع الوردة وقدمها لها:

- مع تحياتي..

فشكرته. ومرة أخرى، راحت تفكر.. بما أنه جلب البيرة فسيتناولها.. بينما يقدم لها القهوة في كوب كبير.. ما هذا.. يثمل ويتركها صاحية، بل يرفع صحوها.. ما هي لعبته..

جلس أمامها.. وأخذ يتأملها فيما هو يرشف البيرة من العلبة مباشرة.. انتبه إليها فاحمر خداها.. وخفضت بصرها.. قال:

- تلقيت تأكيدًا بوصول المبلغ.. أحييك على سرعة عملك.. وأشكرك على الاستجابة.

- العفو.. الاتفاق هو اتفاق.. وأتمنى أن ينتهي خلال أسبوع أو أقل من أسبوعين.

- العفو.. الإشعار الذي جاني بالجنيه الإسترليني.. كم كان المبلغ الذي حولته؟

- مائة ألف ونصف بسعر أول أمس.

- صحيح، صحيح.. شكرًا. يوم الخميس، الساعة ستة، اجلبي معك حصة ممثل الادعاء.. نقدًا.. وتقفين عند باب بناية مرجان.. ولما تنزلين من السيارة هنا تعطيها للسائق.

- حسنًا.

- من اليوم حتى تحويل باقي المبلغ، أرجوك إنسي موضوع المال عندما تكونين هنا.. والفتاتان.. على فكرة.. فهمت من كلامك على الهاتف أن أمرهما تدبر أيضًا، أليس كذلك؟

وبقي كلامه معلقًا، فقالت:

- صحيح.

- بالنسبة لهذه السرعة أعتقد أنهما ابنتاك.

- أجل.. لكنني أريدك أن تعلم أن الفتاتين وافقتا أول ما طرحت الموضوع عليهما.. وأنني لم أبذل أي جهد لإقناعهما.

- حقًا؟ هما أيضًا تفكران بإنقاذ حامد وتتصوران أنا أريدهما بالذات؟. لقد قلت لك إن هذا ليس مسألة أساسية.

- هذا جائز.. لكن أظن هناك استلطاف أيضًا.

لو رأتني واحدة منكن في الشارع ما استلطفتني، وحتى لو التقينا في حفلة تجعلني في مستواكن لما كنتن تستلطفنني، ولكن هي السلطة عندي والحاجة عندكن.. ما فرقكن عن أية بغي عادية؟

لكنه ابتسم وهو يرد عليها:

- هذه مجاملة كبيرة.. شكرًا..

- صدّقني ليست مجاملة.. وسوف ترى لما تجرّب.

- إن شاء الله.. حدثيني عن نفسك قليلًا.

- «عماذا أتحدث؟. ربما كنت تعلم أنه بعد وفاة المرحوم زوجي اعتمدت على نفسي في تربية حامد وعاطفة حتى أنهيا دراستهما.. ساعدني عمهما بالأعمال حتى توفي فاعتمدت على نفسي أكثر.. واشتغل عندنا محاسب شاطر وأمين ساعدني كثيرًا.»، وانتبهت إلى أن الجو أصبح جديًا أكثر من اللازم مما استعدت له.. فأضافت:

- لم أفكر جديًا برجل من قبل.. وحتى عندما كانت تصير لي علاقة بشخص كنت أعرف أنها مؤقتة، وأجعله يفهم من البداية أنها مؤقتة.. لأنني لا يمكنني أن أتزوج.

- لماذا؟. فإنك ما زلت تحتفظين بشبابك وبحيويتك.

- شكرًا.

- هذه ليست مجاملة.. إذا شاهدك شخص في الشارع

مع حامد ولن يتصورك أمه أبدًا.. ولكن الشبه بينكما يؤكد وجود علاقة ما.. على الأكثر سيظنون أنه أخوك الأصغر.

- «أنا الآن تجاوزت الأربعين.. فمن يتزوج امرأة بهذه العمر؟. ما من أحد غير الأرمل أو المطلق.. وحتمًا يكبرني عشر سنين على الأقل.. أنا تخلّصت توًا من العناية بالأطفال، أتريدني أن ابتلى بالعناية بالأطفال الكبار؟»، وضحكت، فشاركها ضحكتها.

وبدأ يتحدث:

- أما أنا فيتيم.. ومثل ما جرى عندكم مات أبي أولًا.. وربتني أمي منذ آخر سنة في الثانوية.. كنت أشتغل في الصيف لأزيد دخلنا، ولكنها تعبت أكثر مني.. كانت خياطة ماهرة.

- بارك الله فيها.. أين يقع متجرها؟

- أعطتك عمرها.. توفت هي أيضًا.

- العفو.. الله يرحمها.

أبو عبدو البغل

- يرحم والديك.

غضبت من نفسها.. ما بها اليوم؟ كانت عازمة على قيادة الموقف ولكنها إما تسترسل لأفكارها، وإما تنقل الحديث إلى الهم والغم.

- على كل حال.. حقيقةً بارك الله فيها.. أنجبت صبيًا وربّته وأوصلته إلى هنا.. ولكن قل لي.. يظهر أنك تطلق هذا

الشارب الكبير حتى تبدو أكبر.. كم عمرك؟

- تفكيرك صحيح.. وأنا في بداية التاسعة والعشرين من عمري.

- لا أصدق، أتصورك أصغر سنًا.

- صدّقي.

- ومع ذلك.. فأكيد كنت طالبًا ذكيًا وتخرجت بتفوق وتميزت بأول عملك بحيث صرت حاكم جزاء.

وكان الصدق باديًا عليها وهي تقول ذلك، وكانت تفكر في ذلك حقًا، إذ من أين لابن الخياطة أن يصل إلى هذا الشأن؟ صحيح، الواسطة، ولكن من أين دبر الواسطة؟..

- هذا من حسن ظنك.. طيب.. احكي لي عن هواياتك.. ماذا تهوين، وكيف تقضين أوقاتك؟

- والله أنا أحب السباحة.. والسينما.. كنت سابقًا أشارك في حفلات كثيرة، لكن منذ توليت رعاية ولدي قللت منها حتى أبقى معهما بالبيت وأخدمهما في تحضيرهما.. أحب الملابس، أحب العطور الهادئة.. ومن المكياج أحب الطبيعي.. وهذا مكياجي الاعتيادي.. أشرب، باعتدال زائد.. أفْضل شرابي كوكتيل الجن والزنزانو.. أحب الأكل.. ولكني لا آكل كثيرًا.. إلا عندما يكون "بني" أو "شبوط" على "أبو نؤاس"[5].. أو ستيك بأمريكا.. أو حساء البصل بباريس.. هاء،

---

5) البني أو الشبوط من الأسماك النهرية التي تحضر بطريقة خاصة في مطاعم شارع أبي نواس ببغداد، وتعرف بالسمك المسكوف.

نسيت أقول لك.. لا أحب البيرة.. لأنها تدوخني.. و..

وضحكت. لم يسألها، تصور أنها تجعلها تتبول كثيرًا فلم يرد إحراجها. قال:

- «خلاصة ممتازة، ولكني أنا لست فقط لا أحب السباحة، وإنما لا أجيدها.. أحب المشي، وإذا كان مزاجي جيدًا أركض.. مثلك أحب الملابس.. لا أستعمل العطور، ولكن «الكولونيا» التي أستعملها من النوع الهادئ أيضًا «بروت» أو «كواروم»، لا غير.. وطبعًا لا أستعمل المكياج.. نعم للسمك مثلك.. نعم للستيك، لكن لا أشترط بأمريكا لأني لم أذهب إلى هناك.. وسأذكر حساء البصل عندما أسافر إلى باريس هذه المرة.. أشرب البيرة قليلًا، خصوصًا في الصيف.. مثلك أحب السينما.. ولكنني أشاهد الأفلام بالبيت، لأن أفضل الأفلام هي التي لا تعرض بالسينما.»، وضحك، ففهمت وشاركته الضحك هي الأخرى.

- طبعًا ليس أي فيلم. أحب الأفلام التي فيها سيناريو جميل.. يتعب عليها المخرج وكأنه يخرج فيلمًا جادًا.. ولا يذهبن خيالك إلى مكان بعيد فتظنين أشاهدها مع شريكات من الجنس اللطيف.. لا، هذا ليس شرطًا.. قد أتفرج عليها وحيدًا.

- أنا قد رأيت بعض هذه الأفلام.. لكن بصراحة لم يعجبني أي منها.. ربما كما قلت لا يوجد فيها سيناريو جيد.

- وأحب الجنس، باعتدال كتناولك الطعام.. لست

طماعًـا.. وتهمّـني أن تعتـني شريكـتي بي.

- ممتاز.. حتمًا علاقاتك لا تطول معهن.

- لا.. إلا إذا وجـدت امـرأة اسـتثنائية.. "فـوق العـادة".. تجّـن بالـذي أفعلـه لهـا، أو تجعلـني أجـن بالـذي تفعلـه لي.

- إذن، لا بـد أن تجاربـك كثيرة.. وبهـذه تغلبـني.. يمكـن ثلاثـة رجـال أو أربعـة.. أتذكـر أحدهـم تمنيـت لـو بقيـت معـه أكـثر.. لكنـه سـافر إلى الخـارج ولـم نعـد نلتقـي.. رأيتـه مـرة لكنـني لاحظـت أنـه لـم يعـد مهتمًـا كثـيرًا، فتركتـه.

- ومن الورود أحب الروز والرازقي بشكل خاص.

- لا بـأس.. هنـاك اختلافـات بيننـا يمكـن أن تسـاعد عـلى الانجـذاب.

- إن شاء الله.

ومـرة أخـرى أحسـها صادقـة فيهـا! وأكمـل علبـة بيرتـه الثانيـة في هـذه الأثناء.

- حسـنًا، يـا عزيـزتي.. لا أريـد أن أؤخـرك أكـثر.. الخميـس سـوف نلتقـي، ونتعـرف عـلى بعـض أكـثر.

وكانـت تلـك مفاجأتهـا الأخـرى.. إذ ظنـت أنـه بهـذا التمهيـد سـيشرع بتجريدهـا مـن ثيابهـا.. أو سـيقودها إلى غرفـة النـوم.. وإذا بـه يصرفهـا هكـذا.. أخـذت ملابسـها وذهبـت إلى الحمـام تسـتبدلها..

قـام فأوصلهـا إلى البـاب، وعندمـا مـدت يدهـا تصافحـه

قبل يدها.. أرادت أن تختبره فالتصقت به، ولكنها لم تشعر شيئًا يضغطها، أو حتى يمسها.. ولعله انتبه إلى لعبتها.. فأخذها من كتفيها، وألصقها بجسده وقبلها طويلًا في فمها.. ثم أبعدها عنه برقة، ونظر في عينيها قائلًا:

- مع السلامة عزيزتي.

- مع السلامة.

خرجت فأغلق الباب وراءها.. رأت السيارة واقفة متجهة نحو الباب الخارجي.. صعدت واتخذت مقعدها فيها.. ولكن السائق لم يكن هناك..

بعد دقائق جاء السائق من وراء المنزل.. اتخذ مقعده وأدار أغطية الزجاج قبل أن يدير المحرك. نظرت إلى ساعة يدها فوجدتها تشير إلى ما قبل السادسة بدقائق معدودة.. ولكنها كانت تجلس في ظلام حجرتها في السيارة..

وعندما وصلت بيتها كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف، ولم تفهم أي طريق سلك السائق.. ولم تستغرب كيف عرف العنوان.. فقد وقف أمام بابها.. وأنزل أغطية النوافذ أولًا، ثم الزجاجة العازلة وسألها:

- أتأمرينني شيئًا، يا خاتون؟

- لا، شكرًا.

- بخدمتك.

نزلت من السيارة وودعته، فاستدار بالسيارة وانطلق مبتعدًا.

9

كانت الفتاتان في البيت عندما دخلت وحيتهما. قالت لها عاطفة إن طارقًا اتصل، فطلبت منها أن تطلبه لها.

أخبرها أن الزبون اتصل به مباشرة، وأنه طلب منه أن "يريه إمكاناته"، وقال إنهما التقيا في بهو فندق بغداد على بعض زجاجات البيرة.. وإنه هو، أي طارق، أخبر محمدًا بأن بمقدوره أن ينهي الصفقة بثمانمئة وسبعين ألف إلى ثمانمئة وثمانين ألف، «ولكن ما نفعي؟»، فوعده بنصف الفرق الحاصل عن التسعة. هنأته أم حامد على نجاحه وأكدت أنها ستتظاهر أمام محمد بأنها إنما تستجيب لضغطه هو، أي طارق، عندما تنزل عن التسعمائة..

- إذن يا خالة سوف اتصل به حتى ننهي الموضوع بسرعة.. متى تكونين جاهزة؟

- اليوم قبل الغد.

- تتدللين.. سوف اتصل بك لاحقًا.

- مع السلامة.

ووضعت السماعة.

كانت الفتاتان متلهفتين لسماع أخبارها مع طاهر، فقالت إنها ستذهب يوم الخميس لإعطائه المبلغ الآخر ليوصله إلى الآخرين.. وإنه من الأفضل أن ينسين منذ الآن

موضوع المال وإلى من يدفع ومن المستفيد حتى لا يبقى ذلك ينغص عليهن أيامهن فوق ما هن فيه من هم وألم.

- أنظرا يا عزيزتي.. لقد استقبلني في بيت آخر، غير ذلك البيت.. وكان وحده.. وأكّد على دخول الحمام ونزع الملابس مثل المرة الأولى، إلا أنه لم يكن أحد هناك ليفتشني.. وطلب مني كل ما أجيء أن أدخل الحمام وأخلع ملابسي وأبقى بالحمام وأفحص نفسي كأنما يتم تفتيشي من قبل شخص آخر.. لا أعلم هل سيفعل الأمر نفسه لما يطلبكما أم لا.. لكن، على كل حال، إذا لم يقل شيئا مقدمًا فيعني أنه يريد نفس الأمر.. انتبها لذلك.

واتصل طارق مرة أخرى، وأخبرها أنه تواعد مع الزبون في الساعة الثامنة في المكتب، فهل تستطيع الحضور؟ أجابته بالإيجاب. وأبلغها أنه سيطلب محامي العائلة ليكون حاضرًا أيضًا..

بقيت تتحدث قليلًا إلى الفتاتين، ثم قامت وغيرت ملابسها، حيث لبست طقمًا عمليًا وقورًا.. وقادت سيارتها وذهبت إلى المكتب..

أشغلت نفسها بمراجعة بعض الأوراق حتى جاء المحامي أولًا.. وبعده بقليل دخل محمد.. فحيا وجلس.

افتتحت الحديث بالقول:

- أنا كنت مصممة على ألا أنزل قرشًا واحدًا عن التسعمائة ألف.. لكن طارق ألح عليّ.. وأنا أعزّه كثيرًا،

لذلك وافقت.. فلذلك واجب عليك أن ترد له الجميل.. وفوق ذلك لقد أصبح السمسار الآن.. ولن تضطر أن تدفع للسمسار صاحب المحل، فيجب أن تدفع له.

وابتسم طارق في سره.. جعلت له حصة في الدلالية أيضًا؟ إنه معجب بشطارتها وعاجز عن شكرها.. وقال محمد:

- على عيني.. تأمرين خاتون.. لكن لا تنسي.. أنت أيضًا لن تدفعي حق السمسرة.. أنت أيضًا تستفيدين من العمل مباشرة.

- إي أدري.. ومكافأته عندي مضمونة.. نحن حسابنا غير شكل.

ثم التفتت إلى المحامي:

- «أستاذ مجيد.. يبدو أن طارق أعطاك فكرة عن الموضوع.. أرجو أن تكتب العقد حتى يدفع سيد محمد العربون، وتذهب معه عندما يجلب كامل المبلغ حتى تسجلوه.. بشرط أن يدفع حصته من السمسرة زائدًا إكرامية لطارق بحيث يرضى عنها طارق.. سجّل: بستان السيدية لسيد محمد بثمانمائة وتسعين ألف.»، فقاطعها محمد:

- خاتون.. لو كانت المسألة على عشرة آلاف ما كان الأمر يستحق إزعاجك.

أنت أيضًا دبلوماسي يا سيد محمد.. أعرف أنك تاجر بارع، مع أنك لم تستبدل زيك ولم تصر " أفنديًا"،

ولكني لم أكن أتصور أن لحديثك عذوبة حديث الأفندية المهذبين..

- طيب طيب، ثمانمائة وثمانين.

- خاتون.

- لا، لا.. لا تلح.

فتدخل طارق..

- خاتون.. السيد محمد هو أول شخص كان راغبًا بالبستان، منذ فترة يحاول الحصول عليه.. فمن أجل صبره كل هذه المدة.. ولأنني أعطيته وعدًا.. بين السبعمائة والثمانمائة ألف.. فإذا ممكن.

- طارق، المثل يقول: «إذا كان صاحبك حلو لا تلحسه كلّه»، أنا قلت لسيد محمد أنني لن أنزل عن التسعمائة.. ولخاطرك نزلت عشرين ألف.. انتبه، عشرين ألف دينار.. الأمر ليس فلسًا واحدًا أو فلسين.. وهذا يكفي.

وتدخل المحامي:

- خاتون.. إذا تسمحين.. أنا لم اشترك في المساومة حتى الآن، وهذا ليس واجبي.. لكنكما متفقان وأنهيتما كل شي.. من أجل أن يرضى السيد محمد، ومن أجل أن يكون التخفيض الذي حصل عليه السيد طارق مبلغًا ذا شأن، إذا سمحت، أن يكون بين الرقمين اللذين ذكرهما السيد طارق.. حتى يقدر يقول: نزلت ربع.

كانت أم حامد ترمق محمدًا فوجدت نظراته المغروزة في وجه المحامي تشف عن رضا ما، فلم ترد إطالة الموضوع:

- حسنًا.. هذه أيضًا خمسة لخاطرك.. تشوف الخير يا سيد محمد.

- الله يسلمك خاتون.

وبارك لهما المحامي، وطارق أيضًا.

وفيما أخرج المحامي أوراقه من حقيبته استأذن طارق قليلًا وخرج.

قال المحامي:

- لما اتصل بي سيد طارق.. جهزت العقد، ولم يبق شيء غير بعض التفاصيل.. سيد محمد، إذا تسمح أعطني هويتك.

وفيما كان محمد يخرج هويته، ملأ المحامي مكانًا ما في العقد.. ثم تناول هويته فأدرج تفاصيلها في مكان آخر.. وهنا عاد طارق حاملًا بنفسه صينية عليها أربع زجاجات بيبسي وأربع كئوس.. وقال باسمًا:

- للاحتفال! إن شاء الله مبارك للطرفين.

قرأ المحامي العقد.. واقترح أن يكون شاهده طارق، وشخص آخر من طرف محمد.. فاستأذن هذا واتصل بالتلفون بمكتبه.. وطلب من شخص ما يسمى "مجيد" أن يحضر.. وفيما كانوا يشربون كئوسهم سأله المحامي

متى يكون جاهزًا للتسجيل.. ففكر قليلًا ثم حدد السبت القادم.. وسأله كم يدفع مقدمة الآن، فقال إنه كان بوده أن يدفع كثيرًا.. ولكنه لم يجلب ما يكفي.. لذلك فإنه سيدفع الآن مائة ألف فقط. وسيجلب الباقي يوم السبت، فقالت متساهلة:

- لا مانع لدي.. بقدر ما يمكنك ادفع.. فهذه مجرد مسألة شكلية للالتزام بالتعاقد.

وفي هذه الأثناء جاء مجيد فحيا، ووقَّع إلى جانب طارق، ثم طلب المحامي من محمد أن يوقع ففعل، وقدم العقد أخيرًا لأم حامد، التي وقعته وأعادته إليه.. نزع الدبوس عن الأوراق.. ووضع النسخة الأصلية من العقد مع "الكاربون" في حقيبته.. وأعطى الثانية لطارق طالبًا منه أن يصور بضع نسخ عنها، ثم دق الجرس وطلب من سكرتيرته أن تصور أربع نسخ ففعلت وعادت بها إليه سريعًا..

أخرج محمد دفتر صكوكه.. حرر صكًا ووقعه وقدمه لأم حامد، التي أشارت برأسها إلى طارق دون أن تتكلم. فقدمه محمد إليه. تناوله طارق، وأخرج من صندوقه الحديدي دفتر إيصالات ملأ واحدًا، وقعه وختمه، وسلمه له..

تبادلوا التبريكات والتهاني، وانصرف محمد وصاحبه، بعد أن أخذ إحدى نسخ العقد الموقعة، وصورة إضافية..

وبعد قليل نهضت أم حامد.. وقبل أن تنصرف قالت لطارق:

- لا تقبل بأقل من نصف الفرق.. هذا حقك.. ولا تنسَ مكافأتك، فهي من حقك أيضًا.

- لا، طبعًا، طبعًا.. ومع ذلك، سنرى.. شكرًا، يا خاتون.

وانتبهت أم حامد إلى أنه لم ينادها بـ "خالة"، حتى الآن ولم يعد معهما غير المحامي، إنه يحتفظ بهذا النداء للأوقات التي ينفرد بها.. هذا الشاب لبق أيضًا إضافة لبقية حسناته.. لا أظن عاطفة ستمانع من الزواج به، لو ضاقت بها السبل ولم يتقدم لها غيره.. ثم ودعتهما وانصرفت.

هيأت أم حامد كل شيء للقاء الخميس..

رغم أن تصرفات طاهر لم يكن يمكن التنبؤ بها، إلا أن شيئًا ما داخل قلبها، أو ذهنها، كان يقول لها إن الخميس هو اليوم الموعود.. قلبت في ذهنها الاحتمالات وحاولت استرجاع ما تعرف.. ولكنها قررت أخيرًا أن تترك ذلك للظروف.. إنها لا تدري كيف سيبدأ، ومن أين سيبدأ، ولهذا فهي لا تريد التحضير لشيء بينما هي تدري أن المبادرة ليست في يدها.. لتتركه يقوم بإدارة المعركة.. وتعجبت من نفسها.. لماذا تسميها معركة.. ولكن بعد قليل من التأمل وجدتها معركة حقًا.. كلاهما يطلب فيها شيئًا.. هو، ربما كان مراهقًا كبيرًا.. ربما له أحلامه الفنطازية التي تبحث عمن تحققها له.. وربما كان ساديًا يريد أن يخضعها لتجاربه.. لم يسبق أن تعرضت لتجربة مع سادي.. فعسى ألا يكون قاسيًا أو يتوقع أشياء لا تطيقها.. هي أيضًا تريد أن تجرب

مازوخيتها في بعض الأحيان، ولا تدري إن كانت ستوفر لها لذة لم تجربها.. وإذا كان متجاوبًا، فستجرب عليه بعض من ساديتها.. لترى إن كانت تلذ له، أو لها..

وقبيل الموعد فكرت طويلًا في ما سترتدي، وقررت أخيرًا أن ترتدي ملابسها التي ذهبت فيها آخر مرة.. لتبدو طبيعية لا تريد أن تؤثر عليه بملابسها.. لكي لا تشعره بغناها.. ولأنها كانت تحب ذلك الثوب حقًا.. وهي تدري أن الأسود للملابس الداخلية مثير تمامًا.. وإضافة إلى ذلك فهو يناسبها أكثر من أي لون آخر..

في الوقت المحدد كانت تقف أمام المبنى، تحمل المال في حقيبة يد خفيفة أخذتها في آخر سفرة لها من شركة BOAC.. وكانت هي تقف هناك تتساءل: ترى هل يتصور أحد أنها تحمل خمسين ألف دينار نقدًا وعدًا في هذه الحقيبة؟

جاءت السيارة، فصعدت وحيّت السائق، الذي غمغم مجيبًا، وسرعان ما أقام بينه وبينها الحجاب.. ما أن تحركت السيارة حتى تغطت الزجاجات مرة أخرى.. نظرت إلى ساعتها لتعرف كم تستغرق السفرة هذه المرة.. وعندما وصلت نظرت إليها مرة أخرى، فألفت المدة عشرين دقيقة مرة أخرى! إذن فالسائق يناور ليضيع عليها المسافات.. ليكن.. انزاحت الستائر مرة أخرى، البيت هو البيت نفسه فاعتبرت ذلك إيذانًا لها بالنزول.. سلمت الحقيبة للسائق ونزلت.. ونزل معها فدق لها الجرس، وتركها..

صعد السيارة مرة أخرى، وفيما دخلت وأغلقت الباب وراءها ألقت نظرة على الباحة فوجدته يتراجع بالسيارة إلى الخارج.. هل سيذهب في مهمة يا ترى أم يعود بالسيارة ليجعل مقدمتها إلى أمام فقط؟

دخلت حجرة الحمام، حيث خلعت كل ملابسها ثم دخلت الحمام.. رفعت ذراعيها وحكت تحت إبطيها.. أنزلتهما إلى ردفيها، مسحت عليهما، مدت يدًا بينهما.. استدارت، ومسحت على بطنها، ثم أنزلت يدها إلى أسفل.. مسحت على مثلثها، فرجته بأحد أصابعها.. وأحست بالحاجة إلى التبول.. فجلست وتبولت واغتسلت.. مسحت جسدها جيدًا بالمنشفة.. وعندما أرادت أن تمسح داخلها ترددت قليلًا.. خشيت أن تستعمل المنشفة لئلا يكون أحدهم استعملها قبلها.. ولم تكن تريد أن تستعمل ورق التنظيف مخافة أن يتفتت وتبقى آثاره.. «إذا ما شرعنا اليوم قد يتصورها إفرازاتي».. أخرجت منديلًا من حقيبتها، ومسحت الشفتين الداخليتين بعناية، ونشفت بظرها.. أخذت وقتها فاستعملت السيشوار للتجفيف أيضًا.. وعندما تأكدت من جفافها.. خرجت فوجدت ملابسها ذاتها هناك.. هل أحب الملابس؟ أم اطمأن إليها؟.

ارتدت ملابسها وخرجت إلى الصالة لتجد مفاجأته الجميلة لها..

كان على الطاولة الوسطية الكبيرة تل من الروز الأحمر.. تحيط به زجاجة جن وزجاجة زنزانو أبيض.. وإلى جانب دلو

الثلج تستقر زجاجتا صودا وزجاجتا ماء تونيك.. وصحنان وجدت في أحدهما قطع ليمون حامض وفي الآخر قطع البرتقال.. أما الطاولتان الصغيرتان فكانتا معبأتين بالفواكه والموالح..

دخل عليها من الباب نفسه الذي أطل منه في المرة الأولى.. وجدته في كامل ملابسه إلا أنه استعاض عن ربطة العنق بأن لبس قميصًا عريض القبة، وقلب قبته إلى ما فوق قبة الجاكتة..

عندما همت بالنهوض لتحيته ضغط برقة على كتفها فسمّرها إلى مقعدها، وانحنى عليها فقبل خدها.. شكرته على الورد، فاعتذر لأنه لم يجد الرازقي وإلا لكان قدمه لها أيضًا.. وأضاف:

- اعذريني لأني لم أجهز الكوكتيل.. لا أعرف كيف تحبينه.. لذلك أنت قومي بذلك.. وأنا مستعد أن أشرب كل شيء من يدك، لأني متأكد سأحبه أيضًا.. على كل حال إذا لم يعجبني يمكنني أن أعود لشربي الاعتيادي.. جن بالتونيك.. لكن جهزي الكوكتيل، وإذا لم تكن فيه أسرار خبريني عن المقادير حتى أحضره لك في المرة القادمة..

- لا، ليس فيه أسرار.. ولكن لذته تكمن في إعداده وقت الشرب، وأنا أحب أن أجهزه بيدي..

ونهضت لتعد الكوكتيل، فقام معها.. وتذكرت شيئًا فالتفتت إليه قائلة:

- سلّمت المال للسائق، هل..

فوضع أصبعًا على فمها، وقال:

- صه.. قلت لك اتركي كلام المال.. وأضيف: لا تفكري بالسائق ولا تشكّي به.. إنه مثل أبي.. اعتبريه أنا نفسي.

أظنه أنت نفسك.

صبت ثلاثة أقداح قياس من الجن في كأس الخلط، وأردفتها بقدح ونصف من الزنزانو.. وراحت تخلطهما بقشة الخلط الذهبية.. وسألت:

- تونيك أم صودا؟

فأجابها:

- هي خلطتك.. وقد قلت لك، إذا لم يعجبني أعود إلى شربي الاعتيادي.

- إذن أعطني الصودا رجاء..

وصبت قدحًا من ماء الصودا على الخليط.. ملأت لهما كأسين، تاركة مكانًا للثلج.. وبحثت في الدلو عن شظايا الثلج، فوضعت قليلًا منها في كأس، ثم نظرت إليه:

- مكعبات أم شظايا؟

- مثلك.

فأضافت شظايا الثلج إلى الكأس الأخرى. ثم وضعت في الكأسين شريحتي لايم..

- تفضل اجلس!

ذهب ليجلس على الأريكة المزدوجة التي كانت تجلس عليها.. ووجدت في ذلك دعوة منه لتشاركه فيها.. حملت الكأسين واتجهت نحوه.. سلمته واحدة واحتفظت بالأخرى لنفسها.. وجلست إلى جانبه.. وبمجرد أن جلست رفع كأسه إلى شفتيه وهو يقول:

- بصحتك.. ولهذا اللقاء.

- بسلامتك.. ولنجاح هذا اللقاء.

وقبل أن يشرب لثم جبهتها.. فقبلت خده بحرارة.. قالت:

- اكتشفت الجن بإنجلترا.. لكن هذا الكوكتيل علمني إياه شخص هندي.. سيخي.

- سيخي؟ بعمامة ولحية وكل التجهيزات؟

- إي نعم.

- السيخ أيضًا. يغرمون؟ أم كانت علاقة بريئة؟

- هي بريئة في الأصل.. لكنها أوصلتنا للسرير.. والحقيقة لم تكن تجربتنا طيبة.. أصبت بالقرف من رائحة الزيت الذي يستخدمه لشعره.. فلم أرجع إلى فراشه، لكننا بقينا أصدقاء.

- إذا كنت لا تحبين أن تتحدثي عن تجربتك معه، فاتركيه.

ولكنها دعوة للحديث:

- لا.. لا يوجد فيها ما يستحق التستر.. كان رجلًا عاديًا.. اهتم كثيرا بأن يمتعني وكان صبورًا حتى أستمتع كما يستمتع هو.. لكن صبره هذا أربك الأمر أكثر، لأنه أهدر الكثير من الوقت حتى أدركت أنني لم أعد قادرة على تحمل رائحته.. لما أراد موعدًا ثانيًا اعتذرت، وظل بعدها محتارًا لفترة لماذا تركته فجأة.. ربما تصورني امرأة لعوبًا تبحث عن أكبر عدد من الرجال وما تسلم إلا مرة واحدة لكل شخص.. وأنا أيضًا لم أقل شيئًا يصحح عنده هذه الفكرة.. وطبعًا لم يمكني أن أتكلم عن رائحته.. لأن الأمر حتمًا يتعلق بطقوس ومعتقدات.

عندما شرب نصف كأسه، قال:

- عاشت يدك.. هذا لذيذ حقًا.

- صحتين وبالهنا.

- واحد جن، نصف زنزانو وثلث صودا.. صحيح؟

- صحيح.. تلميذ نبيه..

وضحكا. احتضنها فقبلها في فمها.. قبلة خفيفة سريعة.. لم يكن يريد تعجل الأمور.. ولم يكن يريد أن يحبها ويعتبرها أمرًا مسلّمًا.. ولاحظ أن خديها توردا.. وأن شفتيها كانتا ترتجفان..

أكمل شرب كأسه فاستعجلت لتفرغ كأسها هي أيضًا.. وحملت الكأسين ونهضت لتعيد ملأهما.. وعندما عادت

بهما استأذنها فذهب إلى الغرفة وترك بابها مفتوحًا فوجدت أنها غرفة نوم.. لفت نظرها أن فيها بابًا آخر.. خلع جاكتته، وعلقها داخل خزانة الملابس.. وعاد إليها.. قائلًا شبه معتذر:

- «ليس بسبب الحرارة.. فالجو هنا لطيف.. ولكني أشعر بأن الجاكتة ثقيلة، وتضع حاجزًا بيننا».. وابتسم:

- لا.. الجو فعلًا لطيف.. خذ راحتك.

غيرت جلستها قليلًا وهي تتناول كأسها، بحيث أمكنها أن تريح جزءًا من ظهرها على جزء من صدره.. ورشفت قليلًا من كأسها.. ولكي تتغلب على الصمت الذي خيم قليلًا قالت:

- لم تخبرني عن نفسك كثيرًا.. أين اشتغلت قبل هذا.. منذ متى وأنت في هذه المحكمة.. كيف تقضي أوقاتك؟.

مد يده اليمنى فاحتضنها، وأبقى يده تحت نهديها تمامًا.. فاقتربت منه أكثر لتترك ليده حرية التصرف إن كان يريد أن يفعل بها شيئًا آخر.. ولتتخلص أيضًا من ضغطها الذي كان يبدو شديدًا على أعلى بطنها.. تزحزح عن مجلسه قليلًا وغرز أصابع يده اليسرى في شعرها. قال:

- اشتغلت مدة كاتبًا أول وبعدها حاكم بداءة في ديالى.. ثم انتقلت إلى بغداد.. وصار لي أقل من ثلاث سنوات أعمل كحاكم جزاء.

فيما كانت يسراه تعبث بشعرها.. تحررت يمناه فراحت تمسد بطنها، وارتفعت قليلًا لتلامس النهد مرة وأخاه أخرى.. وفيما كان يتحدث حديثًا يوميًا مألوفًا لا حب فيه ولا غزل.. وجدت ذلك مثيرًا جدًا.. أم أن ذلك بفعل عمل يديه؟

- عملنا صعب، حتمًا تعرفين ذلك.

وفجأة اعتدل في جلسته، فابتعدت قليلًا والتفتت إليه مستفسرة.. وجدته ينهض وقد مد لها يده.. تصورته سيأخذها إلى الفراش فانزعجت من هذه المعاملة.. ولكنه وقف، وأوقفها أمامه، قبلها في فمها قبلة عميقة راحت تخف شيئًا فشيئًا عندما بدأ لسانه يحاول شق طريقه إلى فمها.. فغرت فمها قليلًا فراح يمر لسانه على أسنانها، ثم داخل شفتيها، فضيقتهما عليه قليلًا.. وأحست به يرتجف بين يديها.. وسجل ذهنها نقطة من نقط الإثارة التي استدلت عليها..

أبعدها عنه قليلًا، ولامس ذيل ثوبها بكلتا يديه ناظرًا إلى عينيها.. لم تكن تدري ما يريد بالضبط، فمدت يديها إلى ذيل ثوبها هي الأخرى، ورفعته قليلًا، ولكنه رفعه إلى أعلى حتى منعته تكويرة ردفيها، فساعدته كي يعبر التكويرة، ولبثت تنتظر خطوته التالية، وسمعته يهمس، وهو يواصل رفعه إلى أعلى:

- «أتسمحين؟». فضحكت في سرها.. هل يصح الاستئذان

في أمثال هذه المواقف؟ وعندما تلكأ الثوب مرة أخرى عند صدرها تدخلت ثانية فرفعته وانتظرت.. فنضاه عنها بحركة واحدة..

نظر إليها وهي في مشد الصدر والسروال الداخلي الأسودين.. كانت اللهفة بادية عليه.. ولكنه كان صبورًا متماسكًا أيضًا.. انحنى قليلًا.. ثم بدل رأيه فركع.. ورفع رأسه قليلًا ليقبل بطنها، وتلكأ عند سرتها التي داعبها بلسانه أيضًا.. كانت تلك حركة أعجبتها منه، وربما أثارتها المباغتة فيها أكثر منها هي بالذات فضغطت يديها على رأسه كي يبقى مكانه.. ولكنه انسحب بالتدريج ونهض، وأخذ يدها مرة أخرى فجلس، وأجلسها على ركبتيه هذه المرة..

- ما أقوله ليس للمجاملة أو للتودد.. لكن جسمك جميل جدًا.. رائع.

- شكرًا.

- «لا.. حقيقة..»، وفيما أسندت يده اليمنى ظهرها هذه المرة وجدت يسراه جرأة أكثر في التسلل إلى النهدين، حيث انصرفت تمامًا إلى مداعبتهما من وراء المشد.. وقليلًا قليلًا كان أحد أصابعه يمتد إلى الساقية بينهما.. في حين راحت يدها تفك أزرار قميصه، ثم تهاجم خلوة صدره لتعجن الشعر باللحم.. أحست يده اليمنى تفك مشبك المشد، فارتفعت يدها إلى عنقه.. رفع المشد إلى أعلى فظهر نهداها من تحته ممتلئين منتصبين.. ومد يده فرفع أحد شريطي

المشد إلى ما فوق رأسها، ثم عاد إلى الثاني.. وبحركة مبتسرة خلع المشد تمامًا.. نظر إليه قليلًا.. وفي عينيه نظرة محبة.. كوّره في يده اليسرى الطليقة ووضعه على وجهه، ثم دفن أنفه فيه.. استنشق وقال:

- «لذيذة.. محبوبة». فضحكت شفتاها وعيناها.

أبعدها قليلًا وغير جلسته بحيث صار بمقدوره، بعد أن تملى صدرها طويلًا، أن يمسك نهدها الأيمن بيده اليسرى، وسحبه إليه مرة أخرى وفرش شفتيه على نهدها الأيسر.. وجال بلسانه فوقه، وفجأة احتواه بشفتيه بسرعة خشيت معها أن يقضمه أو يبتلعه..

وعندما تحرك تحتها قليلًا نظرت إليه فتناول يدها.. نهضت فزحفت إلى الطرف الآخر من الأريكة.. وضع المشد برفق إلى جانبه، وسحبها مرة أخرى إليه، وأجلسها بحيث صارت يده اليسرى وراء ظهرها هذه المرة.. وامتدت يمناه إلى نهدها الأيسر فداعبته قليلًا، وسحبها إليه ليفعل واحدة أخرى من أعاجيب فمه لهذا النهد..

مد يده من وراء ظهرها فتناول كأسًا قدمها لها، ثم أخذ كأسه.. وأفرغا كأسيهما وهما على هذا الوضع.. أخذت كأسه ونهضت.. وجددت الكأسين وعادت، فناولته كأسه التي أخذها ووضعها على الطاولة، ثم أخذ كأسها أيضًا ووضعها إلى جانبها.. وقفت أمامه تنتظر ما يريد أن يفعل، شدها إليه ودفن وجهه في بطنها.. ثم أحست كلتا يديه، اللتين

كانتا تمسدان ردفيها من وراء السروال الداخلي تصعدان قليلًا لتدخلا وتبدآن المداعبات على لحم الردفين مباشرة. أحست أن فمه ينفرج قليلًا، ثم شعرت بأسنانه وشفتيه تشد زغبها.. فشهقت.. وسجل هو في ذهنه هذه المرة نقطة لشهوتها.. بقي يرعى هناك حتى انبهر.

***

جلس إلى جانبها، فانثنت على جانب مرة أخرى، وبقيا يثرثران فترة.. ولما أحست أنه انتهى منها - إلى متى؟- أرادت أن تختبر الموقف فحملت قطع ثيابها واتجهت إلى الحمام، فقام وقبلها في شفتيها، ثم أطلقها واتجه إلى غرفته.

عادت إلى الصالة كاسيةً، فوجدته يلبس قميصًا وبنطلونًا، وقد أعد من الورد باقة كبيرة.. قدمها لها..

- مع شكري ومحبتي، يا نهى.

وتعجبت من معرفته اسمها، فهي لم تذكره له، وهو لم يسألها عنه، ولكنها انتبهت إلى أن تعجبها يبدو أحمق، فلم تقل شيئًا. شكرته، فرافقها إلى الباب.. ومضت إلى السيارة حيث جلست تنتظر مرة أخرى..

وبعد قليل جاء السائق من خلف المنزل، فصعد إلى السيارة محييًا. وما أن استقر في مقعده حتى نزل الحجاب بينهما، وارتفعت الستائر على زجاج السيارة، وانطلق إلى منزلها.

10

تمنت أن تكون الفتاتان خارج المنزل لتأخذ حمامًا ساخنًا يزيل عنها تعب معركتها الجديدة، ولتتأمل وقائعها فتستنتج ما ينفعها وينفع البنتين. ولكنهما كانتا هناك، ما أن أغلقت الباب بعد دخولهما حتى رأتهما تنزلان السلالم وتحييانها وفي عينيهما ألف سؤال.. تجاهلت أسئلتهما التي لم تنطقا بها لتسأل:

- «هل عندنا عشاء؟»، فذهبتا إلى المطبخ دون كلام، وعادتا ببعض الصحون. بقيت سلوى لتعد المائدة، فيما عادت عاطفة لتجلب ما أعدتاه. وعلى مائدة العشاء بدأت الحديث:

- أريدكما أن تنتبها إلى بعض الأمور.. أعطيت كيس النقود للسائق، فأخذه بدون أن يفتحه.. وعندما قلت لطاهر إني أعطيتها للسائق وسألته هل استلمها لم يجبني، بل قال إن السائق مثل أبوه، أو إنه هو نفسه.. فانتبهوا.. قد يكون السائق طاهر نفسه، لكنه لا يريد أن يشاهد مع أحد في الطريق.. فلا تحاولا أن تحققا في هذا الموضوع أو تجعلاه يشعر أنكما تهتمان به.. ثانيًا: لم يتكلم عن القضية أصلًا، فتصورت أنه يريدني أن أسأل.. فسألت.. لم يجبني، وقال لي: «كل شيء سيسير على مرادكن.. أرجوك لا تسألي».. ثالثًا: إن الرجل لطيف ومجامل ومؤدب..

فضحكت عاطفة وقالت:

- «هـذا لا ينـبئ بخـير.. لـو كان عديـم الأدب معـك لـكان أفضـل.. رأيناك تحملين باقـة ورد فقلنـا إنـه أعجـب بـك و..»، وسـكتت لتضفـي عـلى كلامهـا مغـزى.. ولمـا وجـدت أمهـا سـاكتة واصلـت:

- رجاء لا تقولي إنك معجبة به.

تظاهرت أمها بالجد:

- قلـت إنـه مـؤدب ومجامـل ولطيـف.. هـذا قدرنـا ولـم يعـد بإمكانكمـا التراجـع بعـد موافقتكمـا السـابقة، لأنـه سـيسيء تفسـيره.. أظنـه سـوف يطلبكمـا في الأيـام المقبلـة.. ومثـل مـا قلـت لكمـا لا تحققـا عـن السـائق، ولا تسـألاه عـن القضيـة.. ثـم هنـاك مسـألة مهمـة.. الظاهـر أنـه وحـده بالبيـت.. لكـن الحمـام والتفتيـش كمـا السـابق.. يعـني تخلعـان ملابسـكما في المـنزع وتدخـلان الحمـام وتفحصان نفسـيكما بعناية.. الشـعر، تحـت الإبـط، فتحـات الجسـم.. وربمـا يكـون قـد نصـب كامـيرا في الحمـام.. قـد تكـون مـرآة الحمـام ذات وجهـين يـأتي هـو ويتفـرج عليكمـا مـن المـنزع.. لسـت متأكـدة.. والبـاقي يعـود إلى شـطارتكما.

***

في السـاعة الثامنـة صباحًـا رن الهاتـف في منزلهـا فأيقظهـا مـن النـوم.. رفعـت السـماعة وأجابـت عليـه وهـي في الفراش..

كان هو.. بعد تبادل التحيات والسؤال عن الصحة قال:

- أكيد كنت نائمة، فاعتذر عن الإزعاج.. لكن أردت أن تأتي الفتاتان اليوم الساعة العاشرة صباحًا.. عند مدخل سينما أطلس.. فقلت لنفسي أتصل مبكرًا حتى يكون لديهما وقت لتستعدا للمجيء"..

- حسنًا.. سأبلّغهما الآن.. وسوف تكونان في الموعد حسب المطلوب.

- شكرًا. مع السلامة.

هكذا، كأنْ لم يكن بينهما شيء. هل نسيها؟ أم يريد أن يشعرها بأنها قدمت له ما كان ينبغي أن تقدمه؟ أم أنه كان يتوقع أن تسمع الفتاتان الاتصال فلم يخرج عن موضوعه الأصلي؟

***

ذهبت إلى غرفة نوم ابنتها، حيث تنام معها سلوى الآن.. ولم تجد صعوبة في إيقاظ الفتاتين من نومهما، كونهما نامتا مبكرًا في الليلة الماضية.. أخبرتهما بالموعد.. ورأت ما يشبه الذهول على وجهيهما.. بل إن لون سلوى قد شحب.. أحستا أن هذا أوان الجد، فراحتا تحسبان ألف حساب للساعات القادمة.. دفعتهما للحمام وهي تطيب خاطرهما، وتشجعهما، مذكرة إياهما بأن تنسيا كل شيء عدا سلامة حامد..

لـم تسـتطع الفتاتـان أكل شيء عـلى الإفطـار، بـل اكتفتـا بـشرب فنجـان حليـب بالـكاكاو.. وقبـل العـاشرة بربـع سـاعة كانـت سـيارة الأجـرة عنـد البـاب، واسـتعدت الفتاتـان وودعتـا الأم، الـتي عانقتهمـا واحـدة بعـد الأخـرى مشـجعة، وخرجتـا..

قبيـل الموعـد كانتـا عنـد بـاب السـينما.. وقفتـا في مقـدم الرصيـف تنتظـران.. وخـلال ثـوان وصلـت السـيارة تتهـادى.. صعدتـا، حيتـا السـائق، ومـا أن رد التحيـة حـتى بـدأت الزجاجـة المعتمـة تفصلـه عنهمـا صاعـدة مـن كتفيـه إلى عنقـه حـتى أخفـت رأسـه فالفـراغ فوقـه. دخـل زقاقًـا فرعيًـا وجـده خاليًـا فرفـع سـتائر الزجـاج حـتى صارتـا في عتمـة شـبه تامـة، وفي عزلـة عـن الدنيـا داخـل قفصهمـا.. ولمـا اسـتدارت السـيارة مـرة أخـرى، ثـم اسـتقر اتجاههـا، ضـاع تميـز عاطفـة الـتي كانـت تريـد أن تتـذاكى لمعرفـة الاتجـاه، فالمـكان التقريـبي للبيـت. توقفـت السـيارة مرتـين أو ثلاثًـا، أكان ذلـك في تقاطعـات طـرق، أو توقفـات بـلا معـنى لمواصلـة التضليـل؟ إلى أن اسـتقرت في توقفهـا.. حيـث بـدأ يغمرهمـا النـور رويـدًا رويـدًا..

نـزل السـائق وفتـح البـاب الخلفـي مـن جهتـه فنزلـت عاطفـة، فيمـا نزلـت سـلوى مـن البـاب الآخـر والتحقـت بهمـا. تقدمهمـا فـدق مـا حسـبتاه جرسًـا ورأتـا البـاب ينفتـح، أشـار لهمـا بيـده أن تدخـلا، وقـال:

- «على اليمين رجاء». وعاد يركب السيارة.

حينمـا اسـتدارتا إلى يمينهمـا في المدخـل وجدتـا بابًـا ولجتـاه

فإذا حجرة خالية، فيها فتحة تهوية في أعلى ركنها الأيمن.. وأمامهما رأتا مشجبًا لتعليق الملابس لم يكن عليه إلا منشفتان كبيرتان واثنتان صغيرتان.. وعلى يسارهما رأتا جدارًا تعلوه ستارة تمتد من السقف إلى قرب الأرض تمتد بعرض نحو مترين فتنتهيان عند باب عرفتا أنه الحمام.

خلعتا ملابسهما بأناة ودخلتا الحمام، واقترحت عاطفة أن "تفتش" إحداهما الأخرى ما دامتا معًا، وفعلتا، فيما كانت عيونهما تحرثان الجدران والزوايا بحثًا عن آلات تصوير.. لقد شاهدتا في أعلى المرآة الكبيرة، خلف إطار زجاجي عريض، نقطتين أو ثلاثًا معتمة، لا شك أنها هي هذه.. ولم يكن يبدو على المرأة شيء غير طبيعي.. قضتا أكثر من عشر دقائق تلهيان ثم خرجتا إلى حجرة المنزع. أزاحت عاطفة الستار عن الحائط جنب باب الحمام فلم تجد إلا مرآة.. وتلفتت حولها تفحص الجدران فوجدت في أعلى الجدار المقابل نقطتين سوداوين قدرت أنهما آلتا تصوير أخريان..

اتجهتا إلى مشجب الملابس فلم تجدا غير منشفتين وبرنصين.. لما تكونا استحمتا ولم يتبلل منهما شيء، فلن تستفيدا من المنشفتين.. لبست كل منهما برنصًا، عاطفة: متظاهرة بعدم الاهتمام، وسلوى مضطربة بحيث شحب لونها وبلغ ارتجاف يديها حدًا منعها من عقد حزام البرنص حول وسطها، فساعدتها عاطفة في ذلك.. ثم خرجتا إلى الصالون، فجلستا متقاربتين على أريكة واحدة.. ثم

أعادت عاطفة تدير الموقف فزحفت مبتعدة حتى صارت كل منهما في جانب.

تلفتتا حولهما فوجدتا على منضدة طعام عن يسارهما زجاجات شراب مختلفة ودلو ثلج وثلاث حافظات سخونة، اثنتان منهما مزدوجتان.. وصحن فواكه كبيرًا وآخر يحوي موالح.. وعددًا من الصحون الصغيرة مرتبة واحدًا فوق الآخر.. ووراءهما تنتصب آلة عرض سينمائي صغيرة..

بعد دقائق دخل عليهما طاهر محييًا، أرادتا القيام لاستقباله، أو أنهما تظاهرتا بذلك في الأقل، إلا أنه أسرع يمنعهما، وجلس على أريكة مفردة على يمينهما:

- أهلًا وسهلًا.. شرفتونا.. أهلًا وسهلًا.. اعتبرا نفسيكما في بيتكما.

ثم نهض، وجاءهما بصحون صغيرة وسكاكين، فأخذت كل واحدة طبقًا وسكينًا، ثم جلب صحن الفواكه، فانتقت كل واحدة تفاحة، ثم شكرته. واكتفى هو بقليل من المكسرات، جاء بها فوضعها أمامه.

- قد يكون الوقت مبكرًا لتناول المشروبات، ولكن على كل حال، فهي موجودة لدي.. إذا أعجبكما الآن.. وطبعًا هناك بيرة بالثلاجة.. والمشروبات الحارة هنا: شاي.. قهوة.. كاكاو وحليب.. وأرجو المعذرة عن كل تقصير.. فأنا من هيأ كل شيء.. وما من امرأة في البيت لتجهز شيء..

وضحك.

رغم مجاملاته الزائدة، والتي كانت تبدو طبيعية، إلا أنهما بقيتا متوترتين، وكان التوتر باديًا عليهما فكان يلتذ به، إلا أنه كان - مع ذلك- يسعى لإزالته:

- ماما قالت أنكما من تطوعتما.. فالمفروض ألا تشعرا بالغربة والاضطراب.. طبيعي أن هذا أول لقاء بيننا لوحدنا، وأن وجود اضطراب شيء طبيعي.. لكن - كما أظن- أن هذا ليس أول لقاء لكما مع رجل على انفراد.. وخصوصًا أنت يا عاطفة.. عليك أن تشجعي سلوى، ولكن إن كان اضطرابك كبيرًا.. أنا لا آكل الفتيات.. ولا تخافي مني.

لنصرف النظر عن معلومات مكتب خدمة الحقيقة"، فإن أمك قدمتك على أنك صاحبة خبرة ربما تكون أطاحت ببكارتك، وعليه يا ابنة نهى لا تتظاهري بالخجل، قومي العبي ونفذي ما ينتظر منك.

قالت عاطفة:

- أنا بالخدمة.. تحت أمرك..

- أنا لا أريد أي خدمة، ولا عندي أوامر.. شوفي.. ما زلت تفكرين بصيغة الأمر والتنفيذ، بينما أنا أريد لقاءً وديا.. لقاء أصدقاء.. خصوصًا وأننا متقاربون في العمر.. لكن يبدو أنكما لا تعتبراني صديقًا..

فقالت كلتاهما بحماسة وتداخل صوتاهما:

- العفو.. العفو، أستاذ.. بالعكس.

فقال:

- وهـذي الـ "أستاذ" أيضًـا.. أنـا اسـمي طاهـر.. أظـن أنـه مـن الأفضـل أن تشربـا قليـلًا.. حـتى يـزول التوتـر وتشـعرا براحـة أكـبر.. نبيـذ أم بـيرة؟.

كان أمرًا أكثر منه سؤال. فقالت عاطفة:

- نبيذ.. أحمر لو سمحت..

واستدار إلى سلوى متسائلًا..

- والله أنا لم أشرب غير البيرة في ما مضى.. لا أدري.

فقالت عاطفة:

- جربي النبيذ اليوم.. لن تشعري بالندم.

نهـض طاهـر وجلـب زجاجـة نبيـذ أحمـر.. وضعهـا عـلى الطاولـة الوسـطية الكبـيرة، ثـم عـاد فجلـب ثـلاث كئـوس. جلـس وملأهـا. رفـع كأسـه قائـلًا:

- بصحتكما.

فرفعتا كأسيهما، وتمتمتا:

- بصحتك.

قـرب الـكأس مـن فمـه وراح يراقبهمـا وهمـا تنهـلان مـن كأسـيهما.. شربـت كل منهمـا نحـو نصـف كأسـها قبـل أن يرشـف قليـلًا مـن كأسـه.. وضعتـا كأسـيهما عـلى الطاولـة الصغـيرة، ولكنـه احتفـظ بكأسـه في يـده:

- حسنًا.. احكي لنا يا سلوى عن تجاربك.

ورفع كأسه مشيرًا لهما، فرفعتا كأسيهما وعبّتا الباقي، فأسرع يملأ كأسيهما مرة أخرى. وشرعت سلوى تتحدث بارتباك.. كانت كل علاقاتها قبل حامد، وهي قليلة، سطحية.. علاقات بريئة مع شباب الأسر الصديقة التي تتزاور مع عائلتها.. ملامسات خجولة بالأيدي.. ضمّ أشد من الاعتيادي أثناء رقصة.. وواحد كان جريئًا خطف منها قبلة في إحدى الحفلات:

- شعرت بطعم غريب.. كنت خائفة فأردت أن أغسل شفاهي.. لكن خفت يزول طعمها.. فلم أغسل فمي ولا حتى أسناني ذاك اليوم.. ولكنه زال.. صار من التاريخ.. إلى أن جاء حامد.. ومع حامد طبعًا لأن العلاقة جدية، وهو لطيف، فعلنا أمورًا أكثر.

- هو سؤالي عن الأمور الأكثر.. لا تتكلمي بشكل مختصر.. لأن هذا مختصر غير مفيد.

وضحك، فضحكت معه عاطفة وابتسمت سلوى نصف خجلى نصف مرتبكة. رفعت عاطفة كأسها وأشارت إلى سلوى أن ترفع كأسها، ثم قالت:

- بصحة حامد.

فرفع طاهر أيضًا كأسه ليشاركهما، كي يبث فيهما الأمل. وشربت سلوى أكثر من نصف كأسها في رشفة واحدة طويلة بطيئة :

- مع حامد، صارت القبلات بسيطة وعادية.. نتبادلها عند الخروج معًا.. قبل الخروج من البيت وعند العودة.. وصارت بطيئة وطويلة، وليست خاطفة.. ومعها كان يضمّني.. لكن في الحقيقة أنا أخجل أن أضمه.. ولما نجلس معا في السينما كان يمسك يدي من أول الفيلم لآخره.. وبين وقت وآخر يضع يده على ظهري أو كتفي.. يلاعب بظاهر يده خدّي، وخلف أذني.. وإذا وجد فرصة يمد يده بصدري.

واحمرت مرة أخرى. فضحكت عاطفة، واقتربت منها وفتحت صدر برنصها: «يعني يلعب بهذا؟»، وطوقت نهدها الأيمن، ثم أشارت إلى الأيسر قائلة:

- أم هذا؟

فقالت سلوى بجد:

- أول مرة لم أعرفت لماذا، لكنني لاحظت أنه مرة يجلس إلى يميني، ومرة إلى يساري في القسم المخصص للعوائل.. وفهمت لاحقًا، إنه في كل مرة يريد مداعبة نهد.. ولاحظت أنه بعد ما ذهبنا إلى عدة دور للسينما مع أبي وأمي، أو معك ومع أمك.. صار يفضّل سينما النصر.. ثم انتبهت إلى أن الكراسي الخلفية في المقصورة متقاربة.. لكن لما نذهب نحن الاثنان فقط لا يهمّه إلى أي سينما، لأننا نحجز المقصورة لأنفسنا، ونجلس على الكراسي الخلفية.

وخفضت رأسها. كان طاهر يبتسم ابتسامة من لا يصدق وهو يستمع، أما عاطفة فكانت تعتبر الحديث كله مزحة

كبيرة:

- يعني باستثناء لعب الأطفال هذا لم تفعلا شيئًا آخر؟

- لا.. مثل ماذا؟

فقامت عاطفة، ومدت لها يده فأوقفتها. انحنت على صدرها قليلًا، وفجأة أخذت نهدها بفمها فاخفت نحو ثلثه في فمها، وقالت:

- مثل هذا مثلًا.

فقالت سلوى راجفة:

- لا.

فخففت الضغط عليها.. وانتقلت بشفتيها إلى الثاني وراحت تداعب حلمته بلسانها:

- أو مثل هذا.

فقالت سلوى وقد جف حلقها:

- لا.

فاكتفت عاطفة بتقبيل هذا النهد مرة وذاك أخرى:

- إذن، هكذا فقط؟

فقالت سلوى محتارة تمامًا مما وشى بصدقها:

- لا.

فهزت عاطفة رأسها كالمتأسفة:

- مسكينة.

اتسعت ابتسامة طاهر. عادت عاطفة إلى مقعدها، فسوّت سلوى برنصها وجلست هي الأخرى. رفعت عاطفة كأسها، وأشارت إلى سلوى التي رفعت كأسها هي أيضًا، فرفع طاهر كأسه أيضًا وشربوا جميعًا في صمت حتى فرغت كئوسهم.. جدد طاهر ملء الكئوس، وهو يسأل عاطفة:

- وأنت؟.

فقالت:

- أنا عملت هذه الأمور التي فعلتها الآن مع سلوى.. ولعبت أكثر بقليل مع صديقاتي.. في البداية أمورًا بسيطة طبعًا، لكن بعدها، لما شاهدت أفلامًا. خاصة.. قمت أتعمق أكثر.. إذا تحب تتفرج.. سأقدم وسلوى عرضًا خاصًا لك.. لكن من أجل أن نطابق الحقيقة يجب أن نرتدي.

كان حريًا أن يعجبه استعدادها، ولكنه لاحظ التوتر في حركاتها أكثر مما هو في صوتها.. كانت تريد أن تخدم حقًا، أن تقدم شيئًا.. ولكنه يدري أنها في سريرتها، في عمق أعماقها، لا تني عن مسبّته.. كان عجيبًا في نظره لا تشعر بحقد شديد نحوه، ولكنه كان يكبر فيها قدرتها على التمثيل.. وكان ذلك يدفعه إلى التنبه واليقظة. مد يده نحوها فمدت يدها، تلامست الأيدي.. سحبها إلى حيث كان يجلس، أجلسها في حضنه، قبلها طويلًا في فمها.. وأدخل يده في صدر برنصها وهصر أحد ثدييها وهو يفعل.. نظر إلى سلوى، فوجد على

فمها ابتسامة خرقاء، وسرعان ما أشاحت بوجهها، فتوقف وتوجه إليها قائلًا:

- نحن نقدم عرضًا لك، ويمكنك أن تتفرجي..

وضحكت عاطفة، فاستوت سلوى في جلستها بحيث صار بمقدورها أن تنظر إليهما دون عناء.

هل أحرجت حقًا، أم أرادت ألا تحرجنا عندما صرفت نظرها؟ أم لعلها الغيرة بدأت تتحرك في داخلها.. هذا ما أريده يا سلوى خاتون، يا ابنة الحسب والنسب، تحركي قليلًا.. انزعي غطاء البراءة قليلًا ولو نر ما في حقيقتك الداخلية..

رفع عاطفة عنه، وأمسك بيدها ودفعها بلطف إلى مكانها.. فجلست ورأى أنها منفعلة حقًا. نهض، ووضع في جهاز السينما فيلمًا، شغّل الجهاز وعاد يجلس في محله.. ظهرت فتاة تعود إلى بيتها ليلًا.. لابد أنها ليلة باردة، فقد كانت تلبس فوق ملابسها معطفًا ثقيلًا وتلف عنقها بوشاح.. أغلقت باب البيت ودخلت غرفتها.. وضعت في جهاز " بيك آب" أسطوانة موسيقى وراحت تخلع ملابسها على إيقاع الموسيقى.. خلعت معطفها أولًا.. وعلقته داخل صوان الملابس، وراحت تتمشى وهي تخلع وشاحها، ثم عادت لتعلقه.. ذهبت إلى فراشها فخلعت حذاءها ثم قامت لتضعه في صوان واطئ عندما فتحته بانت فيه أحذية مختلفة التصاميم والألوان.. عادت لتجلس على

الفـراش.. كانـت تلبـس طقمًـا محتشـمًا جـدًا.. جاكتـة وتنـورة مـن الرمـادي الداكـن.. فكـت أزرار الجاكتـة ونهضـت فخلعتهـا عـلى مهـل، وعلقتهـا.. وظهـرت مـن تحتهـا بلـوزة صوفيـة.. فتحـت الـكلّاب عـلى جانـب تنورتهـا وأخـذت تسـحبها رويـدًا رويـدًا حـتى بلغـت أدنى هضبـة ردفيهـا مـن خلـف فراحـت وجلسـت عـلى الفـراش تتـم خلعهـا.. رفعـت سـاقيها وسـلّت التنـورة عـلى مهـل، وقامـت عـلى نفـس المهـل الكسـول، وراحـت تتراقـص وهـي تسـوي التنـورة عـلى حاملهـا، ثـم تعلقه داخـل الصـوان.. وعـادت فجلسـت عـلى الفـراش وأخـذت تخلع جورييهـا.. اسـتغرقا منهـا طـول الوقـت الـذي بذلتـه لخلـع الملابـس الفوقانيـة.. ولـم يكفهـا ذلـك، إذ صرفـت مزيـدًا مـن الوقـت وهـي تعانـق سـاقيها وتمسـح عليهمـا.. وقامـت تضـع الجوربـين في صـوان الأحذيـة، وقـد بـرزت عجيزتهـا بشـكل مثـير عندمـا انحنـت لتفعـل.. فراحـت تهزهـا أيضًـا. عندمـا انتهـت مـن الجـوارب وقفـت أمـام المـرآة وخلعـت البلـوزة عـلى مهـل أولًا حـتى أوصلتهـا إلى عنقهـا، ثـم - بضربـة واحـدة- خلعتهـا.. ونـثرت رأسـها لتسـوي تشـعث شـعرها.. طـوت البلـوزة بعنايـة ووضعتهـا في درج.. وعـادت إلى المـرآة لتخلـع قميصهـا بالـتروي نفسـه.

سأل طاهر سلوى:

- ما رأيك في الفيلم..؟

- جميل.. الحقيقة لطيف.

- ما الجميل فيه؟ أرأيت أفلامًا قبله؟

- نعم.. شاهدت عدة أفلام من هذا النوع.. لكن هذا أحلى.. أتصور أن خلع الملابس يستغرق وقتًا أطول.

- هل ضبطت له الوقت.. لا، لا يستغرق وقتًا أطول من غيره.. كل هذه الأفلام تستغرق الوقت نفسه.. ثم لا تتكلمي بالفصحى! خلع ملابس! قولي: تعري!

وقالها بجدية تشبه الغضب.

فارتبكت، وربما خافت، لكنه لم يرحمها:

- ما الذي أعجبك فيه؟

- لا أدري.. يمكن جمال البنت.. يمكن سرعتها بخ.. بالتعري.. وربما لأن جسمها جميل جدًا.

كانت الفتاة قد تملصت من القميص الآن.. راحت تبرز صدرها مرة، وعجيزتها أخرى وتمسح عليهما بيديها، وتمسح بطنها وتدغدغ سرتها.. أزاحت حمالة مشد عن كتفها ثم ألحقت بها الأخرى.. وفيما هي تمسك بالمشد من الأمام بيد راحت تفك كلّابه من وراء بيدها الحرة، حتى ساب ولم يعد يمسكه شيء غير يدها.. وفجأة رفعت يدها وبها المشد فانكشف نهدان مكوران جميلان إلا أنهما يخيبان من انتظر طويلًا حتى يراهما، فلم يكونا بالامتلاء والنهوض الكافيين.. وعلقت عاطفة:

- يتوقع المتفرج أن يكون صدرها أجمل بكثير.. لكن..

صدرها ليس قويًا.. أمر غريب.. فتاة مثل هذه تكسب رزقها على هذه الأمور كيف لم تعمل عملية شد؟

فقال لها طاهر مؤنبًا:

- هذه المسكينة فقيرة، لا تتصوريها تختلف عن العاهرات العاديات.. لا يغرّك الملابس وأثاث الغرفة.. هذا كله ملك الأستوديو.. ولا أتصور أن أجرتها عن الفيلم تزيد عن أجرتها بتقديم وصلة في كاباريه.. فمن أين تأتي بنقود العملية؟

كانت فتاة الفيلم قد أنهت مداعبة ثدييها ومعانقتهما، فنزلت يدها لتداعب بطنها مرة أخرى قليلًا ثم انزلقت إلى طرفي سروالها الداخلي وهي تغادر الغرفة، حيث ينتقل التصوير معها وهي تدخل الحمام حيث نزعت القطعة الأخيرة ورمتها في غسالة الملابس، وهي تبتسم ابتسامة بلهاء لا أثر فيها للانفعال.. ثم دخلت المغطس.. فغطتها رغوة الصابون أولًا، وعتمة انتهاء الفيلم لاحقًا.

نهض طاهر إلى جهاز العرض، أعاد لف الفيلم.. ثم أطفأ جهاز العرض.. تصورت الفتاتان أن ساعتهما حلت، وراحت كل واحدة تنتظر حسب صورة أعدتها في ذهنها.. ولكنه جاء فجلس بعيدًا عنهما هذه المرة.. قبالتهما.. ومع أن عاطفة تحركت في مقعدها كي تواجهه، ولم تعر البرنص، عندما انفتح قليلًا، بالًا، أو ربما أدت هي إلى انفتاحه عمدًا بطريقة جلوسها، ومع أنها لم تكتف بذلك وإنما وضعت رجلًا على رجل تاركة ساقها ينكشف إلى ما فوق ركبتها

فينكشف معه بعض الفخذ، إلا أن طاهرًا مر بنظره على لحمها مسرعًا ثم استقرت عيناه على عينيها:

- وأنت يا عاطفة.. هل شاهدت مثل هذه الأفلام سابقًا، أم لا؟

فقالت بتحد:

- شاهدت مثلها وأكثر.

تجاهل ما انطوى عليه كلامها، ثم قال:

- على فكرة.. ما رأيك بي لو تقدمت للزواج منك يا عاطفة؟ العفو يا سلوى ولم أسألك لأنك مخطوبة، ونحن ندعو أن تفرج قضيته ويعود إليك.. لكن عاطفة حرة كما فهمت من أمها.

وقبل أن تتلكأ عاطفة في الجواب، رغم أنها فوجئت بسؤاله، أجابت مسرعة:

- نتشرف يا سيد طاهر.. أتمنى ذلك.

ثم راحت تفكر.. «نحن هنا طوع يديك، وسنكون بعد قليل وليمة لك.. ولا شك في أن هذا ديدنك مع عشرات قبلنا وسيبقى كذلك مع عشرات أو ربما مئات بعدنا حتى ينكشف أمرك أو ترغمك الظروف على ترك عملك، أو تموت.. فلماذا تريد الزواج.. وهل حقًا ستتزوج واحدة مثلي، جاءتك تسلم جسدها، لو أردت أن تتزوج؟ أم أنك طامع في مالي ولا أعتقدك تقل ثروة عني ما دمت تطلب

الملايين عن كل قضية.. أعتقد أنك تسخر مني»..

- لا.. أنت تقولين هذا الكلام لأنك تشعرين بنوع من الإكراه.. دعيني أطرح السؤال بهذا الشكل: «لو كنت تقدمت لك قبل الحادث وقبل الدعوى، أو حتى لك يا سلوى، قبل أن يخطبك حامد أصلًا.. فهل كنتما توافقان عليّ؟»..

- لم لا؟

أجابت كلتاهما بصوت واحد. وأضافت عاطفة:

- شاب لطيف، حلو المعشر، أنيق، متفهم.. كل بنت تتمناك.

وأضافت سلوى:

- ووضعك الاجتماعي جيد، وما زلت في بداية شبابك وينتظرك مستقبل جيد.

- ولكن افرضا أنني خطبت واحدة منكما قبل أربع سنوات أو خمسة.. كنت كاتب محكمة، أو حاكم بداءة.. وهل سيكون جوابكما نفسه؟

- لم لا؟

قالتها عاطفة على عجل. وأما سلوى فتلبثت قليلًا، ثم قالت:

- أعتقد ذلك.. لو كان يوجد بيننا.. لا أقول حبًا.. ولكن

معرفـة وتفاهـم.

- ولكـن أتعلمـان أن أمـي كانـت خياطـة؟. وتوافقـان مـع ذلـك؟

سبقت مفاجأته بديهة الفتاتين.. كانت عيناه على سلوى، فكانت المطالبة بالجواب فورًا:

- والله المهم التربية والعلم والأخلاق.. ثم يأتي الاستقرار الاجتماعي.. ما مشكلة الخياطة؟

إي نعم.. أنت قلتِ وأنا صدّقت! ما مشكلة الخياطة؟ إن لم تكوني ستضحكين أنت فإني أرى أرنبة أنف أمك ترتعش لوقاحتي لو فعلتها قبل خمس سنوات أو ست.. وعيني أبيك تتطاير شررًا.. وربما كانا سيتساهلان لو كنت تقدمت إليك قبل سنة مثلًا.. وعندما يتحققان ويعرفان أن السيدة أم طاهر كانت مجرد خياطة فكانا سيشمئزان في داخلهما ويضعان نقابًا مؤدبًا على وجهيهما وهما يعتذران بأنهما كان سيشرفهما طلبه، ولكن البنت مقررة أن تكمل دراستها الجامعية أولًا.. وعليه فلا يمكنهما التعهد بشيء الآن..

وكانت عاطفة مستغرقة في أفكارها:

«خياطة.. وما شأني بها.. أنا لا أخيط ملابسي، ولا تخيطها أمي.. لست أدري إن كانت أمك خياطة جيدة أم رديئة، ولا يهمني ذلك.. ولكنك كشاب لا بأس بك.. للمعرفة والسهر وربما للعب قليلًا.. ولكنك لو طلبت يدي فقد كان عليّ أن

أفكر مائة مرة بدافعك الحقيقي.. في حين كانت أمي ستفكر ألف مرة بذلك أو أكثر».

لم تنتبه إليه وهو يستدير نحوها، منتظرًا جوابها.. إلا أنها شعرت بالصمت من حولها فالتفتت تنظر إلى جليسيها ورأت أنظارهما متجهة إليها، فقالت:

- والله.. أنا لا تهمني هذه المسائل الاجتماعية وخاصة الأفكار العتيقة البالية.

«لابد أنك فكرت بمثل هذا القول ألف مرة حتى استطعت صياغته على هذا النحو البارع الذي لا ينفي شيئًا ولا يلزمك بشيء.. وما رأي أخيك وأمك يا ترى؟».

- أشكركما على رقة مشاعركما.. المؤسف أنني لم أعرفكما بذاك الوقت، وإلا كنا نتأكد من الجواب الصحيح!..

ملأ كأسيهما مرة أخرى، ورفع الزجاجة التي فرغت وكأسه وذهب بهما إلى المطبخ. عاد فوضع بعض المكسرات في صحون صغيرة جاء بها فوضعها على الطاولة الصغيرة.. ثم عاد فجاء بصحون صغيرة فارغة.. وجلس يقشر الفستق والفول السوداني بعناية، ويأكلهما حبة حبة.. فيما كانتا تشربان على مهل.. ولاحظ أن سلوى تأكل قليلًا، ولكن عاطفة لا تتناول شيئًا.. نهض فاختفى في غرفته لحظات، ثم عاد فوقف عند بابها وعلى يده اليسرى ملابسهما مرتبة قطعة قطعة، إحداها فوق الأخرى.. نظر إليهما برهة.. ثم اتجهت أنظاره إلى الحمام..

- تفضلا.

بعد البرود الذي لف حديثهما في آخره كانت عاطفة تتساءل كيف سيفتتح وليمته عليهما.. وإن كان سيفعل شيئًا حقًا في هذا الصدد.. وقد اطمأنت الآن إلى أنه يريد أن يأخذهما في الحمام.. لابد أن له فانتازياه!

نهضت فنهضت معها سلوى، وسارتا فتبعهما إلى الحمام.. وقفتا في المنزع تنتظران خطوته التالية، فيما وضع كومة الملابس على صفة هناك. مد يده داخل الكومة، فرفع نصفها ووضعه جانبًا. كان على قمة الأولى مشد صدر أزرق، وفوق الثانية مشد أبيض. نقل نظره بينهما، ثم في وجهي الفتاتين، وكأنهما يريد منهما أن تدلاه لأي منهما يعود كل واحد.. ولاحظ أن سلوى لا تنظر إلى الملابس أو إليه، بل إلى عاطفة.. لابد أنها أسلمت قيادها لها وتنتظر منها المبادرة دائمًا.

من دون كلام رفع المشد الأزرق ونقل بصره بينهما فتقدمت عاطفة قليلًا.. أمسك بالمشد بكلتا يديه ونظر إلى برنصها.. خلعت البرنص وعلقته واستدارت نحوه.. أدارها وغطى صدرها بالمشد.. تمهل وهو يضع نهديها بشكل مريح في فنجانيه.. كانت قد التصقت به وهو يسوّي نهديها، فدفعها عنه قليلًا ليثبّت المشد من وراء.. أدارها مرة أخرى ليتفحصها من أمام، وشدها إليه ليقبلها في فمها لأول مرة، فيما كانت يداه تهصرانها إليه من ردفيها مما جعلها تنتظر خطوة ثانية لكنه تركها فجأة. نظر إليهما نظرة لا تحمل أي

معـنى، وقـال:

- تفضلا، خذا راحتكما والبسا وحدكما..

وتركهما.

نظـرت الواحـدة إلى الأخـرى بحـيرة، لا تفهمان معـنى لحركاته هـذه ولا تدريـان مـا سـتكون الخطـوة التاليـة.. لمـا اسـتبطأتاه، نظـرت سـلوى مـن البـاب فرأتـه جالسًـا في الصالـون، تشـاورتا وخرجتـا إليـه، فنهـض سـائرًا نحوهمـا وقادهمـا إلى البـاب:

- شـكرًا عـلى مجيئكمـا.. وعـلى الوقـت الجميـل.. سـلما لي عـلى الوالـدة.

وصافحهما، وأغلق الباب وراءهما.

دخلتـا السـيارة ملفوفتـين بالدهشـة والحـيرة وبـشيء مـن خيبـة الأمـل وربمـا الغضـب.. بعـد دقائـق جـاء السـائق، ومـا أن جلـس حـتى رفـع الحاجـز بينـه وبينهمـا، فقالـت سـلوى:

- ألاحظـت بنطلونـه؟ إنـه بنطلـون طاهـر نفسـه.. تذكـري كلام ماما.

وعندما كانت عاطفة تقول لها:

- لا تهتمي.. وما يخصنا ذلك؟.

كانت ستائر زجاج السيارة ترتفع لتغلفهما بالظلمة.

***

كانـت السـاعة قـد تجـاوزت الواحـدة بقليـل عندمـا دخلتـا

المنزل.. كانت أم حامد تجلس في الصالون تتصفح مجلة وهي تنتظرهما.. استغربت عودتهما السريعة، إلا أنها لم تسأل شيئًا، تاركة إياهما لتتحدثا عندما تريدان.. عندما جاءتا فجلستا إلى جانبها سألت:

- ماذا.. ألا تغتسلان في الحمام؟

مطت سلوى شفتيها، في حين قالت عاطفة بعصبية نوعًا ما:

- ولم نفعل؟

وأقفلت شفتيها.

نقلت أمها نظرها إلى سلوى متسائلة.. فقالت هذه:

- لم نفعل شيئًا.. أو في الحقيقة لم نفعل شيئًا يستحق الحمام والغسل.

فتناولت عاطفة أطراف كلامها، لتقص على أمها بغيظ وقائع لقائهما وجلستهما الطويلة، التي لم تسفر عن شيء، والتي لم يفهما بعدها ما كان يريد أصلًا، أو ما سيريد بعد ذلك. عبّرت عن خشيتها بأنهما لم تعجباه، أو أنهما قالتا شيئًا أزعجه، فصرف النظر عنهما، وسيطالب بغيرهما، فتتأخر إجراءات المحاكمة لحين تدبير البديلتين.. فقالت الأم:

- لا يمكننا أن نفعل شيئًا الآن.. المبادرة بيده وهو الذي يتصرف.. وما علينا غير الانتظار.. بالتأكيد أنه سيتصل خلال

الأسبوع وسوف نفهم.

وتدخلت سلوى:

- أيمكن أن يكون شاذًا؟ اكتفى بالكلام وبالملامسات.. يمكن يعجبه التفرج. وبالمرّة القادمة يعرض أفلامًا جنسية ويدعنا نتفرج معه ويقعد يدرسنا؟

أوشكت الأم أن تفضح نفسها وهي تجيب:

- لا، لا أعتقد.. لكن ربما لا يريد الاستعجال.. يريد أن يطمئنكما قليلًا.. لأنه يعرف الفتيات البواكر.. على كل حال.. لننتظر.. لا تنشغلا بالتفكير فيكفينا همّنا الكبير لنفكر به ونحزن عليه.. قوما جهزا الأكل.. تصورتكما سوف تأتيان مرهقتين وجائعتين فطهوت لكما طعامًا لذيذًا.. لنأكل سوية ولندع كل شيء لوقته حتى تتضح خطوته التالية.

11

صباح السبت..

دخل طاهر مكتبه، وبعد أن حيا كاتبه الذي نهض لاستقباله قال:

- ابحث عن السيد مجيد، نائب المدعي العام، إذا كان موجودًا ليتفضل عندي، أو اتصل به ليأتيني قبل أن ينشغل بشيء آخر.

جاءه مجيد بعد قليل، رحب به وطلب فنجاني قهوة.. شربا القهوة مع تبادل المجاملات، وبعد أن انتهيا منها قال طاهر:

- لقد قرأت خلاصة مطالعتك مع أوراق القضية، ورأيتها اعتيادية.. لكن مطالعتك التفصيلية التي قدمتها في الجلسة الأولى فاجأتني.. لأنك ركّزت كثيرًا على شهادات قدمها أشخاص لم يروا الجريمة.. كلهم وصلوا بعد ما كان الضحية مستهدفًا أو ميتًا أو على وشك الموت.. كل هذه الشهادات تزيد الشك في المتهم لكن لا تنس.. فهذه تهمة قتل.. صحيح أنه لا يمكن أبدًا إثبات التعمد وسبق الإصرار فيها، ولن يعدم المتهم، ولكن أن يتحمل المؤبّد ليس عملا جيدًا أيضًا.. أنا لست مرتاحا لتكييفك القانوني.

فغر مجيد فاه.. لماذا لم يقل ذلك بعد الجلسة الأولى

أو في اليوم التالي لها، وجاء يفاجئني به اليوم قبل الجلسة.. سيلخبط كل ما أعددته من أسئلة للشهود وللمتهم نفسه الآن..

- والله، أستاذ طاهر أنا كنت أتصور أنك مقتنع لأنك لم تخبرني بشيء قبل الجلسة ولا بعدها.

- مثل ما قلت لك.. في الخلاصة لم يكن تأكيدك واضحًا على هذه الشهادات.

كان مجيد هذا شبه بليد، احتل منصبه لأن أحد أعمامه مصاهر لأحد وزراء الدولة.. وسبق لطاهر أن شجعه في قضيتين أو ثلاث، كانتا واضحتين ولم يكن فيهما مجال لأي تسامح.. وقد دله على منافذ التشديد، فصار يطمئن إليه وإلى نصائحه كثيرًا.. بل كان يسأله النصح أحيانًا قبل إعداد مطالعته عندما لا يكون واثقًا من الخط الذي يتخذه.. ولكن طاهرًا خرّب له أيضًا أربعًا من قضاياه.. وها هي الخامسة، بينما كان يعتبرها هو واضحة لا تعقيد فيها ولا تحتاج إلى بحث طويل..

- حسنًا.. الحقيقة أنا أيضًا لم أحب صيغ الشهادات، لكن الشيء الذي يصفه الشهود يشبه حالة تلبس.. على كل حال، ماذا تقترح يا أستاذ؟

- إذا أردت الاستمرار حسب مطالعتك فيجب التأكيد على الشهود.. لكن المحامي - وبالمناسبة هو محامٍ قوي وأنت تعرفه- سوف ينسف شهاداتهم.. وما أخفيك أنا أيضًا لا

يمكنني أن أقبل مثل هذه الشهادات.. فأول ما يشير إليه المحامي سيكون ضعفها وسيتم تسجيلها في محضر الجلسة وأضطر أن آخذه بنظر الاعتبار.. أقترح أن تطلب التأجيل، وأنا سوف أؤجل لعدة أيام، وفي الجلسة القادمة لا تركز كثيرًا على الشهود حتى لا تستفز المحامي لاستجوابهم كثيرًا وتفنيدهم تمامًا.. وإن شئت سأخبر المحامي بأنك في المطالعة النهائية لن تركز على الشهادات.. لكن طبعًا لن أقول له الآن.. بل بعد ما نستمع إلى الشهادات..

- ولكن..

- أما مطالبتك بالإعدام فلا علاج لها.. إذا بقيت مصرًا عليها ولم أقتنع أنا، سوف نضطر إلى أن نبرّئ المتهم تمامًا.. لكن إذا طالبت بسجن طويل مثلًا يمكن تخفيف الحكم.. فأعتقد أن أفضل شيء هو أن تقدم في جلسة بعد التأجيل مطالعة جديدة تبدل مطالبتك، وتخفف بشكل ما من تركيزك على الشهادات.. أنا أقول هذا من أجلك، لأنه لو تمت تبرئة المتهم الذي طالبت بإعدامه فسوف تكون إشارة سيئة في إضبارتك.. وعلى كل حال الأمر متروك لك.. فأنا لا أريد أن أفرض عليك شيئًا.. من الجيد أنه لدينا وقت كاف، تفضل اذهب إلى غرفتك وفكر في الموضوع.. وخبرّني بقرارك قبل أن ندخل الجلسة، حتى أكون مستعدًا.

مثل تلميذ مقصر نهض ممثل الادعاء، شكر طاهر على تنبيهه، وخرج.. وبعد دقائق، رن الهاتف في مكتب طاهر، ولما سمع صوت مجيد استغرب، لأنه تصوره لم يصل

غرفتـه بعـد:

- أهلًا، سيد مجيد، تفضل.

- أسـتاذ، أنـا فكـرت جيـدًا، اقتراحـك جيـد. أشـكرك مـرة أخـرى.

وابتسـم طاهـر ابتسـامة ظفـر.. فكـرت! ستمر المرافعـات دون توتـر وإشـكالات إلا إذا أراد محامـي الحـق الخـاص أن يستعرض عضلاته ليحلل ما أخذه من عائلة القتيل.. ولكن هـذا المتهـم يصعـب حقًا إلصـاق التهمـة بـه.. فليستأنفوا إن تـبرأ.. ولا أعتقـد أن محاميهـم سيكون مـن الحماقـة بحيـث يمـيز..

***

وانعقـدت الجلسـة الثانيـة.. مـا أن افتتحهـا الحاكـم حـتى طلـب ممثـل الادعـاء الـكلام..

-.. نظـرًا إلى ظهـور حيثيـات جديـدة للادعـاء، أطلـب مـن المحكمـة الموقـرة التأجيـل.

- كم يكفيك، يا أستاذ؟

- عدة أيام فقط. حسب تنسيب المحكمة الموقرة.

نظر طاهر إلى محامي الدفاع:

- لا أعتقـد أن لـدى الدفـاع اعـتراض. لكـن حـتى ننهـي الإجـراءات سريعًـا، ونحـاول أن نحقـق العدالـة عـلى أحسـن

وجـه وكذلـك بـأسرع مـا يمكـن.. وحـتى نخلّـص المتهـم والعائلتين المنكوبتين مـن قلـق الانتظـار.. أطلـب مـن الدفـاع أن يسـتفيد مـن هـذا التأجيـل حـتى ينهي دراسـته، وإذا كانـت عـدة أيـام لا تكفيـه ليخبرنـا حـتى نمـدد مـرة واحـدة.

وقـال محامـي الدفـاع إنـه لا يحتـاج إلى تمديـد، فأعلـن طاهـر:

- تؤجـل المحكمـة إلى السـاعة العـاشرة مـن السـبت القـادم.. ترفع الجلسـة.

وانصرف، وانصرف وراءه الجميع.

كانـت أم حامـد قـد همسـت لمحامـي الدفـاع شـيئًا وهمـس لهـا بمـا يشـبه الجـواب، وضـم أصابـع يـده مشـيرًا لهـا بالانتظـار.. لذلـك لـم يسـتغرب طاهـر عندمـا اسـتقر في غرفتـه لدخـول كاتبـه عليـه:

- أستاذ محامي الدفاع يطلب مقابلتك.

- وحده؟

- نعم.

- ليتفضل.

خرج الكاتب، ولكنه عاد وحيدًا بعد قليل:

- أسـتاذ، محامـي الحـق الشـخصي يطلـب مقابلتـك أيضًـا.. أعتقـد أنـك حسـب العـادة تريـد.

فقاطعه طاهر:

- نعم، نعم.. طبعًا.. دعهما يتفضلان.. هذا أفضل.

فتح الكاتب الباب وبقي واقفًا عنده، ودعا المحامين للدخول، فيما ذهب إلى مكتبه وعاد وراءهما وفي يده ورق وقلم، وأغلق الباب. رحب رئيس المحكمة بالمحامين ودعاهما للجلوس، فجلس الكاتب معهما أيضًا.. دق رئيس المحكمة جرسه دقتين.. وبعد لحظات جاء فراش المكتب حاملًا صينية الشاي.. وبينما كانوا يرتشفون الشاي حدثهم طاهر كيف أن ممثل الادعاء تنبه إلى أن مطالبته بالإعدام خارج الصدد لأنه لا يستطيع أن يثبت وجود النية والتصميم السابقين، ولذلك قرر تبديل مطالعته على أساس المطالبة بالسجن. فتحدث محامي المتهم:

- أستاذ.. حضرتك تعرف أن أدلة الاتهام كلها ضعيفة ولا يمكن بواسطتها إثبات أصل القضية على المتهم.

- أرجوك.. اترك هذا الموضوع للمرافعات.. وددت أخبركما فقط بسبب التأجيل لأنكما جئتما وتريدان معرفته.. هنا ليس مكان بحث الدعوى.. إذا عندكم أسئلة أخرى، فأنا بالخدمة.

وركز نظره على محامي الحق الشخصي.. الذي كان يبدو عليه الإحباط وخيبة الأمل، ولكن كان ظاهرًا أنه لم يكن لديه ما يساعده على الاعتراض..

وانتهت الجلسة خلال وقت قصير، حتى أن الكاتب لم

يكتب إلا سطرًا واحدًا ثبت فيه وقت الاجتماع وسببه. وشكر الرجلانُ الحاكمَ ثم انصرفا.

***

عندما عرفت نهى من المحامي بسبب التأجيل ضحكت في سرها: «هذا فعل المائتي ألف»، ولم تقل للمحامي شيئًا.. وإنما راحت تسأله عن توقعاته، فطمّنها إلى النتيجة، راجيًا إياها أن تترك الأمور لتدبيره..

تدبيرك وحده لا يكفي يا حبيبي! تدبيري هو الذي فعل فعله! بل الحقيقة تدبير طاهر.. إنه عند قوله حقًا.

وراحت ترقب اتصاله، لتقدم له جائزة الإنجاز الأول.. ثم انتبهت إلى أنها كادت أن تنسى إجراءات تسهيل بيع البستان، فاتصلت مباشرة بمحامي الأعمال.. الذي أخبرها أنه ثبت موعدًا مع إدارة التسجيل في التاسعة من صباح الغد، وأنه أبلغ المشتري بذلك وهو يتوقع حضوره، بعد أن يتلفن له الشاري عصر اليوم. وأضاف أنه سيتصل بها في حدود السادسة ليبلغها بالنتيجة القطعية..

كانت تتوقع أن يتصل طاهر اليوم طالبًا إياها، أو طالبًا الفتاتين، استيفاءً لأجرة خطوته الأولى.. لم تكن تعرف أنه لا يقدم على اتصال كهذا في أيام الجلسات.. فأخبرت محاميها بأن يترك لها رسالة إن تلفن ولم يجدها. وبقيت قلقة مستوفزة طيلة النهار، مما أثار استغراب الفتاتين اللتين كانتا ظاهرتي الانشراح لسير الأحداث، فلم تفهما

سر اضطـراب الأم..

وبعـد السادسـة بقليـل رن جـرس التلفـون، الـذي كانـت الأم تضعـه قربهـا عـلى الكنبـة.. فرفعـت السـماعة فـورًا.. كان محاميهـا، وأخبرهـا أن كل شيء ترتـب، ورجاهـا أن تنتظـره في الثامنـة والنصـف مـن صبـاح الغـد إن كانـت تريـد الحضـور شـخصيًا..

- لا.. حضرتـك موجـود وتكفـي.. لكـن قـل لي.. هـل أخـذ طـارق حصتـه؟

- نعـم.. أنـا أتصـل مـن عنـده.. لقـد عصرنـا المشـتري الآن وأعطى لطـارق مكافـأة جيـدة.. أربـ.

فقاطعته:

- عـوافي عليـه.. هنّـأه مـن قبـلي.. كمّـل الإجـراءات غـدًا ثـم خـبرني.. شـكرًا.

- ممنون أم حامد. مع السلامة.

- مع السلامة.

***

اتصـل بهـا في حـوالي الحاديـة عـشرة مـن ضحـى اليـوم التـالي، ليخبرهـا أن كل شيء تـم، وأنـه قبـض صـكًا بـكل المبلـغ وسلّمه لطـارق وأخـذ بـه إيصـالًا لنفسـه.. ولمـا كانـت مهمتـه الآنيـة هـذه قـد انتهـت:

- إذا ما عندك أوامر أخرى فأستأذن.. وهذا طارق يتكلم معك.

- لا ليس شيئًا.. شكرًا جزيلًا، أستاذ نجم.. مع السلامة.

وانتقلت السماعة على الطرف الآخر من الخط من يد إلى يد:

- أهلًا طارق.. صباح الخير.. كيف صحتك؟

- ممنون خاتون.. الله يسلمك.

- أصحيح اليوم أصبحت غنيًا؟. لكن أظنك توافق على أن ندعوك للغداء؟

- العفو خاتون.. هذا من خيرك ولطفك.. تأمرين.

- تعرف موعد تناولنا الطعام، في الساعة الثانية.. ننتظرك.

- شكرًا.. سوف أجيء.. ألديك أمر؟

- لا، شكرًا.

- مع السلامة.

- حتى موعدنا الظهر.

وعلى الغداء سألته إن كانت أعمالهم تقتضي توفر سيولة نقدية لتقدم من المال الذي تسلمه اليوم، فأجاب بالنفي:

- إذن، اتصل بصاحبك واطلب منه أن يحوّل المبلغ كلّه..

مـن الأفضـل أن تذهـب إليـه، بـلا تلفونـات.. وخـبرني عندمـا يبلغـك أن التحويـل تـم.

- تأمرين خالة.

عندما خرج طارق تساءلت سلوى:

- مـا القضيـة؟ سـابقًا كان يسمّيك خاتـون.. لكـن اليـوم كلّـه خالـة.. خالـة؟

نظـرت الأم وابنتهـا إحداهمـا إلى الأخـرى وضحكتـا. قالـت الأم:

- لقـد وضـع عينـه عـلى عاطفـة.. طبعًـا حـتى الآن لـم يقـل شـيئًا.. لكـن نظراتـه واضحـة.. وأخـيرًا جـاءت نغمـة «الخالـة» هـذه وهـي أشـجع تلميـح قـام بـه حـتى الآن.. عـلى كل حـال.. أنـا مـا عنـدي مانـع، فالشـاب يعـرف حـدوده.. والآن أصبـح لديـه نقـود.. ولـو بفضلنـا، لكـن يسـتحقها.. ولكـن هـذا كلـه يتوقـف عـلى المسـتقبل.. أن تنتهـي القضيـة أولًا، وبعدهـا سـفرة لأوربـا بـلا اسـتراحة.. وإذا لـم يتقـدم شـاب أفضـل منـه.. إلا إذا كانـت عاطفـة عندهـا رأي آخـر.

ونظرت إلى عاطفة:

- لا.. مائـة بالمائـة معـك.. لذلـك وتلاحظـين، لا أصـدّه ولا أشـجعه أكـثر مـن الـلازم.

***

أخبرهـا طـارق مسـاء أنـه رتّـب كل شيء.. اتصلـت بلنـدن

واستوضحت الأمر، تأكد لها، فأعطت تعليماتها بتحويل باقي حساب طاهر إلى الحساب الذي كان أعطاها رقمه، مع التعليمات السابقة نفسها، وإيداع ما تبقى من المبلغ في حساب شركتها العائلية..

لم تفكر في إخبار طاهر بذلك، تاركة له أن يطّلع عليه من مصادره، إلّا إذا استدعاها قبل ذلك، فعندئذ ستخبره.. إنها لا تريد أن تتصل به، لا لمجرد أنه أكّد عليها بعدم استخدام التلفون إلا في أقل ما يمكن فقط، بل لأنها لا تريد أن تجعله يتصور أنها مهتمة كثيرًا بالمال وأموره، أو أنها تريد تذكيره كوسيلة للإلحاح عليه وتعجيل النتيجة.. ليس ذلك خوفًا فقط، وإنما لأنها بدأت تزداد ثقة به..

لم يكن عندها بعد ذلك إلا أن تنتظر، وتداري قلقها واضطرابها عن البنتين.. كانت تود لو يخرجن، في زيارة ما.. إلا أنها كانت تخشى أن يتلفن في هذه الأثناء.. وكانت تفكر في أن تخرج لوحدها، أو تصرف البنتين بمفردهما، ولكنها كانت تخشى أن يطلبها، أو يطلب الفتاتين، ولا يكنّ موجودات.. لم تكن تدري ما سيقع في مثل هذه الأحوال، ولكنها لم تكن تريد أي شيء من شأنه أن يعكر حسن سير الأحداث..

انتظار.. لا شيء غير الانتظار.. لم يكن يملأ الوقت ما حاولته من لهو بجلسات الثرثرة مع الفتاتين، تقليب المجلات، ممارسة ألعاب الورق والحظ.. كانت تتوقع أن يكون قلق الفتاتين وتوفزهما أشد من قلقها وتوفزها، وكانت ستعذرهما على ذلك.. على أية حال، تنتظران

نتيجة امتحان.. ولكن الذي لفت انتباهها أن قلقها كان أشد واضطرابها كان أعمق..

أية لعبة يلعب معها؟ بل معهن هنّ الثلاث؟ مهما كانت، فهو أستاذ فيها، ومما يزيده نجاحًا في تنفيذها أن يمسك بالمبادرة دومًا في يديه.. ولكن شيئًا ما كان يضفي على قلقها واضطرابها طعمًا آخر كانت تخشاه في قرارة نفسها.. إنها، بمعزل عن تسليمها له اضطرارًا من أجل القضية، كانت ترغب فيه.. وعندما تفكر في هذا الأمر تجد أن سببه ليس القضية فقط، بل ليس القضية أصلًا.. صحيح أن دعوته اللبقة إلى أن يكونا صديقين كانت سببًا، ولكنها عندما تفكر بالأمر مليًا، كانت تشعر بأن ثمة سببًا آخر..

«أحبه؟ لا أظن».. أهو اندفاع من تجاوزت الأربعين مخافة أن لا تجد من يهتم بها عما قريب، من أجل جسدها وروحها، لا من أجل مالها وعلاقاتها ومركزها الاجتماعي.. وهل هو.. خوف سن اليأس الوشيك، وما سمعته وقرأته من أن المرأة تفقد اهتمامها عنده بمتع الجسد؟ قطعًا لا.. فقد أكدت لها أكثر من صديقاتها اللاتي اقتربن من سن الخمسين، وواحدة منهن تجاوزته، أنه لم يؤثر سلبًا على اشتهائها للرجال وارتياحها لتوددهم، إن لم يكن زادهما عما كن يشعرن به وهنّ في أول شبابهن..

«أم تراني أدلل به ولدي.. الذي شاركني الاهتمام به عنه فلم أنصرف له بما يكفي؟ نعم.. لا شك أنه هذا.. أو هذا زائدًا قليلًا من كل الأسباب الأخرى».

وارتاحت إلى هذا التفسير..

«ولكن هو.. ماذا يريد مني بالذات.. لقد اهتم بي أكثر مما اهتم بالفتاتين.. لا، هذا غير صحيح.. لم يأخذني إلا في اللقاء الثاني.. وفي اللقاء الأول كان رسميًا.. ها.. رسميًا.. لكنه لم يكن باردًا.. ومما وصفت البنتان فقد كان معهما باردًا.. وربما كان تحقيقه الأخير معهما يحمل في طياته تهديدًا.. ولكن ماذا عن مداعباته الأخيرة أيضًا.. ولكن.. كيفما أفكر في الأمر فإن اهتمامه بي لابد وراءه أمر معين.. إنه يغور في لحوم الصبايا فماذا يريد من لحم امرأة في سني؟. صحيح أنني أباهي بلباقتي.. ولكن مع ذلك، يبقى للحم الطازج جذب خاص للرجال.. وربما يريد خبرتي أيضًا.. ولكنه طلب واحدة ذات تجربة.. خبيرة.. فماذا يريد مني أنا أيضًا؟ أأصدقه عندما قال إنه أرادني استثناءً على غير عادته؟ إذا صدقته يصير هدفه طلسمًا.. ولكن لا.. يبقى شيء واحد.. وإن كان بعيد التصور.. لا.. لا أظن».

وبقيت هي أول من يرفع سماعة التلفون عندما يرن جرسه.. تجيب عليه أو تسلمه لإحدى الفتاتين.. إلى أن كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة من بعد ظهر الثلاثاء.. كن ما زلن يجلسن إلى مائدة الطعام - كسلًا- الفتاتان تشربان القهوة، وهي أعدت لنفسها كأسًا من كوكتيلها الخاص - شربت خلال الأيام الأخيرة أكثر مما تشرب في شهر عادة..

رن جرس التلفون وعندما رفعت السماعة حياها صوته. وعندما أشارت للفتاتين برأسها وعينيها أنه هو، شعرت

بحـرارة خاصـة في وجههـا فقـدرت أنهـا احمـرت..

- أهلًا وسهلًا.

- «.....».

- أنا؟

- «....».

- أمرك.. تدلل.. مع السلامة.

وعندما وضعت السماعة قالت:

- أظـن وصلـه إشـعار وصـول المبلـغ. يريـدني في السـاعة الخامسـة.. لقـد تعبنـا كثـير في هذيـن اليومـين أو الثلاثـة.. أقـترح أن تخرجـا للتسـوق، أو اذهبـا للسـينما.. فاليـوم ليـس لدينـا اتصـال مهـم آخـر.. اذهبـا واسـتمتعا.

كانـت تريدهمـا خـارج البيـت، وأن تتأخـرا، لأنه إن اسـتبقاها، فسـتودّ ألا تكـون الفتاتـان موجودتـين.. إذ ربمـا سـتتأخر عنـده فتبـدآن في تخمـين مـا هـو صحيـح.. وهـي تريـد تجنـب مثـل هـذا الإحـراج.. إن أمكـن طبعًـا.. وبعـد قليـل مـن النقـاش والإلحـاح مـن جانبهـا، وافقـت الفتاتـان عـلى أن تذهبـا إلى السـينما لمشـاهدة أحـد أفـلام الـدور الأول.. فوجـدت ذلـك مناسـبًا جـدًا.. إذ لـن ينتهـي الفيلـم قبـل التاسـعة.. ولـن تكـون البنتـان في البيـت قبـل التاسـعة والنصـف مـع احتسـاب تأخـير الخـروج مـن السـينما والازدحـام الـذي يحـدث عـادة وكذلـك ازدحـام الشـوارع بالسـيارات في مثـل ذلـك الوقـت..

«مهما أراد استبقائي لا أظنه سيبقيني أكثر من ساعتين أو ثلاث.. سأكون في البيت قبلهما حتمًا».

في حوالي الثالثة والنصف بدأت استعداداتها للقاء اليوم، بدخولها الحمام..

12

بالطقس المألوف ذاته عادت إلى البيت فوصلت قبل التاسعة.. جلست تسترخي قليلًا.. ثم لاح لها أن جسدها ما زال يحمل رائحة الفراش فقررت أن تأخذ دشًا سريعًا قبل مجيء الفتاتين..

وعندما عادتا، وجداها جالسة وقد ارتدت ثوبًا منزليًا خفيفًا.. حيتاها وقالتا إنهما فعلتا حسنًا إذ جلبتا معهما عشاءً.. كان لا يزال ساخنًا.

واتجهت عاطفة إلى المطبخ وهي تقول:

- أود أن أشرب قليلًا.. من يشاركني؟ سلوى، سأجلب لك بيرة مثلي.. وأنت ماما؟ معنا أم الكوكتيل خاصتك؟

- لو كنت أريد الكوكتيل يبرد العشاء.. لا أريد أن أشرب.. ويمكننا الشرب بعد الأكل.

جلبت عاطفة علبتي بيرة، بينما أعدت سلوى المائدة على عجل. وبين لقيمات الدجاج والبطاطا المشوية قالت لهما الأم إنه تسلم المال، وإن تأجيل المحاكمة من تدبيره، وإنهما تعجبانه ولا مأخذ له عليهما.. وسيدعوهما في الوقت المناسب. فقالت عاطفة:

- حتى يريد! الله يعلم بماذا يفكر؟

فقالت أمها:

- إذا كنت تشتهينه ويعجبك أن تذهبي إليه بسرعة، لا بأس.. لكن إذا كنت تريدين أن تنهي الموضوع انتبهي.. سوف يظهر عليك ويجوز أن تفسدي القضية.

وقالت سلوى:

- إي صحيح، يا عاطفة.. ما دمنا قررنا، اتركي الموضوع، إنسيه، حتى يتصل.

فقالت عاطفة:

- لا تهتما.. أدري.. خاصة الآن بعد ما اطمأننا.

***

ولكن مفاجأة أخرى من مفاجأته كانت تنتظرهما عندما طلبهما يوم الجمعة.. إذ قضى معهما أكثر من ثلاث ساعات يشرب الجن مع اللايم، ويسقيهما النبيذ ويعرض عليهما أفلامًا كادت تفقد عاطفة رشدها.. فعرت له جذعها.. ولكنه اكتفى بتغطيته بالقبل.. ودس يده بين ساقي سلوى وراح يداعبها.. حتى تعب وتعبتا دون أن يمضي إلى أكثر من ذلك.. ظنته عاطفة عاجزًا، لذلك احتكت به طويلًا وهو يقبلها عند الباب حتى وجدت صلابته فرفعت رجلها اليمنى وراحت تحك ركبتها عليها آملة أن يغير رأيه فيسحبها إلى الداخل، أو يسحبها وحدها.. ولكنه اكتفى بالتقبيل، ثم مد يده إلى سلوى فاحتضنها حتى أحست بفحولته هي أيضًا، وقبلها، وودعهما.

***

عندما روتا للأم ما جرى، فرحت في سرها لأنها تصورت نفسها قد استنفدت طاقته يوم الثلاثاء الفائت.. ولكن عندما ذكرت لها عاطفة أنها أحست بانتعاضه، وأيدت سلوى ذلك، خاب ظن الأم، وراجعت أفكارها وقالت:

- ربما يكفيه ما فعل لذة.

وكانت تدري أنها تكذب، كما كانت تدري أن كلامها غير مقنع وقد أحستا صلابته على سيقانهما وبطنيهما، فأضافت:

- ربما كانت تلك عقدته.. أو ربما لم يكن يريد أذيتكما بل يفكر بالاكتفاء بهذه المداعبات حتى يحافظ على بكارتكما.. دعاه يفعل ما يريد.

فأفلتت من عاطفة:

- ولكن يجعلنا نجن.. نظن أنه فينا عيب، فينا نقص.. فينا شيء لا يعجبه.

وشعرت أنها تجاوزت بالقول.. وإن كن جميعًا متأهبات للفعل نفسه، فلزمت الصمت.

13

في الصباح التالي كن في قاعة المحكمة في الموعد.. ولما كان موعد المحاكمة يصادف يوم الزيارات في المعتقل، فقد حقق المحامي لهن موافقة على لقاء مع حامد، حيث جلسن معه في غرفة في مبنى المحكمة.. وكان المحامي حاضرًا وكان الشرطي الذي جلب حامد من السجن، يراقبهم عن بعد، عند الباب.. شرح له المحامي تطورات القضية وطمأنه إلى النتيجة المتوقعة.. طالبًا منه الصبر والتحمل.. وأضاف كي يطيّب خاطره:

- أعتقد أن القضية ستكون أسهل مما تصورت في بدايتها.. وحتى يمكن أن يكون تعبي أقل.

وفي حدود العاشرة نهضت الأم فاحتضنته وقبلته، وأعطته مائة دينار للانتفاع منها في المعتقل، ثم قبلته عاطفة وهي تبتسم مشجعة، ولكن سلوى لم تستطع إخفاء الدموع التي كانت تترقرق في عينيها.. فقال لها المحامي:

- أنت خارج السجن وتعرفين كل شيء.. فلماذا هذا البكاء؟ المفروض أن يقلق هو قليلًا.. يا الله.. يا الله، امسحي دموعك وقبليه قبلة حقيقية.

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة، تحولت إلى ضحكة لما نظرت إلى حامد وهي تقبله. أعطت الأم دينارًا للشرطي، وخرجت تتبعها الفتاتان، بينما اقتاد الشرطي حامد من باب آخر ودخل به قاعة المحكمة قبلهن. وجاء المحامي

وبعدهم جميعًا..

بعد دقائق دخلت هيئة المحكمة، وأعلن الحاكم بدء الجلسة. تقدم ممثل الادعاء بمطالعة جديدة، بين فيها أنه بناء على معلومات وصلته، فقد أعاد النظر في تكييفه القانوني، فوجد نفسه لا يستطيع طلب أقصى العقوبة للمتهم، ولذلك فهو يترك تحديد عقوبته للمحكمة الموقرة. واستدعت المحكمة شهود الادعاء. كانوا ثلاثة. حصر الادعاء أسئلته لهم حول ما شاهدوه فذكر اثنان منهم أنهما وصلا على صوت الرصاص، فشاهدا القتيل ساقطًا على الأريكة.. والمتهم واقفًا إلى جانبه. لم يكن لدى ممثل الادعاء أو المحامي الشخصي ما يسألان أكثر، وفضل محامي الدفاع أن يترك الأمر يمر، إذ ليس فيه من شيء يدين موكله. ولكن الشاهد الثالث أضاف بأن المتهم كان واقفًا والمسدس بيده، وكأن محامي الحق الشخصي وجد لقية من السماء فتمسك بأقواله وسأله:

- أهذا المسدس المقدم؟

وأوعز الحاكم بأن يقدم الكاتب الثاني المسدس إلى الشاهد. اطلع الشاهد عليه، وأيد أنه هو. فطلب محامي الحق الشخصي قيد ذلك. وعندما سأل الحاكم محامي الدفاع إن كان يريد مناقشة المتهم، نهض فشكر الحاكم وقال:

- في الحقيقة أريد أن أسأله عدة أسئلة بسيطة.. وإلا ليس

لـدي أي مناقشـة.

- تفضل.

- بأي وضعية كان يمسك بالمسدس.

فقال الشاهد:

- كان المسـدس في راحـة يـده.. لـم يكـن موجهـا إلى مـكان معـين.. كأنـه كان يفحصـه، أو حـتى يتفـرج عليـه.

وبعـد أن اطمـأن المحامي إلى أن الكاتـب الأول سـجل ذلـك، ألقى سـؤاله الثـاني:

- وماذا كان يفعل.. المتهم؟

فقال الشاهد:

- كان واقفًـا بـين المقتـول ومنضدتـه.. يتطلـع إلى المسـدس.. ولمـا دخلـت لـم ينتبـه إلي.. سـألته مـاذا حـدث، فأشـار إلى البـاب بيـده.

- شكرًا.. وشكرًا حضرة القاضي.

وأعلـن الحاكـم أنـه يريـد رفـع الجلسـة ليعـد ذوو العلاقـة مرافعاتهـم الختاميـة، فـإذا كان عنـد أحدهـم طلـب ليتقـدم بـه قبـل إعـلان موعـد التأجيـل. لـم يكـن عنـد ممثـل الادعـاء أو محامـي الحـق الشـخصي مـا يطلبانـه، ولكـن محامـي الدفـاع طلـب، نظـرًا لمـا يـدل عليـه سـير الدعـوى، إطـلاق سراح المتهـم بكفالـة تحـدد المحكمـة مبلغهـا. بـدا الحاكـم غاضبًـا

من هذا الطلب أكثر منه رافضًا له، عندما قال:

- على ماذا يدل سير الدعوى؟ إننا لا نزال في البداية، وما سمعناه اليوم لم يضف أي جديد إلى معلوماتنا عن القضية.. يبدو وكأن حضرة المحامي يريد أن يفهمنا أن القضية تم حلها والجلسة القادمة سوف تكون جلسة إعلان البراءة.. لا.. أنا آسف.. لكن يجب أن يبقى المتهم رهن التوقيف.

والتفت إلى الكاتب الأول:

- يرفض الطلب!

ثم أعلن عن رفع الجلسة إلى السبت القادم.

***

وقضت نهى مساء الأحد والاثنين والأربعاء عنده.. وفي ظهر الجمعة اتصل بها، وبعد التحيات والمجاملات مع الأم سألها:

- في أي ساعة تتناولن الغداء؟

- في الساعة الثانية.

- حسنًا، سيكون غداء الفتاتين اليوم عندي. السيارة تنتظرهم في الواحدة والربع عند باب سينما النصر. مع السلامة.

بعد الواحدة والنصف بقليل كانتا في بيته. وعندما فرغتا

مـن مراسـم الفحـص التمثيـلي ودخلتـا الصالـة كانـت سـاعته تشـير إلى مـا قبـل الثانيـة بعـشر دقائـق.. وكانـت المائـدة الـتي لـم تنتبهـا إليهـا قبـلًا كأنهـا كانـت مغطـاة بـورق تغليـف، قـد كشـفت الآن، فرأتـا أطباقًـا مغطـاة بـورق الألومونيـوم وأخـرى بمناديـل ورقيـة.. ومـا أن اتخذتـا مجلسـيهما حـتى دخـل عليهمـا مـن غرفتـه مبتسـمًا محييًـا:

- اعـذرا تقصـيري.. حيـاة الأعـزب والطعـام جاهـز.. وجبـات المطاعـم طبعًـا، لكـن أتمـنى أن تعجبكمـا.. لأنـني أوصيـت بطهوهـا بشـكل خـاص.. سـأشرب القليـل مـن الجـن قبـل تنـاول الغـداء.. ومـن تحـب أن تجـرب ذلـك لترفـع يدهـا.

رفعـت عاطفـة يدهـا، فنظـر - ونظـرت معـه- إلى سـلوى.. الـتي قالـت مرتبكـة:

- أنـا لسـت معتـادة عـلى الـشراب كثـيرًا.. أمـا قبـل تنـاول الطعـام فأصـلًا لـم أجربـه.

فقال طاهر:

- التعـود يـأتي مـن الممارسـة.. ينبغـي أن تجـربي مـرّة، وإذا أعجبـك كرريـه وعندئـذ تعتاديـن.. إمـا إذا لـم تجـربي فمـن الطبيعـي لـن تتعـودي.. أتجربـين أم لا؟

وقالت عاطفة بخبث:

- هنـاك أمـر آخـر لـم تتعـودي عليـه.. أهـذا قصـدك؟ أي لـن تنفـذي أي أمـر لأنـك لسـت معتـادة عليه؟

وضحكت، فضحك طاهر أيضًا، وازداد ارتباك سلوى التي قالت، لتتحرر من الحرج:

- طيب.. سأشرب مثلكما.

صب ثلاثة أقداح من الجن وأضاف إليها الصودا. ثم أضاف إلى قدحه قليلًا من عصير اللايم، ونظر إلى عاطفة متسائلًا:

- عصير؟ أم قطع؟

- عصير رجاء.. لا تسأل سلوى.. صب لها عصيرًا أيضًا.

أكمل إعداد القدحين.. ثم وضع في الأقداح الثلاثة ثلجًا مجروشًا.. وجلب القدحين إليهما.. وعاد فأتى بقدحه وجلس على أريكة منفصلة..

لم يمس هو أو الفتاتان الفواكه والمكسرات الموجودة على الطاولتين الصغيرتين في وسط زاوية الجلوس في الصالة أثناء تناول الشراب.. قال طاهر:

- النبيذ متوفر والبيرة كذلك.. لم أجلب مشروبات مركزة لأنكما لم تتعودا، كما أن هذا فاتح للشهية.

وحرك يده بالقدح ليشير إلى ما يعني..

- المشروبات الثقيلة أثناء تناول الطعام أو بعده.. كما تشتهيان.. وبالنسبة للطعام إذا تريدان يمكننا أن نجلس حول المائدة، أو: لا.. نعمله بوفيه.. نملأ الصحون ونأكل هنا.. كما تشاءان.. أرجو أن تشعرا بالراحة ولنترك الرسميات..

اليـوم جمعـة.. عطلـة.

وقهقـه ضاحـكًا. فلحقـت بـه سـلوى تشـاركه.. كان هنـاك طعـام بـارد، وآخـر سـاخن.. أكلـوا جميعًـا مـن هـذا وذاك.. واكتفـوا مـن الـشراب جميعًـا بالنبيـذ، متجنبـين - كمـا لـو أن يفهـم ضمـني- البـيرة كي لا يضطـروا لتكـرار زيـارة دورة الميـاه.. كان هنـاك جهـاز سـتيريو يبـث عليهـم الموسـيقى مـن سـماعات وزعـت في أركان الصالـون الأربعـة، لكـن لـم يكـن أحدهـم يسـتمع إليهـا.. قضـوا سـاعة كاملـة في الأكل والـشرب والثرثـرات المنوعـة مـن هنـا وهنـاك.. كانـت الفتاتـان ترتديـان لباسًـا بسـيطًا: قميـص وتنـورة. فكـر طاهـر: اسـتعداد ظاهـر لسرعـة إزالـة العوائـق!

كانـت سـلوى ترتـدي قميصًـا أصفـر فاقعًـا ينسـجم تمامًـا مـع تنورتهـا وشـعرها الأسـودين، وكان يضفـي شـحوبًا محببًـا عـلى لـون بشرتهـا.. إلا أن قميـص عاطفـة الأزرق كان أكـثر انسـجامًا مـع تنورتهـا الداكنـة.. وكان لونـه يضفـي بهـاء زائـدًا عـلى لـون وجههـا البهـي.. ربمـا تصـورت أنـه يحـب اللـون الأزرق مـن رؤيـة سـتارة الصالـة وسـجادته.. ولهـذا فقـد راح يثـني عـلى لبـاس سـلوى بـلا حسـاب..

عندمـا لـم يبـق لديهـم مـا يتحدثـون بـه.. نهـض واتجـه إلى المائـدة فأخـذ زجاجـة نبيـذ لـم تفتـح وضعهـا في دلـو ثلـج وحملهـا إلى الغرفـة الـتي خـرج عليهـم منهـا.. وعـاد فأخـذ ثلاثـة كئـوس نظيفـة مـن المائـدة وذهـب بهـا إلى الغرفـة أيضًـا.. ولمـا خـرج، وقـف عنـد بابهـا قائـلًا:

- برأيكم هل نرتاح قليلًا؟

رغم الشجاعة وعدم المبالاة التي كانت عاطفة تتظاهر بهما، أحس بارتباكها عندما نهضت، وكانت البسمة التي رسمتها على وجهها ظاهرة الافتعال.. بينما بدت له سلوى أكثر تماسكًا، وأكثر طبيعية.. أفسح لهما كي تدخلا، وأسرع يدخل ليواجههما كي يدرس انطباعيهما الأولين وهما تريان مذبحهما..

صدق الوعد! أزف الموعد! دقت الساعة! وهذا زمان الجد! لا مكان للتراجع والهرب بعد! ولكن لم التراجع، ومم الهرب؟

- تفضلا استريحا.

لم يكن ثمة مكان للاستراحة غير السرير، وفهمتا فجلستا هناك.. صب نبيذًا وقدم لكل منهما كأسًا.. لم يرفع كأسه، وإنما جلس على الأرض قرب حافة السرير حيث كانتا تجلسان، فخلع حذاءيهما، ولاحظ لأول مرة أنهما لم تكونا تلبسان جوارب.. وطاب له أن يمسح ساقي كل منهما.. أن يمسدها وأن يداعبها بأصابعه.. وأغرته نعومتها بأن يتفحصها بشفتيه أيضًا.. لما وجدهما انبهرتا، توقف فجأة، ونهض فمضى إلى كأسه ورشف منها وعاد إليهما.. وجه خطابه إلى عاطفة التي كانت تجلس قرب أدنى السرير:

- ألم تجدي مكانا في سرير بهذا الاتساع؟.. اصعدي لتلك الجهة وارتاحي جيدًا..

وتبعهـا فصـار بينهمـا.. قبـل هـذه وعانـق تلـك، وانزلـق رويـدًا رويـدًا فجـر عاطفـة معـه حـتى تمـددا، في حـين تـرك سـلوى جالسـة لا تـدري مـا تفعـل.. فأخـذت ترشـف مـن كأسـها وهـي تتفـرج عليـه.. بـين القبـل والمداعبـات خلـع قميـص عاطفـة ثـم تنورتهـا.. وعندمـا رأتهـا سـلوى تجـردت هـي الأخرى مـن ملابسـها..

بعـد خروجـه مـن الحمـام وجـد عاطفـة جالسـة تحتضـن سـاقيها.. فيمـا كانـت سـلوى تغفـو وقـد انتظمـت أنفاسـها.. انحـنى عليهـا فقبلهـا، إلا أنهـا بقيـت مسـتغرقة في النـوم.. مـدت عاطفـة يدهـا وهزتهـا قائلـة:

- مـا هـذا؟. هـل جئـت هنـا كي تنامي؟ قومـي يـا بنـت.. نامـي في البيـت كمـا تشـتهين.

***

أوصلهمـا إلى البـاب، وأغلقـه وراءهمـا. صعدتـا إلى السـيارة وبقيتـا تنتظـران حـتى جـاء السـائق، فحبسـهما في الظلمـة وانطلـق بهمـا. وفي البيـت وجدتـا الأم تـشرب كوكتيلهـا أمـام التلفزيـون..

كانـت قـد خمنّـت النتيجـة الإيجابيـة لمغامرتهمـا اليـوم مـن تأخرهمـا.. وعندمـا رأت وجهيهمـا أيقنـت مـا حصـل فلـم تتعجـل التفاصيـل متجنبـة إحراجهمـا تاركـة لهمـا أن تقصـا مـا تريـدان.. قالـت إنهـا اسـتغلت غيابهمـا فأعـدت العشـاء.. ولابـد أنهمـا جائعتـان فالسـاعة تجـاوزت الثامنـة.. قامـت لتعـد

المائدة، ولما أرادت عاطفة مساعدتها صرفتها قائلة باسمة:

- تفضلي اجلسي.. فأنت مرهقة.

وألحت سلوى على مد يد العون ولكنها رفضت كل مساعيها بحزم.. هيأت المائدة ودعتهما، فتحلقتا حولها.. نظرت عاطفة إلى سلوى وقالت:

- نبيذ أو بيرة؟

وضحكت، فانفجرت سلوى معها، ثم قالت:

- لاء عيني.. ما زلت دائخة بسبب الخمر.. اليوم شربت بقدر ما كنت أشرب خلال سنة.. وشربت نبيذًا لم أكن أشربه إلا بالسنة مرة أو مرتين.

فبقيت الأم تنقل نظرها بينهما باسمة، ولم تتركاها تنتظر طويلًا.. وراحتا تقصان عليها وقائع عصر اليوم وغروبه.. وفي سباق كل منهما لتروي جانبًا من القصة لم يبق أمر مستور..

أعلنت الأم مرتاحة:

- أعتقد أننا سوف نرى سرعة حسم القضية.

14

لما دخل طاهر البيت، بعد عودته من توصيلهما،

أحس بالارتياح.. لم يقل للفتاتين طبعًا إنه يصرفهما لأنه تعب وإنما طرح التبريرات الأخرى.. ألقى نظرة على مائدة الطعام فوجدها مغطاة بالورق كما تركها عندما صب كأسي النبيذ الأخيرين، فأخرج الطعام ونقله إلى الثلاجة، وترك الشراب والكئوس كما كانت، عازمًا على أن يرفعها ويجمعها حين يستيقظ، إن استيقظ مبكرًا، وإلا فإلى يوم آخر..

بدأ يخلع ملابسه وهو بين الصالة وغرفة النوم، وانطرح على فراشه وسرعان ما غط في نوم عميق.

استيقظ في سواد الليل ولم يعاوده النوم.. شرب قليلًا وانطرح في فراشه مرة أخرى.. تأمل وقائع العصر والمغرب بعين فاحصة ناقدة، وعلى الرغم من اللذة والانتشاء اللذين حصل عليهما من لقائه الأخير، أدرك أنه في عمق أعماقه نال نشوة ولذة أكبر وأعمق مع نهى منه مع الفتاتين.. لم يكن خطأ منه إذن أنه استقبلها ثلاثة أيام هذا الأسبوع.. إنها، مع رغبتها الأشد وحاجتها الأكبر إلى لقاء الأجساد لم تستحث الأمور.. ربما ستفعل الفتاتان ذلك في اللقاء القادم.. ربما كان اندفاعهما اليوم - أو: أكان ذلك أمس؟ - انفعال من شعرتا أنهما غير مرغوبتين، أو أن حرصهما على نتيجة للدعوى وحده كان ما يسوقهما إلى إرضائه.. ربما.. ولكن مع ذلك، ففي الأمر شيء آخر لا يني يستهويه. أيضغط عليها هي أيضًا كي تفيض بالخفي مما عندها ولم تكشفه له بعد؟ لا يظنها بحاجة إلى ذلك.. ولكن ربما كان هو يحتاج..

وعندما وصلت أفكاره إلى هذا، وقد وجد نفسه لا يستطيع النوم، قام يشغل نفسه ببقايا وليمته..

بدأ من الحمامين فجمع البرانص والمناشف التي استعملت ووضعها معًا.. ووضع ملابسه الداخلية وملاءة السرير وأكياس الوسائد في الغسالة، ثم خرج إلى الغرفة.. «غدًا سوف تتدبر الخالة أمرها»..

رفع دلو الثلج وأخذه إلى مائدة الصالة.. ومن هناك رفع قناني الشراب وذهب إلى المطبخ فوضعها في الثلاجة.. عاد فأخذ الفواكه ونقلها إلى الثلاجة هي الأخرى.. ورجع مرة أخرى، فأخذ دلاء الثلج وأفرغها على مغسلة المطبخ، غسلها، ثم وضعها مقلوبة على لوح الرخام إلى جانب المغسلة.. جمع صحون المكسرات الصغيرة فأفرغها في الظرف الكبير، وأخذ الصحون إلى المطبخ وعاد فأخذ الكئوس وجاء بها.. ثم أخذ الصحون التي تجمعت فيها قشور اللوز والفستق إلى المطبخ حيث أفرغها في سلة الأوساخ..

أراد أن يعود إلى النوم، ولكنه فكر قليلًا وقرر أن يغسل الصحون والكئوس.. ثم فعل.. وجففها، ووضع كل شيء في مكانه في ترتيب ينم عن وسواس..

عاد إلى غرفة نومه ومنها إلى الحمام حيث صنبوري ماء المغطس وخرج يلقي نظرة على الصالون.. وجد على الأرض بعضًا من بقايا المكسرات فأهملها.. وخاطبها قائلًا:

- انتظري للغد.

أخذ حمامًا ساخنًا تمهل فيه، ثم خرج فجفف جسمه جيدًا. فرش ملاءة نظيفة وأشر ساعة المنبه على السادسة والنصف، وعاد إلى النوم.

***

استيقظ قبل أن يرن المنبه.. ارتدى ملابسه ووضع السيارة في مرآبها وخرج إلى الشارع.. تمشى قليلًا إلى الشارع العام.. وفي حوالي السابعة مرت سيارة أجرة فأشار لها وصعد فيها، قائلًا للسائق:

- شارع فلسطين رجاء..

وعندما توغلا في شارع فلسطين أعطاه عنوانه الدقيق، الذي وصله بعد دقائق. أعطى السائق أجرته، نزل من السيارة ودخل بيته. أعد فطوره المألوف، وفيما جلس يتناول الحليب أولًا، ثم البيض والعسل، ترك ركوة القهوة على النار.. وذهب إليها مرة أو مرتين كي يخدمها.. وأخيرًا عاد بها إلى مجلسه فأخذ يرتشف بانتظار سيارته الرسمية.

كان قد عود السائق على المجيء إليه قبل الوقت اللازم بنصف ساعة.. فإن لم يكن يحتاجه كان يتركه ينتظر، وفي أحيان قليلة كان يمر في الصباح الباكر لإنجاز بعض الأعمال.. اليوم يريد أن يمر على «خالته» ليخبرها بالذهاب إلى بيته الثاني..

سمع صوت السيارة وهي تتوقف أمام الباب.. فخرج إليها دون انتظار. صعد وأوصى السائق بأن يأخذه إلى بيت خالته. كان يعرف أنها تستيقظ مع صلاة الفجر ولا تعود إلى النوم إلا ظهرًا.. لذلك فلا حرج عنده من إزعاجها.. إنها تمر على بيته يوميًا، وتأخذ معها عاملة للكنس والتنظيف وغسيل الصحون.. بينما تضع هي الملابس في الغسالة وتعد له الطعام إن كانت تجهيزاته ناقصة.. وإذا كانت تريد مشتريات كانت توصي نجمًا بشرائه وتسليمها للأستاذ ظهرًا.. ولكنها كانت هي التي تحاسبه..

وصل بيتها.. فتح الباب بمفتاحه متعمدًا إحداث ضجة كي لا تتفاجأ بقدومه.. جلس قليلًا، وقال لها:

- اليوم عندك البيت الآخر.

نظرت إليه نظرة تأنيب ولم تقل شيئًا.. وبقي قليلًا ثم استأذن وخرج..

***

وصل المحكمة في وقته المألوف كل يوم. وعقد الجلسة في العاشرة كالمألوف كل مرة. قدم كاتب المحكمة مجددًا خلاصة القضية وتكييفها القانوني. ذهب المجني عليه إلى مكتب المتهم ليستمهله في دين عليه. دعاه إلى الجلوس وقدم له فراش المكتب شايًا ثم انصرف إلى مهمة أرسله فيها المتهم خارج المكتب. بعد نحو ربع ساعة من دخوله المكتب قتل، بمسدس المتهم. وصل الشهود فرأوا

المتهـم واقفًـا إلى جانبـه، والمسـدس في يـده، وهـو ينقـل بـصره بـين القتيـل وبـاب المكتـب.

يـرى الادعـاء العـام أن النقـاش بـين المجـني عليـه والمتهـم قـد احتـد، وربمـا هـدد المجـني بأنـه لـن يدفـع شـيئًا، فسـحب المتهـم مسدسـه وأطلـق منـه ثـلاث رصاصـات قتلـت المجـني عليـه في الحـال.

وكان رد المتهم كالآتي:

«عندمـا جـاء المتهـم كنـت أقـوم بتنظيـف مسـدسي، كمـا أفعـل عـادة، وقـد جلـس وقدمـت لـه الشـاي وتحدثنـا عـن دينـه لي، وطلـب إمهالـه ثلاثـة أشـهر قبـل تقديـم الكمبيـالات للخصـم.. وعندمـا ألححـت عليـه للتسـديد لأنـني أحتـاج إلى سـيولة نقديـة اقـترح أن يسـحب هـذه الكمبيـالات ويعطيـني كمبيالـة جديـدة بمبلـغ أكبر لمـدة دفـع أطـول.. غضبـت منـه وعاتبتـه لأن هـذا معنـاه أنـني آخـذ الربـا، لأنـه لا يصـدق كلامي مـن أني محتـاج إلى النقـد حاليًـا.. كنـت قـد أنهيـت تنظيـف المسـدس وتزييتـه.. فمسـحته جيـدًا بقطعـة قمـاش مخصصـة لـه، ثـم عبـأت مشـطه، وأمنّتـه، ووضعتـه عـلى منضـدتي، ونهضـت لأفتـح الصنـدوق الحديـد وأضعـه فيـه، فسـمعت وقـع أقـدام خلفـي واسـتدرت قبـل فتـح الصنـدوق. رأيـت رجـلًا لا أعرفـه (وقـد قـدم المتهـم أوصافًـا لهـذا الشـخص المزعـوم) قـد دخـل المكتـب ووصـل إلى المنضـدة وأخـذ المسـدس فوجهـه إلى الضحيـة وأطلـق عليـه ثـلاث رصاصـات.. انصعقـت في البدايـة ولكنـني تحركـت نحـوه بعـد أن أطلـق

الطلقة الثانية فأطلق الثالثة ورمى المسدس نحوي وخرج من المكتب».

وبذلك برر المتهم موقفه ووجود المسدس في يده عندما دخل الشهود.

ونظرًا لعدم وجود شاهد على قيام المتهم بالقتل، وللإيضاحات التي قدمها المتهم نفسه، طالب محاميه ببراءته. وعندما انتهى الكاتب من القراءة، التفت الحاكم إلى ممثل الادعاء متسائلًا:

- هل عند الادعاء العام ما يضيفه؟

- كلا، يا حضرة الحاكم.

والتفت القاضي إلى ممثل الحق الشخصي متسائلًا، فنهض هذا وألقى خطبة امتازت بالطول والطنطنة.. وفي ما عدا ذلك كانت تافهة فارغة.. فلم يقدم دليلًا على ارتكاب المتهم القتل غير أن القتل وقع في مكتبه وبمسدسه.. واستهلك من وقت المحكمة نحو نصف ساعة في خطابة إنشائية تافهة يزعم أنها تبين دافع القتل، وهو الدين الذي للمتهم على الضحية..

وكانت فرحة طاهر طاغية عندما انتهى المحامي من مرافعته، إذ أعلن رفع الجلسة - حتى قبل استقرار المحامي في مقعده - معلنًا التأجيل حتى السبت القادم.

***

وقضى طاهر أمسيات الأسبوع كله مع نهى، وكأنه نسي الفتاتين تمامًا.. وإذا كان أفرحها اهتمامه الزائد بها، ووصاله لها، واعتبرت ذلك ترجيحًا لها على الفتاتين.. فقد كان يؤلمها أن ترى طقوس التفتيش لم تتبدل.. كما لا يتبدل التعتيم على عنوان المنزل.. وعندما كان يتراءى لها أنه يرى فيها أشياء تلذ له أكثر مما عند الفتاتين، بل وغيرهما من النساء أيضًا، فإنها كانت تتذكر قسوته التي يحاول التستر عليها في معاملته لها.. لا في إهمالها التام، الفظ أحيانًا، قبيل انصرافها، فقط، بل حتى في لحظات الوصال.. ولاحظت أن قسوته تتركز على صدرها وفرجها.. بل إنها اصطادت نظرات اشمئزاز منه إليهما مرات..

ومع ذلك، فقد صارت في هذه الأثناء تأتيه محملة بالهدايا.. جاءته بعشرة أربطة عنق دفعة واحدة.. وقدمت له ساعة رولكس أخرى، وكانت زجاجة جن وزجاجة زنزانو رفيقاتها في كل زيارة..

كما صارت تعنى بترتيب البيت قبل الانصراف.. ولما عرفت أنه يبدل طاقم الفراش والحمام وملابسه الداخلية بعد كل لقاء، صارت تحرص على جمعها.. بل أرادت مرة أن تغسل الملابس بنفسها إلا أنه صرفها عن ذلك بخشونة.. وإن كان تذرع بأنه لا يريد لها التعب.

***

وانعقدت الجلسة الأخرى.

قدم محامي الدفاع طعنه في أدلة الاتهام، وكان بارعًا.. قال إنه لا يريد التوقف طويلًا عند الادعاء بوجود تصميم ونية مسبقين، وتعمد في قيام المتهم بالقتل- على فرض أنه القاتل- لأنه يبدو أن الاتهام سحب هذا التكييف.. وهو قد كتب الرد مطولًا في مرافعته وسيقرأه الحاكم الموقر، لكنه يكتفي بالإشارة إلى أن وجود الضحية في مكتب المتهم دليل على انتفاء التصميم، لأن من ينوي القتل يفترض أن يذهب إلى ضحيته.. أما الادعاء بأنه استدرج الضحية إلى مكتبه فهو مجرد ادعاء، تصور، وإلا فالمطلوب من جهة الاتهام إثباته.

ثم انتقل ليفند لب القضية:

«لا يعقل أن يكون الإسراع باسترداد الدين هو الباعث، لأن إجراءات الدعوى ستؤخر السداد من جهة، ولأن شخص كالمتهم مشهودًا له بحسن السيرة والسلوك ونصاعة ماضيه الاجتماعي والتجاري يجعل مجرد تصور الأمر على هذا النحو مضحكًا. وينطبق الكلام نفسه على كون مجرد استرداد الدين باعثًا».

ثم نفى المحامي أن يكون المتهم هو القاتل لسبب بسيط جدًا.. قدم للمحكمة نسخة من شهادة فوزه بمسابقات الرمي على أفراد دورته في كلية الاحتياط، والتي كانت السبب في إهدائه المسدس، معززة بجدول الدرجات التفصيلية، وقد وضع دائرة بخط يده حول ما يتعلق بـ» السلاح الشخصي»، ووضع خطين أحمرين تحت حقلي

«التسديد البعيد» و«التسديد القريب» ودرجتيهما: 7. وأوضح لهيئة المحكمة أن أعلى درجة لمثل هذا الامتحان، لأن استيعاب المسدس هو سبع إطلاقات، وقد أفرغها المتهم جميعًا مرتين على أهداف الرمي: مرة في التسديد القريب وأخرى في التسديد البعيد.

وتساءل: «كان المتهم جالسًا على كرسيه وراء منضدته ينظف مسدسه - كما يدعي- أو استعدادًا للجوء إليه عندما تفشل مساعيه- حسب ما يزعم الاتهام، فلماذا لم يطلق النار عليه من مجلسه، وهو الهداف الممتاز بعيدًا وقريبًا؟ لماذا قام وجاء إليه - استغفر الله- لم يجيء إليه بل انحرف عنه ليذهب باتجاه الباب ثم يرميه من هناك؟ ولا تنسوا حضراتكم أن تقرير الخبراء والطب العدلي يقول إن الإصابات وقعت من بعد متر ونصف إلى مترين، وهي المسافة التي وجد الشهودُ المتهمَ واقفًا فيها».

ثم ألقى المحامي مفاجأة كالقنبلة: «أيد الخبراء أن المسدس نظف حديثًا قبل آخر إطلاق للنار منه مباشرة.. والمعروف أن شخصًا تعود بشكل أصولي على استخدام السلاح ينظفه تنظيفًا أصوليًا أيضًا.. فليس معقولًا أن ينظف بدن المسدس وزناده وداخل أسطوانته ويترك قبضته.. لقد وجدت دائرة التحريات الفنية أثر جزء من أصبعين على أخمص المسدس، لا يعودان إلى المتهم، ولا إلى الضحية.. ولم يمس المسدس أحد بعد أن رآه الشهود في يد المتهم.. إذن فقد كان هذا الأثر انطبع قبل أن يقع المسدس في

يد المتهم.. ليس من شغلي أن أتساءل أثر مَن كان هذا؟ فإن الشرطة إما لم تبحث عنه لأنها وجدته غير مهم: وإما أنها بحثت وعجزت. ولا شك أن جهة الاتهام أحست بوطأة هذا النقص في إجراءاتها فهي أغفلت الأمر تمامًا في مطالعتها.. وربما كان اهتمام زميلي ممثل الحق الشخصي بوصف لوعة عائلة المرحوم المجني عليه ناتجًا عن اعتباره ذلك أهم من تفسير هذه المسألة لنا».

ثم، بدون تمهيد، ودون أن يختم مرافعته بطلب البراءة لموكله - فقد كان طلب ذلك أثناءها، اكتفى بحركة مسرحية وهو يلقي سؤاله بصورة أكثر مسرحية:

- لم تثبتوا على المتهم شيئًا، وهو يدعي بأن القاتل شخص آخر أعطاكم بعض صفاته. فلماذا لا تبحثون عنه؟

وعاد إلى مقعده جالسًا دون أن يحيي أو يشكر.

لقد سحر المحامي طاهرًا باختصاره، وتركيزه على ما هو جوهري.. مع أنه سبق له أن ترافع أمامه في قضيتين أو ثلاثَ، وكان ذلك أسلوبه دومًا. لكنه سرعان ما انتبه إلى نفسه، وإلى جو الانتظار الساكن الذي خيم على قاعة المحكمة، فانحنى قليلًا إلى أمام، وبدأ الكلام بسؤال المتهم إن كان عنده ما يريد قوله قبل جلسة إصدار الحكم، فنفى المتهم شاكرًا. ثم تحدث الحاكم:

- أشكر للسيدين ممثلي الادعاء والدفاع تعاونهما والتزامهما حدود القانون وأصول المحاكمات والقواعد

الخلقية أثناء جلسات الدعوة، وأسأل الله الصبر والسلوان لعائلة المجني عليه، وأرجو أن تقرأوا معي عليه سورة الفاتحة.

وخيم الصمت مرة أخرى على قاعة المحكمة، فيما كان الحضور يقرأون الفاتحة.. ثم مسحوا على وجوههم بعد الفراغ منها. فأضاف الحاكم:

- ترفع الجلسة إلى السبت الأول من تموز القادم لإصدار الحكم.. رفعت الجلسة.

***

طلب طاهر في اليوم الغد نهى.

جاءته وقد تخففت من كثير من همومها، فقد بدت واثقة من انتهاء القضية على خير، وكانت عازمة على أن تقدم لطاهر ما يريد.. بل كانت قد فكرت مع نفسها في إتحافه بمفاجآت غريبة علَّ إحداها تطيب له.. ولكنه اكتفى بأن سألها:

- ماذا قدمت للمحامي؟

فقالت:

- أجرته المعروفة بحدها الأدنى.. خمسة آلاف دينار.. لكنه في الحقيقة لم يرد أن يأخذ وافق أن يأخذ أقل.. لا بد أنك تعرف أنه صديقنا.. كان صديق المرحوم زوجي الحميم، وساعدنا على اختيار محامينا للأعمال.. وهو يحب حامد

كثيرًا ويعزه.. من الطبيعي أني سأقدم له هدية مناسبة بعد.

وتوقفت لتصوغ كلامها بحيث لا يستفزه قفزها إلى النتائج، حتى وجدت التعبير المناسب:

- بعد ما تنتهي المحاكمة على خير إنشاء الله.

فقال لها:

- أعرف هذا كله، وأنا لا أسأل عنه.. ماذا قدمت له خارج هذا الظاهر؟ هل قمت بزيارة بيته أم زار بيتك؟ دخلت فراشه أم دخل فراشك؟ أم أنه لم تعد تستهويه نساء في مثل عمرك بعد ما شاخ هو؟

أذهلها تصوره، وألجمها الحقد الذي تبدى في لهجته، ولكنها كتمت مشاعرها، وتظاهرت بالضحك وهي تقول:

- هل أصبحت تغار؟ لا يوجد أي شيء من هذا، ولا أتصور أن الرجل له مزاج لذلك.. وحتى لو كان عنده مزاج، لا أعتقد أن له طاقة.

وازداد ضحكها. إلا أنه لم يكن يمزح.. وأنهى اللقاء ببرود..

وطلب الفتاتين من الاثنين إلى الجمعة في الأسبوع الأول ومن الأحد إلى الأربعاء في الأسبوع الثاني.. أنهكهما بحيث نسيتا أيامهما الأولى معه.. وما كانت إحداهما تجد منه رقة وحنانًا فتأمل باستعادة شيء من تلك الأيام حتى كان ينقلب إلى صخرة باردة.. وفي أحد الأيام بقي خمس ساعات كاملة

يفعل ما يحلو له مع عاطفة دون أن يلتفت إلى سلوى أو يمسها.. وعندما تعرت وأرادت أن تشترك معهما رفض، بل رفض أن تمسه أو تمس عاطفة.. وعندما انتبه إلى عريها ألزمها بالنزول عن السرير، وأن تجلب كرسيًا فتجلس عليه وتتفرج من بعيد.. وفي يوم آخر فعل الشيء نفسه بعاطفة.. إذ كرس وقته وجهده لسلوى، بينما حجر عليها.

وفي يوم الأربعاء طلب منهما أن تلعبا إحداهما بالأخرى، وصار يساعدهما قليلًا أحيانًا.. انتبهت الأم إلى حزن الفتاتين وارتباكهما.. وعلمت كل شيء.. فتوجسن جميعًا من تأثير ذلك على سير القضية.. ولم يكن في أيديهن غير التسليم والانتظار.. لقد انتهكهن جميعًا وابتلع عشرات الآلاف من الدنانير ولا أحد يدري أي حكم سيصدر! جميل أن يصدر حكمه بالإدانة بعد كل هذا..

اتصل بها صباح الخميس وطلبها للساعة العاشرة من الصباح نفسه، فذهبت كعادتها في زياراتها الأخيرة.. حاملة معها زجاجتين وفي حقيبة يدها زجاجة كولونيا مغلفة بورق جميل وشريط أجمل.

سألها:

- هل بإمكانك أن تباتي هنا الليلة؟

فاجأها السؤال فتلكأت في الإجابة حتى يستقر تفكيرها على شيء. لم تكن تفكر في الفتاتين والقلق الذي ربما سينشأ عندهما، لأنها سبق أن هيأتهما لمفاجأته، وخاصة

بعد سلوكه معهما في الأسبوعين الأخيرين.. وكانت مستعدة لتحمل سوء معاملته وبروده معها.. كانت تخشى أن يلجأ إلى القسوة معها.. وما كانت لتمانع في أن يمارس قسوة أثناء ممارسة الجنس، فلم تكن جربت ذلك قبلًا.. وحتى إن لم تعجبها، فإن بمقدورها أن تتحمل.. قطع عليها تفكيرها:

- إذا يصير إحراج أمام البنات فأنا لا أريد أن أحرجك.. لا داع لذاك.

أحست بكل رقته السابقة، فهفا قلبه إليه مرة أخرى، وتغلبت على القلق والخوف:

- لا.. لا.. يمكنني أن أجد لهما تبريرًا.. في الحقيقة أنا كنت حائرة لأن طلبك فاجأني.. طبعًا أتمنى أبات معك.. لكن اعذرني.. إذا كنت تعتقد أنه بعد ما تصدر حكمك لن نلتقي وأن علاقتنا تنتهي فأنت متوهم.. أقصد طبعًا إذا كان حكمك ببراءة حامد.. فأنا أشعر بتعلق بك، ولن أقول أكثر حتى لا تتصورني أتملقك.. أنت أعدت إلي شبابي، وهذه لن أنساها لك.

فقال، ولم يصدق حرفًا من كلامها:

- صحيح.. ولكننا انتهينا.. وسوف تباتين الليلة.

وباتا تلك الليلة معًا.. ونسيت نفسها في غمرة رقته، فتجاوزت نفسها في الحرص على إشباع رغبته، بل صارت تخلق له رغبات تتخيلها هي، وتحققها.. ولما انتهيا من الإفطار في الصباح التالي وعادا إلى غرفة النوم، عاودتها

وساوس أنه ربما يكون قرر إصدار الحكم في غير صالح ابنها، وأنه تصرف على ذلك النحو مع الفتاتين وقد شبع منهما، إيذانًا بالقطيعة، فحاولت محاولتها الأخيرة في إصلاح الأمور، وكانت تلك المحاولة تنطوي على رغبة قديمة عندها هي لم يجرؤ أحد على تحقيقها له.. تركته هو يتحرش.. وتأخرت كثيرًا حتى استجابت وبدأت بالمشاركة.. وعندما بدأت فيها كانت تعلم أن ما تريد تحقيقه قد يؤذيها كثيرًا..

ساقت اهتماماته إلى مؤخرتها، وركزت مداعباته على ردفيها وما بينهما.. ومدت يدها إلى حقيبتها فأخرجت «كريمًا» لتلطيف البشرة دهنت به عضوه.. ثم أعطته العلبة.. فتلقفها وكان قد استهواه الأمر.. وعندما اخترقها هذه المرة استغرب أنها لم تتألم.. بل لم تند عنها أية نأمة.. ولكنه لما سقط فوقها مرهقًا في آخر الجولة، وجدها تعض على الوسادة وقد كتمت فيها كل وجعها.. فرثى لحالها.. وقبلها قبلة تعاطف أكثر مما هي قبلة رضا أو حب.. فالتفتت إليه باسمة مشعة.. ثم أكدت له في مجرى الحديث أن ذاك الوضع جعلها تستمتع كثيرًا..

ناما قليلًا، وبعد الغداء قاما بجولة سريرية أخرى، بدأ بعدها يستعد لإنهاء اللقاء فأخذت زمام المبادرة.. قامت فجمعت الصحون والكئوس وغسلتها وجففتها. أعادت ما يعاد إلى الثلاجة ثم عادت إلى الغرفة فوجدته قد استحم وقد بدأ الآن في ارتداء ملابسه.. دخلت الحمام واغتسلت هي

الأخرى.. جففت نفسها جيدًا، وجمعت الملاءات، وأكياس الوسائد التي وجدتها متسخة هذه المرة.. فوضعتها في سلة الغسيل، وجمعت المناشف في سلة أخرى توجتها بالبرنص الذي كانت ترتديه.. وعندما دخلت عليه الغرفة كانت عارية تمامًا.. جلس يراقبها وهي تلبس ملابسها.. ولفتت نظرها نظرة حقد أو كراهية رمى بها ما بين فخذيها، حتى تصورته سيبصق عليها هناك.

15

باسم الله وباسم الشعب أفتتح الجلسة..

بعدما جلس الحضور، طلب من الكاتب الأول قراءة قرار المحكمة.

بدأ الكاتب يعرض الأحداث من الإبلاغ عن الواقعة إلى إجراءات الشرطة إلى التحقيقات وإفادة المتهم وشهادات الشهود، ثم انتقل إلى مرافعتي ممثل الادعاء العام ومحامي الحق الشخصي ثم محامي الدفاع..

استغرق أكثر من ساعة، شرب الماء خلالها ثلاث مرات.. علق طاهر مع نفسه:

- ما كان فطورك اليوم؟

كان يضع كل ورقة يقرأها مقلوبة على طاولة أمامه، ولكنه عندما فرغ، كانت بيده لا تزال حزمة ورق دسمة.

كان طاهر متضايقًا فرفع الجلسة نصف ساعة للاستراحة.. ولكنه كان يفكر في مظاهر يراها ضرورية أيضًا تستدعي التأجيل.. كما كان يتلاعب بما تبقى من أعصاب أم حامد خصوصًا..

وانعقدت المحكمة مرة أخرى.. وبدأ الكاتب يقرأ قرار التجريم..

فيما كان أعضاء هيئة المحكمة والمحاميان يجلسون غير مبالين، كان المتهم وأهله، وأهل القتيل ينتظرون أن يسمعوا الحكم، فكانوا متوثبين.. ولكن، إذا بالكاتب يقرأ ما سبق أن قرأه مضافًا إليه هذه المرة أرقام مواد وفقرات، وخصوصًا من الإفادات والشهادات، فكان باعثًا على ملل أكثر، وعامل طحن أشد للأعصاب حتى وصل إلى لب القرار..

«وعليه قررت محكمة جزاء بغداد - الرصافة، بقرارها المرقم ج أ/6/ 3315 بتاريخ 5/7/ 1965 ما يلي:

قرار

باسم الله، وباسم الشعب

1- لم يثبت قيام المتهم حامد محمود بسطام بقتل المجني».

وانبعثت زغرودة شعبية، كأنها تأتي من أعمق أعماق أزقة بغداد القديمة. تفحص طاهر الحضور، فوجد نهى واقفة، يدها على فمها كي تكسر صوتها.. دق على المنصة أمامه وحذرها:

- الرجاء من الحضور احترام المحكمة.. إذا تكرر هذا سأضطر إلى اتخاذ إجراءات أخرى.

وواصل الكاتب القراءة، فذكر اسم المجني عليه والمادة القانونية التي اعتمدتها المحكمة.

وأضاف:

«2- تـوصي المحكمـةُ هيئـة الادعـاء بالإيعـاز إلى الشرطـة بالبحـث والتحـري عـن الشـخص الـذي ادعى المتهـم وجـوده لحظـة القتـل في مكتبـه، والـذي يتهمـه بأنـه الفاعـل، والـذي - إن صـح ذلـك- يحتمـل أن يكـون صاحـب آثـار طبعـات الأصابع المذكـورة عـلى أخمـص المسـدس.

3- إطلاق سراح المتهم حامد محمود بسطام»..

وكان دور شـاب ضخـم الجثـة يجلـس بـين أفـراد عائلـة المجـني عليـه، للاعـتراض هـذه المـرة:

- « هذا ليس عدلًا.. لا أحد غيره قاتل.

فدق الحاكم مرة أخرى، وصاح مغضبًا:

- عندمـا حـذرت، لـم أحـذر طرفًـا معينًـا.. حـذرت الـكل.. اتـرك قاعـة المحكمـة فـورًا.

وعـلى الفـور تقـدم شرطيـان مـن ذلـك الشـاب، فلـم يجـد أمامـه غـير أن يرافقهمـا إلى الخـارج.

وكرر الكاتب:

«3- إطـلاق سراح المتهـم حامـد محمـود بسـطام عـن التهمـة الموجهـة إليـه في الدعـوى المرقمـة والمؤرخـة أعـلاه.

4- الحكـم عـلى المتهـم حامـد محمـود بسـطام بالحبـس ثلاثـة أشـهر لحيازتـه سـلاحًا غـير مجـاز، بموجـب المـادة.

لقد قدرت المحكمة أن السلاح هدية من جهة رسمية، وأخذت بنظر الاعتبار حسن سلوك المتهم وعدم وجود شائبة تمس ماضيه، لذلك لم تحكم عليه بالعقوبة القصوى للمادة المذكورة.. ولكنها تنبه المتهم إلى كون المُهدي جهة حكومية لا يعفيه من استحصال إجازة لحمل سلاحه، ولا تأخذ المحكمة بدفع محامي الادعاء من أن المتهم كان يحتفظ بالسلاح داخل محل عمله. كما أن المحكمة أخذت بنظر الاعتبار أن السلاح استخدم لارتكاب جريمة قتل فعلًا، لذلك تجد أن الحكم عليه بعقوبة أخف، أو بمجرد الغرامة، لا يفي بالقصد التأديبي التربوي الذي يراد من القوانين، فلعل ذلك يكون رادعًا للمتهم ولغيره ممن يطلع على هذه القضية من تداول أسلحة غير مجازة أو التصرف بها بشكل غير مسئول».

وما أن انتهى الكاتب من قراءة الحكم، حتى نهضت نهى مرة أخرى وهتفت:

- يحيا العدل!

فقال طاهر:

- حكمت المحكمة على هذه السيدة.. تعالي هنا!

فتقدمت نحوه:

- اسمك؟

فقالت وهي لا تزال تبتسم:

- نهى محمد.

- حكمت المحكمة على السيدة نهى محمد بغرامة مالية قدرها مائة دينار لعدم مراعاة احترام المحكمة، على أن تدفع فورًا لصندوق المحكمة، وعند عدم الدفع تودع السجن لمدة يومين. رفعت الجلسة.

ورأى الشرطيين إياهما يقتربان من نهى، بينما كان يغادر قاعة المحكمة.

***

كان يلملم أوراق مكتبه عندما حول كاتبه خط تلفون قائلًا:

- من رئاسة أركان الجيش.

أحس طاهر بمزيج من الخجل والغضب على نفسه. كان يتصل مرة في الأسبوع بعبد الرحمن عارف للسلام والسؤال عن الصحة.. فقد قلت لقاءاتهما في هذه الفترة.. وحتى عندما كان لا يجده فقد كان يترك له تحية أو مجرد خبر. ولذلك، فقبل أن يتكلم عبد الرحمن، وقبل أن يسلم هو، قال:

- أي شيء تريد تقول فهذا حقك.. اعذرني، ولكن الحقيقة كنت مشغولًا بدعوى ثقيلة وكنت غارقًا فيها. انتهت اليوم.. وكنت أنوي أن أتصل بك عصرًا.

- قدّرت هذا.. ولا تهتم.. المثل يقول: «من لا يأتي معك،

تعـال معـه».. أنـا لـم أتصـل لأعتـب عليـك.. هنـاك جماعـة يريدونـك عنـدي في البيـت اليـوم في السـاعة الثامنـة.. أنتظـرك. مـع السـلامة.

ورد التحية باهتًا مستغربًا.

لـم يسـبق لعبـد الرحمـن أن كلمـه بهـذه الرسـمية مـن قبـل، ولا كان حديثهمـا عـلى هـذا القـصر.. فالرجـل يحـب الثرثـرة.. خاصـة بعـد أن حرمـه منصبـه مـن لعـب الـنرد.. فمـن يكـون مـن يريـده يـا تـرى؟ ألعلـه الرئيـس..؟ هـذا أول احتمـال تبـادر إلى ذهـن طاهـر، وهـو أكـبر احتمـال.. ولذلـك قـرر الكـف عـن التخمينـات وتـرك الموضـوع إلى المسـاء..

في الثامنـة إلا ربعًـا كان في بيـت عبـد الرحمـن.. كان اسـمه موجـود في كشـك الحراسـة المنصـوب في أول الشـارع، فمـر بـدون تأخـير.. اسـتقبله عبـد الرحمـن مرحبًـا، وتهيـأ لـه أن البيـت خـالٍ تمامًـا.. ولـم يقـدم لـه شـيئًا يشربـه.. فقـدّر أنـه يـترك ذلـك حـتى قـدوم مـن طلبـه.. وجمـع في ذهنـه اثنـين مـع اثنـين وتوصـل إلى النتيجـة الحتميـة..

«إن حدسي الأول صحيح»..

في الثامنـة وعـشرة دقائـق دخـل عليهمـا رئيـس الجمهوريـة، ووراءه سـائقه وحـده، حامـلًا حقيبـة وضعهـا في وسـط الغرفـة وانسـحب صامتًـا كمـا دخـل..

اختـصر الرئيـس المجامـلات، وبفجاجتـه المعهـودة ذكّـر طاهـرًا بفضلـه عليـه، واسـتعداده في حينـه لتحقيـق مطلـب

أكبر له، واستعداده لذلك حتى الآن، ولم يترك لطاهر فرصة للشكر ولا لتأكيد أنه لا يريد شيئًا، وأنه راضٍ عن وضعه. وأضاف:

- في هذه الحقيبة إضبارة قضية أريدك أن تدرسها تمامًا خلال يومين أو بالأقصى ثلاثة. يجب أن تنتهي منها يوم الثلاثاء، وعند ذلك سيتصل بك أبو قيس ويحدد موعدًا لنتكلم في الموضوع.

- أمرك يا سيادة الرئيس.

- ممنون. مع السلامة.

وخرج كما دخل..

التفت إليه عبد الرحمن باسمًا، وقد اعوجت زاوية فمه اليمنى:

- يا الله.. كم أنت محظوظ!.. الرئيس جلب لك الحقيبة بيده، ولم يقل لي حتى ماذا يريد منك.. أرجو أن تكون واسطة لي عنده!

وأراد أن يذهب ليعد شايًا يشربانه، لكن طاهرًا اعتذر بأن عليه أن يذهب فيبدأ دراسته منذ اليوم، وهكذا تخلص منه مسرعًا.

***

فتح الحقيبة في بيته وبدأ يقرأ ويدوّن الملاحظات.. وقطع فيها شوطًا بعيدًا حتى غلبه النعاس. جمع القسم

المقروء ووضعه في الحقيبة منفردًا، بينما كان القسم الآخر مربوطًا داخل الإضبارة ما يزال. وضع الحقيبة في صوان داخل مكتبه، وأقفل عليها، وراح ينام.

وفي اليوم التالي عاد مسرعًا من المحكمة، وانكب على الإضبارة يستأنف دراستها.. حتى انتهى منها منتصف الليل. لم يكن عنده ما يشغله في المحكمة.. فأخذ أوراق ملاحظاته معه، وراح يدرس ويؤشر ويسجل ملاحظات جديدة، ووضع سؤالين لن يسألهما إلا إذا لم يجد في ثنايا الحديث القادم جوابًا عليهما..

وبدلًا من مساء الثلاثاء، كان جاهزًا لمناقشة الموضوع منذ ظهر الاثنين..

***

مع أن نهى كانت تعتقد أن طاهر انتهى منها ومن الفتاتين، إلا أنها كانت تداري أملًا في أن يتصل بها.. ولما لم يفعل الأحد ولا الاثنين، اتصلت به يوم الثلاثاء.. وأخبرته أنها تريد أن تراه لأمر مهم. تريث قليلًا، فوجد أن خير وقت سيكون عصر ذلك اليوم نفسه، كي يستطيع العودة إلى منزله وانتظار مكالمة عبد الرحمن منذ الثامنة.. ولذلك ضرب لها موعدًا في الرابعة.

جهزت نفسها وانطلقت إلى الموعد.. استقبلها في بيته بشكل رسمي جدًا، ولما مد يده مصافحًا أهملتها واحتضنته وعانقته طويلًا وهي تبكي.. ثم أطلقته ولاحظ أن وجهها

ضاحـك رغـم الدمـوع..

اعتـذر عـن موقفـه منهـا في المحكمـة، مبينًـا أنـه كان لابـد منـه، فضحكـت قائلـة:

- لا تهتـم.. أنـا أفهـم.. وإذا تريـد الحقيقـة.. صحيـح أنـني كنـت أعـبر عـن فرحـي إلا أنـني تعمـدت أيضًـا لأعطيـك فرصـة تعاقبـني حـتى تظهـر حيـادك!

فقرصهـا مـن خدهـا. كانـت قـد وضعـت الزجاجتـين عـلى الطاولـة.. وكانـت تفتـح حقيبـة يدهـا، عندمـا قـال لهـا:

- لدينـا وقـت حـتى السـابعة فقـط، لأن لـدي موعـد بمـكان آخـر.

أخرجـت مـن حقيبتهـا لفافـة، قدمتهـا لـه، وقالـت كمـن يعتـذر:

- وجـدت هـذه في أحـد المخـازن.. مـا رأيـت مثلها في الأسـواق الداخليـة سـابقًا.. أخذتهـا لك.

ولمـا فتحهـا وجدهـا زجاجـة كولونيـا «بـروت» متوسـطة الحجـم. شـكرها، قالـت:

- وشـغلي المهـم الـذي أخبرتـك عنـه بالتلفـون هـو أنـت.. جئتـك حـتى تصدقـني لمـا قلـت لـك أني أشـعر بالرغبـة بـك.. وقدمـت لـك نفسي عـن طيبـة خاطـر ورضـا.. والآن أنـا لسـت مضطـرة.

رأته جامدًا:

- قد تعتبرني جئت حتى أقدم شكري الأخير، ونصفي حسابنا.. هذا التصور غلط.. وحتى تتأكد من ذلك خذني الآن، واتصل بأي وقت تريد لتجدني تحت أمرك.

قبلها في فمها، وأخذها إلى الفراش.. وبعد قليل من الغزل والمداعبات قالت له:

- اليوم يومك، وليس يومي، خذ راحتك وافعل أي شيء تريده.

كانت تحدق في وجهه وفي عينيها نظرة فهم منها مغزى كلامها كما كان يحلو له. أخذها مرة أخرى من الخلف، ولاحظ أنها بلغت نشوتها، ولكن الذي لفت انتباهه أنه كان يفضل الأمر معها على ذلك النحو.. بل إنه قسا على مقدمها بقدر ما كان رقيقًا مع مؤخرها..

وبعد المضاجعة استلقيا يتحدثان ببراءة، حتى خطر لها خاطر، فقالت له:

- أعتقد أن الفتاتين لديهما الإحساس نفسه.. وأتصور أنهما ستفرحان إن جاءتا مرة أخرى.. أتريد أن تتصل بهما؟

- لا، شكرًا.

قالها بحزم.

- أو، إن كنت تريد سأسألهما وأتصل بك؟

أبو عبدو البغل

- لا، دعيهما تكون طبيعية.. إن كانتا ترغبان، أو واحدة منهما راغبة، لتتصل هي فقط رجاء.. بدون إلحاح منك أو

حتى طلب.

واتفقا على ذلك.

***

عاد إلى بيته منتظرًا اتصال عبد الرحمن.. وأخذ يفكر بالإضبارة إياها.. مجرم بالإشاعات! هكذا وصف مع نفسه المتهم في القضية.. أحد منفذي - وربما مخططي- أبشع جرائم التصفيات التي قام البعثيون بها، والذي دارت حوله الشكوك في أكثر من سبع جرائم حتى الآن دون أن تثبت عليه واحدة منها.. وحتى في القضية التي تضمها الإضبارة الحالية، لا يوجد دليل على أنه الفاعل.. وما المسألة كي يهتم بها الرئيس نفسه؟ ولماذا لا يقومون بتصفيته كما صفّوا غيره بلا ضجيج!

حوالي ظهر اليوم الثاني اتصل به عبد الرحمن، وطلب منه أن يكون في بيته في الثامنة..

جاء الرئيس وحده، وبعد أن سلما عليه ورحبا به جلس.. وبدأ بإلقاء محاضرته التي صارت مكررة على طاهر، عن اهتمامه به واستعداده لمساعدته والتزامه وإيصاله إلى المركز الذي يشاء.. فأجابه طاهر:

- سيادة الرئيس.. أنا مدين لحضرتك بما يكفي.. وحاضر للخدمة حسب أوامرك بلا أي مطلب خاص.. فقط حضرتك خبرني بالمطلوب، وإن شاء الله سأكون عند حسن ظنك.

فقال له:

- أحسنت. أريدك أن تتولى هذه القضية.

أراد طاهر أن يتكلم، فلم يدعه:

- أعرف.. هي تُنظر في كركوك.. سوف يصدر أمر بنقلك حاكم جزاء كركوك.. ولما تنهي الدعوى سترجع إلى بغداد بالمنصب الذي تريده.. هذا أولًا. وثانيًا، أريد إدانة الكلب ابن الكلب هذا حتى يعدم ونخلص من شرّه.

فقال طاهر:

- العفو، هذا الموضوع محسوم ومقرر أم قابل للنقاش؟

- ليس لدي موضوع محسوم ومقرر.. أنا أقرر.. قل طلباتك فحسب.. حتى أعطي أمرًا ليؤمنوها لك.

- العفو ليس هذا قصدي.. أقصد هل يمكنني أن أناقش الموضوع مع سيادتكم؟

- إي، إي.. تفضل.

- أولًا.. أنا، مثل أي حاكم آخر، لا أحب أن أدين، وعندما أدين لا أحب أن يكون هذا بالعقوبة القصوى.. وإذا سيادتكم ألقيتم نظرة على الأحكام التي أصدرتها سوف ترون البراءات أكثر من الإدانات.. والإدانات لا يوجد فيها إلا إعدام واحد.. ويعرف الجميع هذا الاتجاه عندي.. فكل المحاولات التي يمارسونها ضدي هي محاولات للتخفيف والبراءة مع أنه أنا لا.

- أعرف.. أعرف.. أنا قبل أن أختارك لهذه القضية طلبت من وزير العدل تقريرًا عنك.. التقرير يشهد بنزاهتك، وليس فقط بعدم خضوعك للضغوط بل أنك لا تعطي مجالًا لوصول أحد إليك.. هذه أعرفها، وأعرف أحكامك أيضًا.

- هذي القضية التي درستها لا تدين المتهم.. يعني أنا نفسي لم أتمكن أن أصل إلى حكم بإدانة المتهم.. لذلك لن أنفعكم إذا بقيت القضية هكذا.. إذا كان التخلص من المتهم مهمًا عندكم إلى هذا الحد، يمكنكم أن تتصرفوا معه بشكل آخر.. لأني على فرض قمت بإدانته.. وسيستأنف طبعًا، وعلى فرض أن محكمة الاستئناف أيدت حكمي، فهناك التمييز.. وهو طبعًا سوف يوكل محاميًا جيدًا يتابع مثل هذه الأمور.. يمكن أن تأمروا حاكم الاستئناف وحكام التمييز كما أمرتموني.. لكن أولًا: استجابتهم ليست مضمونة، حتى إذا أعطوا وعدًا، ثانيًا، حضرتكم تعرفون علاقات المهنة وارتباطات الصداقة وتأثيرات المحامين.. لأن القضايا المهمة الكبيرة ليست مقصورة على الإجراءات، وإنما العلاقات.. ثم لا تنسوا أن الحكام يراعون أسماءهم أيضًا.. هذا طبعًا إذا كنتم تطلبون رأيي.. إما إذا كان هذا أمرًا، فهذا شيء آخر.. حضرتكم أأمروا وما علينا إلا التنفيذ.. أما إذا ترون أنه يمكن أن أعطي رأيًا.. فرأيي حسب أمركم، أن أتولى القضية وأرى سيرها.. إذا استطعت إثبات شيء أثناءها طبعًا يدان، إما إذا بقيت بوضعها الحالي فلن يدان.. وطبيعي أني سوف

أبلِّغ حضرتكم قبل الحكم حتى..

فوجئ الرئيس بصراحة هذا الشاب.. ولكنه أعجب بجرأته في طرح رأيه.. «والجيد في الأمر أنه مستعد للطاعة، ولكنه يعطي رأيه ويدع المرء يقرر.. ليس مثل وزرائي المخانيث هؤلاء الذين يعرفون فقط أن يقولوا «أمرك سيدي»، ولم يعطوا رأيًا قط»..

ثم تكلم:

- رأيك جيد.. وما دام عندك آراء، ما شاء الله، كيف ترى سيكون حكم نقلك؟ هل لديك رأي خاص بهذا الموضوع؟

- ما هو وضع الحاكم الحالي؟

- الحاكم الحالي أخذ إجازته السنوية.. ومدير عدل المحافظة طلب نقله إلى مكان آخر.. طبعًا قدم أسبابه الخاصة.. لكنني أعرف أنها مجرد ذرائع، وهو يخاف.. الجبان لم يفكر أن يقدم شرحًا.

لم يقل له طاهر طبعًا: لمن يقدم الشرح؟ هل أتيحت له فرصتي؟ ربما كان سيشرح عندها. ولكنه قال:

- أقترح أن تجري الموافقة على نقله.. وفي أمر آخر مستقل، ينقل الحاكم أيضًا.. وبعد عشرة، أو إثني عشر يومًا يصدر أمر إعارة خدماتي إلى عدل كركوك مع تحديد مهماتي هناك بشكل محدد ومفصل.. حتى أعود بعد إنجازها. وستكون مهمتي - إن سمحتم - تنظيم دائرة عدل

كركوك، وستكون عندي صلاحية رئاسة محكمة الجزاء هناك حسب تنسيبي لتمشية الدعاوى المتأخرة.

- معقولة.. اكتبها حتى أعطيها لوزير العدل ينفذها.

جلب له عبد الرحمن ورقًا، فأخرج قلمه وسجل اقتراحاته بصيغة الأوامر الإدارية اللازمة، وسلمها للرئيس.. الذي أخذها فطواها ووضعها في جيبه دون أن ينظر إليها، وقال له:

- لن أوصيك أكثر.. فأنا أعتمد عليك، وعندما تعود اطلب مني أي شيء تريده.

- أريد سلامتكم فقط.

- شكرًا.. في أمان الله.

وقام منصرفًا، وبقي طاهر بعض الوقت مع عبد الرحمن، ثم قام وانصرف هو أيضًا.

***

وبقي فراشه مسرحًا للثلاث، يتناوبن عليه، ولكن باقتصاد محسوب.. وسمع في هذه الأثناء بصدور أوامر نقل مدير عدل كركوك، وحاكم جزائها.. ثم قرأها في الجريدة الرسمية، ووجدها صدرت بالشكل الذي اقترحه، فبقي ينتظر صدور أمره هو أيضًا.

في أحد الأيام قالت له نهى:

- أتعلم؟. كنت مصممة أن آخذ الفتاتين ونسافر من أجل إجراء العملية الجراحية الخاصة بالبكارة، ونرجع قبل انتهاء محكومية حامد.. لكن يبدو أن الفتاتين طابت لهما عشرتك الحلوة في هذه الفترة فطلبتا تأجيل السفر.. وبالفعل أجلته، وسوف نسافر مع حامد عندما يخرج بذريعة فترة النقاهة.

فاعتذر منها، ولام نفسه - أمامها- لأنه عرض على الفتاتين مرافقته في سفرته القادمة فقالت له:

- لا تلم نفسك، ولا تهتم.. ما دمت أنت والفتاتان تستمتعون، فاستمتعوا.. ليست مشكلة.. سنسافر مع حامد، وستدخل الفتاتان المستشفى بذريعة إجراء فحوصات.. لقد دبرت الموضوع مع وكيلنا بلندن ووعدني أن يرتب كل شيء بشرط أن أخبره قبل وصولنا بأسبوع.

***

عندما تسلم أمر إيفاده إلى كركوك، أبلغ كاتبه بأن يحجز له بالقطار على اليوم التالي، وبأن يكتب مذكرة للإدارة بانفكاكه منذ ذلك اليوم.. وكان أول ما فعله بعد وصوله كركوك بعد مقابلة المحافظ وتثبيت مباشرته هناك أن طلب رؤية مسكنه. أخذه أحد موظفي إدارة المحافظة إلى المسكن، ففتشه وأبدى بعض الملاحظات.. ولاحظ أن ثمة شخصًا كان يراقبه من خارج المنزل.. من أي نافذة كان يطل على الشارع كان يرى الوجه نفسه أمامه.. وعندما أكمل تفتيشه صرف الموظف الذي كان يرافقه طالبًا منه إبلاغ

السيد مدير الإدارة بأن هذه ملاحظاته، والمطلوب إكمالها لأن طاهر يريد جلب عائلته للإقامة معه نظرًا لعدم تحديد مدة مهمته.. وأضاف بأنه سيتجول هنا وهناك لمعرفة الطريق المؤدية إلى المنزل وللتعرف على ما يمكن من المدينة..

كان يأمل من وراء ذلك أن يلتقي مراقبه.. وهذا ما وقع فعلًا.. إذ ما أن فارقه الموظف حتى ظهر له ذلك الشخص واقترب منه، ثم بادره بلا تحية:

- سيد طاهر الحديثي؟

- نعم.

- عندي رسالة لك.

- تفضل.

- إما تتفضل ترجع إلى بغداد، أو إذا كنت مضطرًا ونظرت إلى القضية فيجب أن تحكم بالبراءة..

مع أن هذه كانت المرة الأولى التي يجابه فيها طاهر مثل هذا الطلب على هذا النحو.. فإنه لم يستغرب، لكنه اندهش من صفاقة من يطلبه أكثر.. وأدرك للفور أن هذا مجرد رسول، لأنه لا يمكن أن يكون أحمق على هذا القدر من قلة اللباقة هو الذي عرف بقدومه والسبب الحقيقي وراءه.. فقال له:

- أتعلم أنه كان بإمكاني اعتقالك عندما كان الموظف

معي.. لكنني أود أن أستمع للشكاوي فصرفته عمدًا حتى أستمع إليك.. لكنني أدركت أنك ليس لديك شيء.. فارجع وقل لمن أرسلك إني لم أسمع أي شيء، وإذا كانوا مهتمين بالموضوع ليأتوني مباشرة.. سوف أكون بعد الظهر في الفندق الذي أقمت فيه.. حتمًا يعرفونه ما داموا يعلمون بقدومي..

وأراد ذلك الرسول الفظ أن يتكلم فتركه طاهر دون أن يقول شيئًا.. عاد إلى مبنى المحافظة فمر على المحافظ وأخبره أنه أعد طلباته في ما يتعلق بالمنزل ورجاه متابعة الموضوع مع مدير الإدارة، وأن يبرق له عند إنجازها كي يلتحق فورًا.. وإذا كان مهتمًا بشأنه، ويريد أن يقدم خدمة شخصية فليتصل به تلفونيًا ليبلغه بذلك، وأعطاه رقم منزله.. فأكد له المحافظ أنه سيفعل.. ولما قام لينصرف سأله المحافظ:

- إلى أين؟

- سأمر على مدير الإدارة حتى أتأكد أنه تسلم قائمة النواقص وأذكّره بالموضوع، ثم أذهب إلى الفندق حتى أرتاح..

- تفضل اذهب لمدير الإدارة، وبعدها ارجع عندي.. لنخرج معًا.. فاليوم أنت ضيفي على الغداء.. عملنا حفلة صغيرة لك.

ولما أراد طاهر الاعتذار قال له المحافظ:

- هـذه دعـوة رسـمية لتتعـرف عـلى مسـئولي المحافظـة.. والـكل تبلغـوا!

فشـكره طاهـر وخـرج. مـضى إلى مديـر الإدارة، فتأكـد أنـه تبلـغ بطلباتـه، وعـرف أنـه بـاشر بإجراءاتـه وأنـه يتوقـع إنجـاز كل شيء خـلال ثلاثـة إلى أربعـة أيـام.. وأنـه - نظـرًا لاهتمـام السـيد المحافـظ- سـيحاول مـع المتعهـد الـذي كلفـوه بإنجـاز العمـل أن يخفـض هـذه المـدة.. فطلـب منـه طاهـر أن يخـبر المحافـظ شـخصيًا حـال الإنجـاز.. دون أن يوضـح بأنـه لـن يكـون موجـودًا..

وعـاد إلى المحافـظ، الـذي نهـض لاسـتقباله ولـم يعـاود الجلـوس أو يدعـوه إليـه.. فقـد كان ينتظـره للخـروج معـه مبـاشرة.. وأخـذه المحافـظ بسـيارته إلى نـادي شركـة النفـط، فوجـد مائـدة كبـيرة مقامـة في زاويـة مـن الصالـة الرئيسـية، لـم يكـن عندهـا أحـد.. ألقـى المحافـظ نظـرة فاحصـة، وهـز رأسـه علامـة رضـا، وابتسـم لمديـر النـادي الـذي أشرف عـلى إعدادها وجـاء الآن ليعـرف إن كان شيء آخـر يلـزم.. شـكره المحافـظ.. وبـدأ الضيـوف يتوافـدون.. وكان أهمهـم قائـد الفرقـة، الـذي جلـب معـه جهـاز قضائـه العسـكري.. كانـت جلسـة تعـارف.. وحفلـة أكل وشرب.. أكل فيهـا طاهـر أقـل طعـام وشرب أخـف شراب.. ولاحـظ طاهـر أن فـتى كان يجلـس في مواجهتـه تقريبًـا، لوحـده، قـرب بـاب الصالـة، كأنـه يراقبـه، منـذ أن كان وحـده مـع المحافـظ حـتى مقـدم مديـر الأمـن.. ثـم اختفـى فجـأة.. وعندمـا انـصرف قائـد الفرقـة، وانـصرف مديـر الأمـن مـع

ضابط ركن استخبارات الفرقة الذي كان يرافقه، عاود الفتى الظهور، واحتلال مقعده نفسه. كلما كان طاهر يلتفت صوبه كان يجده يحدق إليه كمن يدرسه، فشرع طاهر يدرسه هو الآخر.. إنه دون الثلاثين ولا شك.. ولكن بروز لثته العليا، الذي أدى إلى ارتفاع شفته العليا، ولون بشرته، خاصة لون بشرته، النفطي المائل السواد، الغريب والكريه معًا، كان كل ذلك يضفي عليه سنوات أخرى.. وفي ما عدا ذلك لاحظ طاهر أنه وسيم! عينان واسعتان لم يستطيع أن يميز لونهما من تلك المسافة وأنف مستقيم وشفتان جميلتا التقويس رغم أن ارتفاع علياهما كان يضفي على وجهه شكلًا مقيتًا.. وتتناسب أذناه مع بقية أجزاء وجهه حجمًا..

لاحظ طاهر أنه تعمد إفهامه بأنه يراقبه، ولكنه مع ذلك كان يتهرب من مواجهته بأنظاره..

وأخيرًا قاموا فانصرفوا، وكان ذلك الشاب لا يزال يلازم مكانه، فألقى عليه طاهر ما يشبه نظرة تحية، أو توديع، إلا أنه تظاهر بعدم الانتباه..

أوصل المحافظ طاهر إلى فندقه بسيارته، وانصرف هو. وبقي طاهر في بهو الفندق قليلًا في انتظار أن يراجعه من أبلغهم الرسالة.. ثم تهيأ له أنهم لن يأتوا إلى مكان عام كهذا، وإن أتوا فسيأتون بلا صخب فيسألون عنه ويطلبون منه تلفونيًا أن يصعدوا إلى غرفته، وعلى هذا فقد انسحب إلى غرفته وبقي ينتظر هناك، دون جدوى..

وفي أول المساء نزل إلى مطعم الفندق، لا لأنه كان جائعًا وإنما لسأمه.. وقضى وقتًا أطول مما اعتاد في تناول عشائه، الذي أكله دون أن يتناول مشروبًا، وأكل بعده مثلجات مفضلًا إياها على القهوة كي لا تزيد هذه سهره.. ثم صعد إلى غرفته، فتلهى بالمجلات التي كان جلبها معه حتى أغفى.

مر في الصباح على إدارته في مبنى المحافظة، فأوصى الكاتب بأن يعد له قائمة بنواقص المديرية بحيث تكون جاهزة خلال ساعة، لأنه ذاهب الآن إلى المحكمة لتفقد شئونها، ويريد القائمة جاهزة عند عودته، وانصرف.

في المحكمة عرف أن القضية الوحيدة الموجودة هي القضية التي توجد إضبارتها في بيته، في بغداد، فقد أنجز الحاكم السابق قضيتين أخريين كانتا هناك، تمهيدًا لتمتعه بإجازته السنوية..

عندما عاد إلى إدارته، تسلم من الكاتب القائمة قبل أن يدخل إلى مكتبه، وأوصاه بأن يطلب له القهوة، ثم دخل. وجد غرفة نظيفة مرتبة، واسعة أميل إلى الطول، في رأسها القريب من الباب يستقر مكتبه الفخم الخالي إلا من أدوات الكتابة، وإلى ورائه مكتبة فيها بعض كتب القانون، وأعداد مجلدة من «الوقائع العراقية»، تعلوها صورة لرئيس الجمهورية في إطار ذهبي.. وفي الطرف الثاني رتبت الأرائك بشكل يجعل ذلك الطرف من الغرفة مجلسًا حميمًا أكثر منه غرفة وقورة في مكتب مدير عدل.. أطل منها فوجد ساحتي التنس والاسكواش المتعلقتين بنادي

النفـط تواجهانـه.. كمـا رأى جـزءًا مـن حديقـة النـادي وطرفًـا مـن مسـبحه..

سمع طرقًا خفيفًا على الباب فأذن بالدخول.. جاءه فراش مهندم بالقهوة، ووضعها على مكتبه بصمت وانسحب..

عاد إلى مكتبه، فوضع الورقة أمامه، وبدأ يتناول القهوة وهو يفتش أدراج المكتب، فوجدها خالية جميعًا.. وكان على وشك أن يدق الجرس كي يأتي الفراش فيأخذ فنجان القهوة، عندما رأى الباب يفتح، ويدخل منه الشاب الذي كان يراقبه بالأمس في النادي.. اشمأز من فظاظته ودخوله بلا إعلان، بقدر ما خاف من ذلك، وزاد من خوفه أن الداخل أقفل باب الغرفة، ووضع المفتاح في جيبه، وذهب إلى طرف الغرفة الآخر حيث جلس في مواجهته دون كلام.. تأمله طاهر قليلًا، ثم قال بعد أن تغلب على وقع المفاجأة وارتباكه:

- أتظن أن هذه طريقة طبيعية لدخول دائرة رسمية؟

- العفو أستاذ.. ظروفنا لا تسمح لنا أن نلتزم بالأصول.. ووقتي وظروفي الشخصية لا تسمح لي أن أطيل.. وفي الحقيقة ليس لدي ما أقوله غير إبلاغك بأننا نعرف لماذا جئت إلى هنا ونعرف أنهم أوصوك بالتشدد وربما بإصدار حكم الإعدام.. أريد أن أقول إننا لا نقبل بهذا، وإلا أنك سترى النتيجة قبل أن يُعدم.. لا تعتبر هذا تهديدًا، هو إنذار أول وأخير.. فأنا لا أحب التهديدات.

لا يذكر طاهر كيف سيطر على أعصابه، ولكنه ابتلع ريقه وتحدث - وهو يعجب لأن صوته صدر باردًا هادئًا:

- لن أسألك عن اسم حضرتك لأنك لن تقوله، ولأنه لا ينفعني الاسم، ربما سيكون اسمًا وهميًا.. ولن أسأل من هم «إننا» الذين ذكرتهم، لأنني فهمت المقصود.. حزب المتهم.. وهذا يكفيني.. فقط أود أن أقول لك شيئًا واحدًا.. إنه معروف عني.. وأنت - أو أنتم- لا بد تحريتم جيدًا وعلمتم بحرصي على العدالة وسلامة الإجراءات، وبطبعي ميال للرأفة.. لكن هذا الأسلوب - وهذه نصيحة لك- لا تنفع مع أشخاص مثلي.. أما مع أشخاص عندهم مثل أفكاري عن العدالة والقانون، لكن عصبيين، فهذا الأسلوب يضر أكثر مما ينفع.. لأن يجعلهم يضطرون إلى رد فعل عكسي ويقاومون مثل هذا الضغط برد فعل متطرف.. هذه نصيحة لك شخصيًا لأنك ما زلت شابًا وتجاربك قليلة.. أرجو ألا تعتبر هذا الكلام استهانة بك، لأني معجب باندفاعك وشجاعتك بدخول النيابة بالنهار، وكان يمكن أن تصادف بعضًا ممن تهربت منهم أمس بالنادي.

ولاحظ هنا أن الشخص الذي انتهك غرفته قد ابتسم.. أكان ذلك لأنه وجده انتبه إلى غيابه طوال حضور مدير الأمن في صالة النادي؟ أم غرورًا لأن مدير العدل أبدى إعجابه بشجاعته؟. وواصل كلامه:

- وأيضًا شجاعتك بدخول غرفتي واحتجازي لأن هذا الموضوع إذا اكتشف لن يعرف أحد نتائجه.. يمكن - حتى

من أجل أن يخلصوني دون الرضوخ لك- أو لكم- لن يجدوا مشكلة في مهاجمتنا حتى إذا أدى الأمر إلى مقتلنا نحن الاثنين.. ومع ذلك أنت نفذت العملية بدون أن تفكر بهذا الأمر.. على كل حال، معلوماتك صحيحة.. ومن مهمات مجيئي إلى هنا إجراء هذه المحاكمة.. ولمصلحتنا نحن الاثنين سأعتبر هذا اللقاء لم يتم ولم أسمع أي كلام عن هذه القضية.. وسوف أنسى تهديداتك وأقول لك إني ليس لدي أي تصور عن نتيجتها، ولا يمكنني أن أكوّن رأيًا وأصدر حكمًا إلا بعد انتهاء الإجراءات.. ويمكنك أن تفعل ما تريد.

- من معرفتنا بتاريخك القضائي النظيف النزيه أعتمد على كلامك.. لكن مع ذلك أكرر التحذير أن إعدام «كمال» - إذا كنت أنت سببه- لن يتم بسلام بالنسبة لك.. أنا اسمي صدام حسين التكريتي، وهذا اسمي الحقيقي وليس زائفًا وأجهزتكم تعتبرني مسئول منظمة «حُنين».. وقد تتصور أنني مهتم بهذه القضية بشكل خاص، لأن كمال عضو بهذا التنظيم حسب تصور هذه الأجهزة، ولا بد أن هذا موجود عندك بالإضبارة.. في أمان الله.

وخرج بهدوء كما دخل.. وبعد أكثر من خمس دقائق دخل عليه الكاتب شاحبًا مضطربًا فطيب طاهر خاطره:

- ألم تر مثل هذه الحادثة سابقًا؟ لا تهتم.. وأرجو أنْ لا تحدث أحدًا عنها.. انسها.. فأنا لم أخاصم الشاب لأنني لا أريد استفزازه حتى تسير الأمور على خير.. فأرجوك انس.. واحجز لي بقطار اليوم إلى بغداد.

وعندما انصرف الكاتب ألقى نظرة على القائمة، ثم شرح تحتها في طلب استكمالها.. وأخذها باليد إلى المحافظ. تحدثا قليلًا، وقدم طاهر القائمة راجيًا تنفيذ ما طلبه فيها مع الإصلاحات المطلوبة للمنزل، وأعلمه أنه مسافر بعد ظهر اليوم إلى بغداد وينتظر برقيته أو تلفونه، وودعه.

عرّج على مدير الأمن فوجده في مكتبه.. سأله:

- بالإجراءات الخاصة اللي اتخذتها أمس لحفلتنا.. هل وضعت مراقبين؟

فضحك مدير الأمن:

- طبعًا.. لماذا؟

- رأيت شخصًا مكانه غريب وجلسته أغرب.. كان جالسًا قرب الباب، وبدل أن يراقب الباب كان يراقبنا.. إذا كان من جماعتك أود أنبهك حتى تعلمهم.

فقال مدير الأمن:

- لا.. الجماعة التي وضعتهم للمراقبة جيدون وهذا شغلهم.. كانوا جالسين في طرفي مائدتنا، والبقية خارج القاعة الرئيسية.. هذا أعتقد شخص جاء بشكل اعتيادي.. أتتصور أنه كان يراقب؟ حتى أوصي بالتحقيق.

فقاطعه بسرعة:

- لا..لا.. لا أتصور شيئًا.. قد يكون عجبه مشاهدة مسئولي المدينة. لا أعتقد أن الموضوع يستحق التحقيق، حتى لا

يكبر وتدور الإشاعات عنه في المدينة.

- أنا أيضًا أتصور هكذا.

***

وعاد إلى بغداد.. واتصل من بيته بعبد الرحمن في بيته يخبره أنه قادم لزيارته.. وفي بيته قال له:

- العفو أبو قيس.. السيد الرئيس بلغني بشكل مباشر فإذا ممكن أنا اتصل به بشكل مباشر حتى أعطيه انطباعاتي الأولى.

- تدلل.. سأتصل بك غدًا وقت الظهر.. أين ستكون؟. أو.. لا.. لا.. تعال عندي في الساعة الثانية والنصف لتناول الغداء معًا.

***

كانا يتناولان الغداء عندما دخل الرئيس، الذي رحبت به أم قيس، زوجة أخيه.. فاختار مقعده إلى جانبهما وتناول لقمة أو لقمتين معهما.. ثم قال لطاهر:

- إي أستاذ.. تفضل.

- سيادة الرئيس.. عندي سؤال.. أيعلم أحد بمهمتي في كركوك؟ المحافظ، مدير الأمن، مدير استخبارات الفرقة أو حتى قائد الفرقة؟

- لا.. لم؟

- أعتقد أن الخبر وصل.. لأنني لاحظت بأني مراقَب. سألت مدير الأمن، لم يكونوا من جماعته.. لم أرد أن أكبّر الموضوع.. فلم أسأل أحدًا غيره.. إذا رأيت الأمر مهمًا جدًا اقترح التحقيق بهدوء لاكتشاف وجود تسرّب من القصر.

ولاحظ أن الرئيس انشغل بالتفكير، بصمت. وبعد قليل، نهض، فشكره، وقبل أن ينصرف سأله طاهر:

- سأعود بعد عدة أيام.. حضرتك ما زلت موافقًا على الخطة التي اقترحتها على سعادتك؟

- نعم، نعم.. اشتغل على طريقتك، وخبرني قبل النتيجة النهائية.

وفي الصباح التالي اتصل بنهى.. حياها وسأل عن صحتها وصحة الفتاتين، ثم طلبها إلى لقاء عصرًا.. حيث قضيا وقتًا هانئًا لم يشبْه إلا اشمئزازه الذي تحول إلى قسوة لئيمة تحملتها نهى بعد دفق المحبة الذي غمرها به.. وكذلك فعل في اليومين التاليين. وفي اليوم الثالث اتصل طالبًا إحدى الفتاتين، فأخذت عاطفة سماعة التلفون من أمها، وسألها:

- أيعجبك أن تأتي مع سلوى؟

- طبعًا.

- وسلوى؟

- موجودة.. حاضرة.

فحـدد لهمـا موعـدًا لعـصر اليـوم. ومـا أن وضـع سـماعة التلفـون حـتى رن جرسـه.. كان كاتـب محكمتـه في بغـداد.. أخـبره أنـه يتصـل منـذ مـدة ولكـن تلفونـه مشـغول.. وأنـه تلقـى منـذ سـاعة برقيـة مـن كركـوك موجهـة إليـه، يعلمـه فيهـا السـيد المحافـظ بـأن النواقـص اسـتكملت وأنهـم ينتظرونـه.. شـكر الكاتـب، وطلـب منـه أن يحجـز لـه عـلى قطـار الغـد.. قمـرة رباعيـة.. وطلـب أن يضعـوا التذاكـر باسـمه عنـد مديـر المحطـة، فهـو سـيدفع قيمتهـا نقـدًا..

***

بعـد العبـث مـع الفتاتـين أخبرهمـا أنـه مسـافر غـدًا، فـإن كانتـا تريـدان مرافقتـه عليهمـا انتظـاره في التاسـعة والنصـف مـن صبـاح الغـد في محطـة القطـار.. لـم تفاجـأ الفتاتـان كثـيرًا.. فقـد اعتادتـا عـلى مواعيـده الآنيـة..

والتقاهمـا صباحًـا في المحطـة.. فاصطحبهمـا إلى قمرتـه.. وبمجـرد أن احتوتهـم القمـرة فتـح حقيبـتي سـفر الفتاتـين وفتشـهما بعنايـة.. وأخـرج مـن كل منهمـا عـددًا مـن ربطـات الشـعر ومعطفًـا خفيفًـا.. ثـم تذكـر شـيئًا.. فعـاود الفحـص في الحقيبتـين حـتى وجـد بضعـة جـوارب سـوداء لمـا فحصهـا وجدهـا شـفافة.. فمـط شـفتيه في عـدم رضـا.. إلا أنـه لـم يقـل شـيئًا.. وانتظـرت الفتاتـان انتهـاء طقـس التفتيـش.. ولمـا انتهـت إجراءاتـه، طلـب مـن سـلوى الخـروج والتفـرج عـلى مناظـر الطريـق مـن شـباك الممـر.. فخرجـت. جـرد عاطفـة مـن ملابسـها قطعـة قطعـة، وتفحـص الملابـس، ثـم جسـدها،

ولما اطمأن أعاد إليها ملابسها.. فلبستها، وبدون أن يقول شيئًا خرجت وأرسلت سلوى.. التي مرت بالطقوس نفسها.

وجلسوا في جلسة هادئة، كعائلة صغيرة في سفرة اعتيادية.. يتناولون المرطبات التي جلبها لهم خادم القطار ويتجاذبون أحاديث شتى.. وقبل أن يصلوا كركوك قال للفتاتين:

- من أجل تجنب تعارفكم على أحد.. فأنتما محافظتان جدًا، قوما بتغطية شعركما عند نزولكما من القطار، والبسا هذين المعطفين والجوارب.. وأول شيء تفعلانه غدًا هو أن تقوما بشراء عدة أزواج جوارب سميكة داكنة الألوان.. ومع أن لا أحد يعلم بمجيئنا، لكن الأخبار تنتشر بسرعة.. أنا سوف أحاول أن أتجنب الدعوات العائلية.. أعلم أن مثل هذا الوضع مزعج لكما.. لكن إن شعرتما بالملل والكآبة اخبراني فورًا حتى أعيدكما إلى بغداد.

نزلتا من القطار..

ولكن منظرهما ووضعهما في البيت، عندما دخلتاه، تغير كثيرًا.. فبعد أن استحمتا - واستحمتا معًا- لم تلبسا شيئًا، وإنما اكتفتا بلف جسديهما بمنشفتين كبيرتين دخلتا بهما غرفة النوم، حيث لحق بهما طاهر بعد أن رتب أشياءه واستحم.. وانصرفوا إلى المداعبة مع بعضهم طيلة ساعتين.. ثم قام طاهر فاتصل بنادي النفط، فطلب المدير.. عرفه بنفسه، وطلب منه عشاء لثلاثة أشخاص.. وأضاف:

- لـو تتكـرم أود أن تـأتي حضرتـك مـع الشـخص الـذي سـيجلب العشـاء.. لأن عنـدي معـك كلام.

- تأمر أستاذ.. سأجيء إليك.

***

وصـل العشـاء، ومعـه النـادل.. ولـم تخـرج الفتاتـان.. جلـس طاهـر مـع مديـر النـادي، وطلـب منـه أن يأمـر النـادل الـذي جلـب لهـم الطعـام أن يعـد لهـم المائـدة.. ثـم أخـبره بالموقـف:

- معـي خطيبـتي وأختهـا.. لـم تتعـودا عـلى الطهـي.. فالمطلـوب ثـلاث وجبـات يوميًـا.. السـاعة السـابعة والنصـف.. الثانيـة والنصـف.. الثامنـة والنصـف.. أفضّـل أن يجلبهـا نفـس العامـل وهـو يرتـب لنـا المائـدة.. ليـس هنـاك داع لانتظـاره حـتى يأخـذ الصحـون.. يأخذهـا بالوجبـة التاليـة.. عـلى كل حال، البنـات يعرفـن غسـل الصحـون.. هـه هـه هـه.. أريـد كيلـو قهـوة.. كيلـو كاكاو.. وصندوقـين بـيرة.. وقنينـتي نبيـذ أجنـبي. لأني لا أشرب محـلي.. وحـتى لا تـدور إشـاعات في المدينـة أنـه عـشر علـب بـيرة ذهبـت لبيـت الحاكـم..

وفي ذلـك اليـوم وصلتـه قنينـة نبيـذ. سـجل مديـر النـادي بعـض الملاحظـات، وأكـد لـه أنـه سـينفذ كل شيء حسـب طلبـه، وأخـذ النـادل معـه وانـصرف.

***

عندما رجع طاهر من الإدارة ذلك اليوم كانت الفتاتان تعرضان له برضا ساخر جواربهما الجديدة، وعندما جاء النادل بالغداء.. انسحبت الفتاتان إلى المطبخ.. فيما كان النادل يعد المائدة.. ثم استأذن وانصرف..

وقضوا بعد الظهر في الراحة والكسل..

وأعادت الفتاتان عصرًا ترتيب غرفة النوم، على أمل أن ترتبا الصالة غدًا.. وإذا بقي عندهما دافع للعمل، أن ترتبا الطابق الثاني أيضًا..

عندما فتح طاهر الباب لنادل النادي لاحظ أنه جاء بسيارة.. فأدخل البيرة والمشروب تباعًا، ووضع ذلك في المطبخ جميعًا، ثم وضع النبيذ وبعض علب البيرة في الثلاجة وخرج ليعود بالطعام.. لكنه لم يعد وحيدًا.. بل دخل معه شخص آخر يحمل كيسًا بلاستيكيًا سميكًا مما يستعمل للمشروبات الثقيلة.. سلم وانشغل بترتيب المائدة مع النادل مما أثار استغراب طاهر، فسأل النادل عنه:

- من طلب منك أن تجلب مساعدًا؟

ولكن قبل أن يجيب النادل كان مساعده المزعوم يوليه ظهره ويتجه إلى طاهر غامزًا، وهو يقول:

- العفو أستاذ.. هو لم يجلبني.. أنا جئت.. خبرته أننا أقرباء، وأنني تنكرت حتى أعمل لك مفاجأة..

وغمز بعينه. واكتشف طاهر فيه زائر الإدارة قبل بضعة

أيام.. المهدد.. صاحب الاسم الغريب.. ماذا كان؟. التكريتي.. فلزم الصمت بانتظار أن يعرف ما يريد.

أكمل النادل شغله، وسأل طاهر إن كان عنده أمر آخر، ولما نفى هذا شاكرًا، انصرف. وللتو تحدث الضيف الثقيل:

- العفو أستاذ.. لا أريد أن أضايقكم.. جلبت لكم هدية.. (وقدّم له زجاجتي نبيذ)، وعرفت أن العائلة جاءت معك فقلت إذا تسمحون هذه هدية لهما أيضًا.. (وقدم ربطتي شعر كبيرتين موردتين).

وانصرف بغتة. هذا ليس تذكيرًا فقط إذن، بل هو إنذار أيضًا.. إنذار بإيصال الأذى بعيدًا.. كان يتوقع مواصلة الضغط، ولكنه لم يكن يتوقع أن يشمل التهديد غيره، وإن كان لمن يتعلق به، وللنساء خاصة، وبالأخص عندما يكون المهدد ناطقًا باسم حزب!

***

منذ اليوم التالي انشغل طاهر بالإعداد لافتتاح المحاكمة.. وعقد جلستها الأولى يوم السبت، كعادته.. وبعد سماع مرافعة الادعاء العام، رفع الجلسة ولكن لا إلى أسبوع وإنما إلى اليوم التالي.. وبدأ سماع الشهود، الذين كدّسهم الاتهام بالجملة.. ولكن شهاداتهم، التي كان التحريري منها فاقد القيمة، صارت الشفاهية، الحضورية، منها أتفه بكثير.. بعد أن أخذوا يضيفون إليها.. "يمكن"، "أتصور" و"سمعت".. ومع أن طاهر كان واثقًا أن أكثرهم

- إن لم يكونوا جميعًا، من عملاء الأمن والاستخبارات، إلا أنه وجدهم ينهارون سريعًا بعد سؤال أو إثنين من هيئة الدفاع، التي كانت تتألف من ثلاثة محامين! وكان طاهر قد تأكد له الآن أن الشهود خضعوا لرجّة تهديد شديدة.. ربما صاحبتها إغراءات إن هم أحسنوا "التصرف"..

انتهت شهادات الشهود يوم الإثنين، وقرر طاهر أن يسمع مطالعة الاتهام الختامية والدفاع صباح الثلاثاء.. وإن تطلب الأمر فسيعقد جلسة ثانية بعد الظهر.. وكان له ما أراد..

وجاءت مطالعة الاتهام باهتة أضعف من مرافعته الأولى، بينما تباهت هيئة الدفاع بتفنيدها لشهادات الشهود. ورفع طاهر الجلسة إلى السبت، لدراسة أوراق الدعوى وإصدار الحكم.. وعندما عاد إلى إدارة العدل طلب من كاتبه أن يحجز له مقصورة رباعية في قطار صباح الأربعاء..

وجلس فدوّن قرار الحكم، ووضعه مع الإضبارة في حقيبة يده..

وفي الصباح التالي خرج بعد الإفطار مباشرة فذهب إلى قيادة الفرقة، حيث طلب من القائد وصله بالتلفون الخاص لرئيس الأركان.. حيا عبد الرحمن، وبعد المجاملات قال له:

- سأعود اليوم، وودت أن أمر عليك لأنني مشتاق جدًا.. كما أنني سأنشغل في الأيام القادمة.

"-"-

- إذن، سأكون عندك في الساعة الثامنة. في أمان الله.

ثم شكر القائد واستأذن بالانصراف..

***

بعد ما أوصل الفتاتين إلى مكان قريب من بيت نهى، ذهب إلى بيته فأخذ حمامًا باردًا وجلس بانتظار اقتراب موعده مع عبد الرحمن.

ذهب إليه، وما أن جلس دقائق حتى فوجئ بمجيء الرئيس، الذي قال قبل أن يسلّم:

- ها.. حمامة أم غراب؟

لم يجد طاهر جوابًا على سؤال بهذه البساطة، فارتبك وهو يجيب:

- والله، سيادة الرئيس.. أعتقد أني توصلت للشيء الصحيح، فإذا حضرتكم تعتقدون إن الشيء الذي أراه صحيحًا حقيقةً صحيح، إذن فهي حمامة.. إما إذا رأيكم يختلف.. فالأمر أمركم.

وبعد أن جلسا شرح له باختصار ضعف قضية الادعاء، ثم انهيارها بتحوير الشهود شهاداتهم الأصلية - مذكّرًا بأنه وجدها قليلة الجدوى للإدانة أصلًا- ثم أعطاه مسودة قرار الحكم الذي أعده.. محاذرًا ثورته عليه..

قرأ الرئيس المسودة، ثم رفع نظره إليه متسائلًا.. فقال طاهر:

- براءة! رفعت الجلسة للسبت حتى أصدر الحكم.. والسبت سأطلق سراحه إذا لم تكن هناك قضية أخرى ضده.. كما اتفقنا قلت أخبركم حتى سيادتكم تتصرفون بالشكل الذي ترونه مناسبًا.

- حسنًا، حسنًا، حسنًا. فهمت.. أشكرك.

ولم يستطع طاهر أن يفهم إن كان راضيًا أم غاضبًا.

***

وعندما عقد الجلسة وأصدر قراره ببراءة المتهم، وإطلاق سراحه إن لم يكن متهمًا بقضية أخرى.. لم يعد عنده عمل في المحكمة.. فصار يعمل في إدارة العدل فقط.. ولما لم تكن أعماله هناك كثيرة، نظرًا لانتظام عمل الإدارة، سرعان ما ركبه السأم وصار يعد الأيام للعودة إلى بغداد..

ولكن يبدو أن الرئيس نسيه، ونسي وعده له بأن يعيده سريعًا.. أم لعله تعمد ذلك عقوبة له أو تعبيرًا عن غضبه عليه؟

في مساء الأربعاء الثالث بعد عودته إلى كركوك، عاد إلى بغداد، واتصل صباح الخميس بنهى وطلبها للساعة العاشرة.. جاءته في الموعد.. وكان لقاء حميمًا.. لم تلق منه

فيه قسوة لسان ولا فظاظة اتصال..

وفي الأخير قال لها:

- يبدو أنني سوف أتأخر في كركوك.. لا أريد أن تتأخر مشاريعكن بسببي.. كما أنني لا أعتقد أن أخذ الفتاتين معي مناسب في.

- إذن، خذني أنا.

وضحكت.

- لا.. لا.. لا يصح. لذلك توكلن على الله وسافرن وارجعن قبل خروج حامد من السجن حتى تحتفلن بحريته وزواجه في نفس الوقت.

- لكن أهل القتيل استأنفوا الحكم؟

- ولو.. وما همكم؟ إذا مشت دعوته ستكون أساسًا تدقيقًا بشكليات الإجراءات.. حتى أنهم يستدعون حامد.. وأنا واثق من شكلياتي.. فمحكمة الاستئناف سوف تنهيها خلال جلسة واحدة.. والنتيجة إيجابية.. إذا أرادوا أن يميزوا لاحقًا، يمكنكم إطلاق سراحه بكفالة، وحتى يمكن أن يتزوج ويسافر إذا كان يريد.. وإذا لا، فينتظر بعد إكمال التمييز.. لكن الآن، وفي هذه المرحلة، لا أرى داعيًا للانتظار.

وبعد أيام وفي عودته التالية إلى بغداد، لما اتصل بها وجاءته أخبرته بأنها رتبت إجراءات سفرها والفتاتين ليوم الجمعة.. فودعها وتمنى لهن سفرًا مريحًا ونتائج سليمة..

وبلغ من لطفه أن اتصل عصر الخميس فحيا الفتاتين وودعهما..

وكان في كركوك عندما بلغه خبر وفاة الرئيس في حادث الهليكوبتر المؤسف.. فعاد إلى بغداد مسرعًا، واتصل بعبد الرحمن معزيًا.. وبعد يومين كان ضمن رجال السلك القضائي الذين ألقوا النظرة الأخيرة على نعش الفقيد.. وعندما وصلوا إلى حيث كان يقف شقيقه، وجاءت نوبته لمصافحته معزيًا، ضغط على يد طاهر وقال له هامسًا:

- مر عليّ اليوم في الساعة الثامنة.

أعلم طاهر أنه سيصير الرئيس.. وأن القرار سيصدر غدًا أو بعد غد.. وأنه يريده وزيرًا.. للعدل، للدولة، لمجلس الوزراء.. لا يهم.. المهم أن يكون إلى جانبه.. وكان سهلًا على طاهر أن يقنعه بصرف النظر عن الفكرة.. فلم يكن الرجل ممن لديهم أفكار.. وأقنعه بأن يكون مستشارًا له في ما يريد.. بشكل غير رسمي.. ويبقى بعيدًا عن الأضواء.. حيث سيتمكن من تقديم خدمات أفضل.. زاعمًا أنه إنما يريد ذلك ليبقى يمارس عمله المعشوق: القضاء!

16

عندما أطاح البعثيون بصديقه عبد الرحمن لم يتأثر طاهر كثيرًا، خاصة وأن هذا الصديق لم يصبه سوء.. ولكنه تجنب رؤيته وحتى الاتصال به تلفونيًا لتوديعه..

وعندما بدأ اسم صدام حسين يطفح في الأخبار وعلى صفحات الجرائد كان طاهر قد نسي تقريبًا ضيفه غير المدعو في كركوك، وتهديداته الفجة.. خاصة وأن صورة له لم تكن ظهرت بعد.

وذات يوم، كان يشاهد التلفزيون - وقليلًا ما كان يفعل ذلك- فلفت المذيع نظره إلى فقرة ستقدم بعنوان «أنت تسأل والحزب يجيب» معلنًا أنه تسجيل كامل للندوة الشعبية المقامة في ساحة الكشافة، التي يطرح فيها المواطنون أسئلتهم ويجيبهم عنها «الرفيق صدام حسين التكريتي» نائب أمين سر القيادة القطرية للحزب..

حك الاسم دماغه.. ثم تذكره.. فانتظر بلهفة أن يرى الصورة ليرى إن كان الشخص هو نفسه.. عندما رآه وجد الملامح نفسها.. ولكنه استغرب من اللون، فقد كان الرجل يبدو على الشاشة أبيض البشرة مقبول اللون.. وسمعه يتكلم فوجد في كلامه عمقًا وتفهمًا ومحاولة جادة للإقناع.. تساءل مع نفسه، هل صار هذا الرجل لبقًا مهذبًا خلال سنتين؟ وبقي يشك في أن يكون هو نفسه..

ثم أبعده عن تفكيره مرة أخرى، إذ لم يكن له معه شأن..

***

كانت حياة طاهر قد عادت في هذه الأثناء إلى مجراها السابق.. ومن الدعاوى الثلاث التي نظرها ظفر بمنافع مرة واحدة.. ولكنه لم يجد فيها أمًّا: أم متهم أو غيره.. يجد عندها ما كان يبحث عنه عند أم حامد.. التي عاشت علاقته معها، خاصة وقد صارت تأتيه متحررة من أي قيد.. فقد اجتاز حامد التميز، وجرى تصديق براءته، بل حتى أن عائلة الضحية اقتنعت ببراءته، فلم يكن ثمة ظل تهديد عليه.. وقد تزوج.. وعرضت أمه على طاهر أن يسمح له بزيارته للتعبير عن شكره، فرفض بحزم.. كما كان تجاهل قبلها تلميحاتها إلى رغبة عاطفة في رؤيته..

***

بدأت الوزارة حملة لإجراء إصلاحات في أساليبها الإدارية وفي عمل المحاكم، بناء على توجيهات حزبية.. فقدمت الوزارة ورقة عمل، عممتها على الأجهزة القضائية وجمعية الحقوقيين ونقابة المحامين طالبة دراستها وتقديم الدراسات بشأنها، مطلقة الحرية لمن يريد المشاركة في المداخلات أن يتناول الموضوع الذي يريد من موضوعاتها. وقد نظر طاهر إلى الأمر نظرة جدية كما يفعل مع كل إجراء حكومي وطلب رسمي واختار لمداخلته «إجراءات جمع الأدلة»..

كان ترتيبه الثاني بين المحاضرين في اليوم الثالث من النشاطات المتعلقة بالورقة، وبينما كان طاهر في منتصف محاضرته امتلأت القاعة بشباب كانت أسلحتهم الشخصية تنتأ من ملابسهم وأجهزة اتصالاتهم مرفوعة في أيديهم.. وبعد أن توزعوا على ممرات القاعة متفحصين الوجوه اتخذ كل منهم لنفسه موقعًا: وقوفًا وجالسين، من كواليس المسرح حيث يجلس طاقم مداخلات ذلك اليوم إلى الأبواب الجانبية وأبواب المدخل الرئيسة.. فهم وزير العدل، فنهض وأشار إلى رئيس الجمعية والنقيب أن يتبعاه، وعندما نهض له جلوس الصف الأول احترامًا حياهم، راجيًا إياهم الجلوس لأنه عائد سريعًا.. وبعد دقائق لاحظ طاهر موكبًا يدخل، يتوسطه شخص منتصب القامة أميل إلى الطول يحيط به الوزير من جانب والمسئولون النقابيون من الجانب الآخر.. وأحس الحضور بالحركة تتقدم من ورائهم فراحوا يتململون في مقاعدهم ثم يستديرون فاكتشفوا في الزائر شخص السيد النائب..

نهض طاقم ندوة اليوم مرحبًا وبدأ الحضور تصفيقًا مدويًا مستطيلًا.. وانفتح فم السيد النائب في ابتسامة لا عذوبة فيها.. انتبه طاهر إلى أن القادم صاحبه لما قبل بضع سنوات.. ولكنه كأنه ليس بصاحبه ذاك.. لقد تنازل الرجل عن لقبه العائلي - المنطقي، ولكنه اكتسب بدلًا منه رزانة وألقابًا أخرى جمع فيها كل النيابات الممكنة.. لا.. اللائقة به.. صار نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، نائب

رئيس الجمهورية، نائب القائد العام للقوات المسلحة، نائب أمين سر القيادة القومية، إضافة إلى كونه نائبًا منذ زمن لأمين سر القيادة القطرية، للحزب. ولما وجد الرجل أن نياباته تعددت، أوعز بالتخفف منها، فصار يكتفي بتسميته السيد النائب، وصار «السيد النائب» علَمًا على كل تلك النيابات..

وصل السيد النائب الصف الأول، فألقى نظرة عطف ومحبة على حكام محكمة التمييز! ووكيل وزارة العدل، واتخذ مجلسه مع الوزير بينهم، فيما تسابق حراسه الشخصيون فدخل إثنان منهم الصف الذي يليه، وأشارا إلى من كان مقعداهما خلفه بمغادرة مكانيهما ليحتلاه.. وتناثر الآخرون أمامه، بينه وبين المسرح، وفي زوايا القاعة، بينما تسابق رئيس الجمعية والنقيب فصعد كلٌ من سلّم، إلى المسرح، حتى وصل الرئيس إلى لاقطة الصوت أولًا، ليعلن الترحيب بمقدم القانوني، عضو الجمعية ورئيسها الفخري، ولم يكتف النقيب بالترحيب بالقانوني الأول في البلاد وإنما أعرب عن الأمل في أن يشرف الندوات بزياراته الدائمة ومداخلاته الفقهية وتوجيهاته النظرية القيمة ليغنيها!.. ثم ترك لاقطة الصوت طالبًا من المحاضر أن يواصل محاضرته.. فلم يدر المسكين من أين يستأنف وقد انقطعت كلمته قطعًا زاد عن الربع ساعة وهو يتساءل إن كان بمقدور أحد أن يفهم ما سيقول.. ولكن دربته المهنية أسعفته، فرحب بالضيف الكريم واعتذر عن إتمام المحاضرة راجيًا أن تكون أنفاس

السيد النائب ورعايته القادمة للندوات خير زاد للحضور في التفكير في إصلاح النظام القضائي والعمل عليه.. فشكره رئيس الندوة، وطلب من المتحدث الثاني، حاكم جزاء بغداد الأول، السيد طاهر عبد الحق، أن يقدم مداخلته.. تنحنح طاهر وصفّى حنجرته، ورحب بالزائر الكريم وأعرب عن الأمل باستمراره في رعاية الحملة، واستأذنه أن يبدأ مداخلته.. فتلطف عليه السيد النائب بابتسامة وهزة رأس.. وشرع طاهر يتحدث.. حتى بدا أن ورقته على وشك الانتهاء، مال السيد النائب على رئيس الجمعية وهمس له، فكتب هذا شيئًا على قصاصة ورق، ونهض فصعد خشبة المسرح، وناول القصاصة لرئيس الجلسة. فتح هذا القصاصة المطوية، فوجدها موجهة إلى طاهر، فسلمها له عندما كان يقرأ العبارات الختامية من مداخلته..

«السيد طاهر.. سلِّم على السيد النائب بعد الانتهاء من كلمتك».

وبالفعل نزل طاهر عن المسرح وتقدم إلى السيد النائب، الذي نهض يستقبله عندما اقترب منه، وهنأه على كلمته «القيمة» بصوت سمعه المحيطون به، ثم أمره بالجلوس إلى جانبه وهو ينظر عن يمينه.. فاضطر رئيس محكمة التمييز إلى الانسحاب جانبًا وانسحب جلوس ذلك الصف كله يمينًا ليفسحوا مجالًا لجلوس طاهر..

عندما استقر المقام بطاهر، شكر السيد النائب على رعايته له، فعبر هذا عن اهتمامه الجاد بمحاضرته بصوت

مسموع، ثم مال على أذنه وقال:

- عرفتني؟

فأجابه طاهر:

- العفو أستاذ.. ما هذا التواضع؟ كيف لا أعرفكم؟

فأخرج خفية من جيبه بطاقة زيارة دسها في يده.. وقال له:

- فيها رقم تلفوني الخاص.. في أي يوم تريد يمكنك أن تتصل بين الخامسة والسابعة.. لكن غدًا تعال أريد أن أراك بنفس الوقت.. في أي مكان إذا اعترضوا طريقك أرهم البطاقة.

***

جاء إلى المنطقة الخاصة من الصالحية، فوجد جنديًا في حجرة خشبية مزروعة وسط الشارع المنتهي بالقصر الجمهوري يشير إليه بظهر يده أن ارجع.. فتوقف وأشار إلى الجندي أن يأتيه.. فنظر إليه هذا نظرة احتقار وبقي في مكانه.. نزل من سيارته وذهب إليه، وقد أخرج البطاقة من جيبه.. قدمها له دون أن يحييه، سائلًا:

- أتعرف القراءة؟ صاحب هذه البطاقة طلبني!

ذعر الجندي فلملم نفسه، واعتذر بأنه إنما يؤدي واجبه ويطبق التعليمات، سجل اسم طاهر في دفتر عنده، وسلمه البطاقة، وسمح له بالمرور.

ومر بعشرين منخلًا وغربالًا ومصفاة حتى وصل القصر، وهو يتساءل في سره ماذا يفعل المساكين العاملون في الدوائر المطلة على هذا الشارع للوصول إلى دوائرهم كل يوم أو الخروج منها للعودة إلى بيوتهم.. ومن أين يدخل المراجعون، وماذا حل بالمستشفى، أما زال يستقبل المرضى أم ألحق بالقصر أم أنه ألغي كليًا.. «لو كنت أعرف أن الأمر هكذا لجئت من الجسر المعلق»..، وجعلته المصافي المبثوثة داخل القصر يتحسر على السهولة والطبيعية اللتين دخله بهما معزيًا قبل سنوات.. حتى انتصب أخيرًا أمام شخص يرتدي الملابس المدنية ويجلس وراء منضدة بانت قوائمها وهي تخلو من الأدراج..

سأله عن اسمه وعنوانيه الدائميين: عنوان البيت وعنوان العمل، ثم عن طلبه.. فلم يفهم.. فقال له هذا:

- لماذا جئت.. ماذا تريد؟

فأراه البطاقة مرة أخرى:

- السيد النائب.. البارحة طلبني.

فحدجه بنظرة ارتياب، وقال له:

- تفضل اقعد.

وقعد.

تحدث الموظف بالتلفون، وبعد قليل انشق أحد الأبواب عن ضابط برتبة مقدم، ضخم الجثة، تذكر أنه

رآه مع النائب على التلفزيون في لقاء ساحة الكشافة ذاك.. وقف الضابط بوجه لا تبدو عليه أية إشارة أو انفعال قرب الموظف، الذي نهض احترامًا له، وتهامسا. كان طاهر ينظر إليهما فضولًا، فإذا بالموظف يشير إليه برأسه داعيًا، نهض ليذهب إليه، لكن المقدم اتجه نحوه مبتسمًا.. وعندما اقترب منه قال له مرحبًا:

- أهلًا وسهلًا.. السيد النائب ينتظرك.. لكن عنده اجتماع خاص.. تفضل معي إلى غرفتي.

وقاده إليها.

لم يطل به الجلوس، حتى سمع صوت جهاز الاتصال الداخلي يدق بوقًا، سمع بعده صوت النائب:

- ها «يابه» صباح.. الأستاذ طاهر شرّف؟

- نعم سيدي.

- ادخله إذن.

وقاده المقدم المدعو صباح إلى غرفة واسعة تنقطع أنفاس المرء حتى يقطعها إلى المنضدة التي يجلس وراءها السيد النائب.. إلى أن توقف به قائده أمام المنضدة فتلطف السيد النائب بالتزحزح عن مقعده مرحبًا، مما حمل طاهرًا على سحب يده التي كان مدها لمصافحته..

- استرح «يابه».

وجلس طاهر على مقعده قرب المنضدة.

انتبه إلى أن في وسط الغرفة طقم أرائك، لما وجد النائب لم يتقدم إليه، ولا رافقه للجلوس هناك، عرف أن منزلته لم تصل هذا الشأن بعد.. بل أخذ يساوره القلق من أن يكون سيادته غاضبًا عليه للقائه البارد في كركوك، وجوابه الرسمي جدًا آنذاك..

رحب به كثيرًا.. والتفت إلى مرافقه الذي كان يقف عاقدًا يديه خلف عجيزته وقال يكلمه:

- الأستاذ طاهر هو الذي نظر بقضية رفيق دحام قبل عدة سنوات، وبرأه منها.. بدون تأثير من أي جهة. (والتفت إلى طاهر) هل تصورت أننا نسيناك؟. لا تظن أن الحزب ينسى أحدًا خَدَمه في أحد الأيام.. ولا طبعًا أي شخص أذّاه أو ضرّه.. الحقيقة أنا أول ما جئنا كنت أفكر بك.. طلبت إضبارتك ودرستها.. وشفتك مثال للحاكم الجيد.. وأردت أن أعينك في منصب آخر نستفيد به من خبرتك ونزاهتك في مجال آخر.. لكن لاحظت إنك كنت صديق شخصي للرئيس السابق وبقيت بعد ذاك بشغلك.. بينما عيّن كل أصدقائه وزراء.. لم يدع أحدًا تبقى حسرة في قلبه.. هه هه هه.. فعرفت أنك أنت نفسك لا تريد مثل هذه المناصب.. لذلك أجلت قضيتك إلى حين بحث موضوع إصلاح النظام القضائي.. وقلت نستفيد من خبرتك وآرائك فيها.. طبيعي أمرت وزير العدل بتنفيذ كل مقترحاتك.. لكن على المستوى الشخصي قل لي ماذا تريد «يابه».

- والله يا سيد النائب أخاف أقول لا أريد غير سلامتك

فتعتبرني منافقًا.. لكن الحقيقة لا أريد غير شيء.. و..

وسكت. فتلقف منه الكلام:

- و؟ قل.

- أنا أحلم بقضاء مستقل حقيقة.. وحضرتك تعرف أحد مواقفي، ولا بد اطلعت على غيرها من إضبارتي، يمكن بعض ضعاف النفوس يستغلون نفوذهم ويريدون يمارسون ضغوط علي بتهديدات، بتشويه سمعة، بإيذاءات.. فأريد حمايتك.. وأوعد حضرتك بأن أخدمك قضائيًا بأحسن وأسلم شكل.. وأكون جاهزًا عند الطلب في كل قضية.. وبنفس الوقت، أبقى بعيدًا عن الأضواء لأن حقيقةً لا أحبها.. وتأكد حضرتك أني في هذا الموقع أخدم أكثر من أي موقع آخر.

كان السيد النائب يهز رأسه طوال هذا الحديث علامة تأييد، ولما انتهى طاهر قال له:

- أنا معك.. أؤيدك، وأدعمك في طلبك.. أعطه بطاقة خاصة يا صباح.. في هذه البطاقة رقم خاص لا تعطه لأحد حتى إذا تعرضت لتهديد.. والأفضل أن تحفظ الرقم وتتلف البطاقة، وُخذ بطاقة صباح أيضًا، حتى إذا لم تجدني تعلمه وتتصل بك لاحقًا.

وأعطاه المرافق بطاقته أيضًا.. فشكر السيد النائب على اهتمامه ورعايته، واستأذن بالانصراف..

***

وعندما وصل إلى بيته ذهب إلى المطبخ وأخرج قنينة بيرة من الثلاجة، وجاء إلى الصالة وشغل جهاز التلفزيون.. فك ربطة عنقه ثم وضع بطاقة المرافق مع بطاقة سيده في مكان واحد، وأخرج بطاقة نائب الرئيس الجديدة فوجدها لا تحمل غير رقم تلفون.. بلا اسم، بلا عنوان، بلا أي شيء آخر.. كان التلفزيون يعرض برنامجًا عن عالم البحار، قال المعلق «هناك نوع من الأسماك تسمى الريمورا على رأسها ممص تساعدها على الالتصاق بالحيوانات البحرية الأكبر حجما كالقرش وتعيش على فضلاتها وتخلصها منها».

نهض، وعمل بـ«نصيحة» السيد النائب، فحفظ الرقم جيدًا، ثم سجله - احتياطًا- في دفتر ملاحظاته تحت رمز معين، ومزق البطاقة.

تمت

صدر عن دار الربيع العربي

2014

طهران..الضوء القاتم، أمير حسن جهلتن، رواية مترجمة
صياد الملائكة، هدرا جرجس، رواية
أبابيل، شريف عبد الهادي، رواية
الطبيبون، أدهم العبودي، رواية
النوم مع الغرباء، بهاء عبد المجيد، رواية
تقتلني أو أكتبها، عبد الصبور بدر، قصص
صف واحد موازي للوجع، ممدوح زيكا، شعر عامية
بنادورا، ميسرة صلاح الدين، مسرحية شعرية
لا شيء لي، محمد رجب، شعر

2013

بريود، محمد متولي، قصص
القاهرة، أحمد بخيت، ملحمة شعرية
آخر أحلام الدانتيل، معتز هاني، نصوص
شفرة فرويد، رامي جان، رواية
الوشم المقدس، شادي المحمودي، شعر

2012

ملك وامرأة وإله، نوال السعدواي، مقالات وقصص
آيات علمانية، عماد نصر ذكري، مقالات
الشوارع الجانبية للميدان، طارق مصطفى، متتالية قصصية
قميص جامعة الدول، أحمد الواصل، قصص
أورارا، فضل ساسي، رواية

وعندما وصل إلى بيته ذهب إلى المطبخ وأخرج زجاجة بيرة من الثلاجة، وجاء إلى الصالة وشغل جهاز التلفزيون.. فك ربطة عنقه، ثم وضع بطاقة المرافق مع بطاقة سيده في مكان واحد، وأخرج بطاقة نائب الرئيس الجديدة فوجدها لا تحمل غير رقم تليفون.. بلا اسم، بلا عنوان، بلا أي شيء آخر.. كان التلفزيون يعرض برنامجًا عن عالم البحار، قال المعلِّق: "هناك نوع من الأسماك تسمَّى الريمورا على رأسها ممصّ تساعدها على الالتصاق بالحيوانات البحرية الأكبر حجمًا كالقرش، وتعيش على فضلاتها، كالانتهازيين من البشر ولاعقي أحذية الطغاة"!

غسَّان حمدان

روائي عراقي، ولد في بغداد، ودرس في طهران، وهو إعلامي، وباحث في الشؤون الإيرانية، عمل أكاديميًا في الأدب الفارسي، وكتب وترجم في علم الاجتماع الإيراني وفلسفة الأديان القديمة والتصوف. ترجم عشرات الكتب الأدبية من الفارسية إلى العربية وبالعكس، كما ألف سلسلة كتب عن أثر الثقافة الإيرانية في سوريا.

أبو عبدو البغل

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

الربيع العربي للنشر والتوزيع